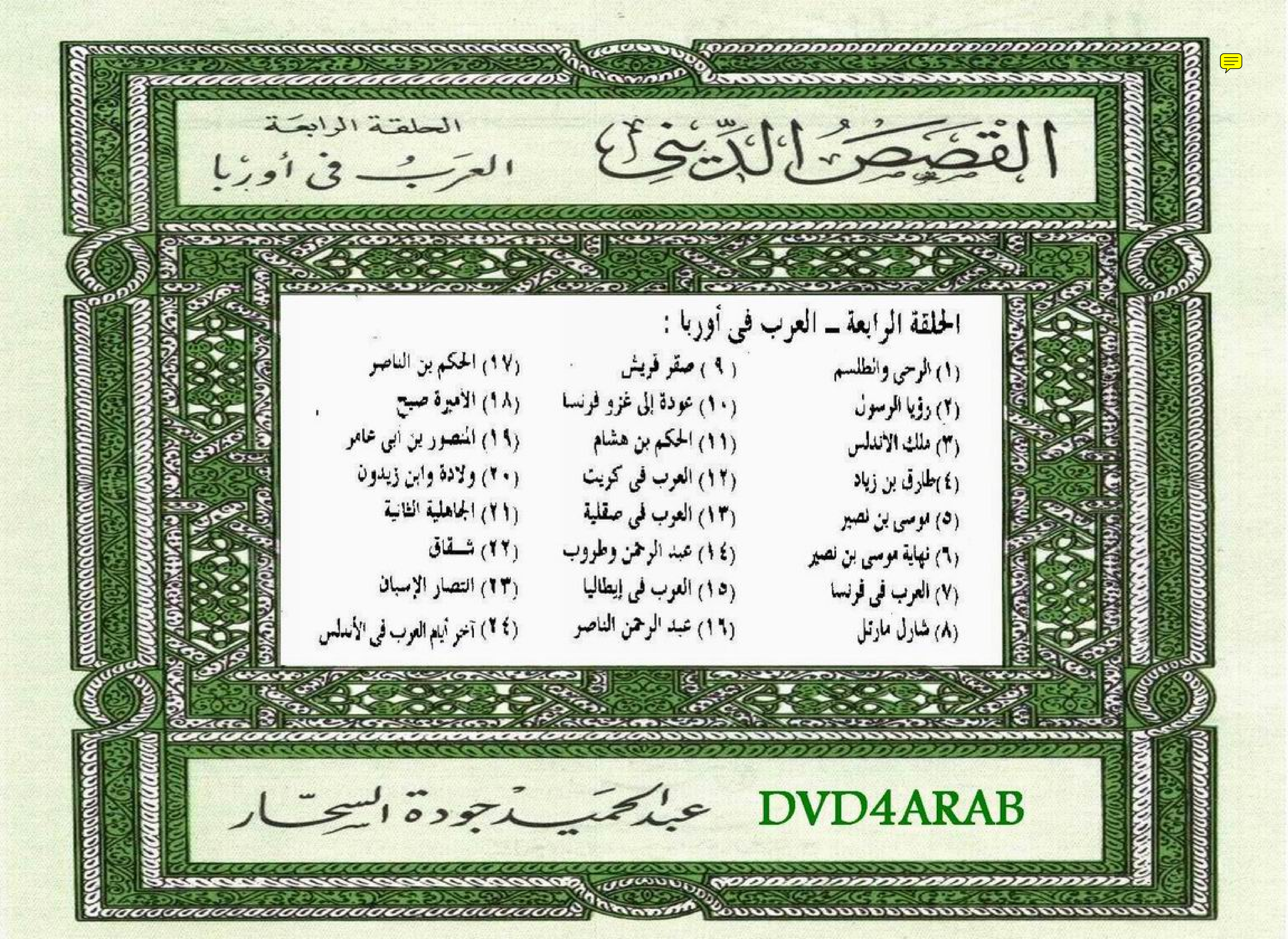

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
الحلقة الرابعة ـ العرب فى أوربا :
(١) الوحي والطلسم
(٢) رؤيا الرسول
(٣) ملك الأندلس
(٤) طارق بن زياد
(٥) موسى بن نصير
(٦) نهاية موسى بن نصير
(٧) العرب فى فرنسا
(٨) شارل مارتل
(٩) صقر قريش
(١٠) عودة إلى غزو فرنسا
(١١) الحكم بن هشام
(١٢) العرب فى كريت
(١٣) العرب فى صقلية
(١٤) عبد الرحمن وطروب
(١٥) العرب فى إيطاليا
(١٦) عبد الرحمن الناصر
(١٧) الحكم بن الناصر
(١٨) الأميرة صبح
(١٩) المنصور بن أبى عامر
(٢٠) ولادة وابن زيدون
(٢١) الجاهلية الثانية
(٢٢) شقاق
(٢٣) انتصار الإسبان
(٢٤) آخر أيام العرب فى الأندلس
DVD4ARAB
عبد الحميد جودة السحار

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الرمح والطلسم

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَلَمْ يَسيرُوا فى الأَرضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الأَرْض ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يكْسِبُون ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كان اليونانُ من قديمِ الزَّمان ، قَبلَ عهدِ الإسكندر ، يسكنون بلادَ الشَّرق ، وكانوا أهلَ حكمةٍ ورأى ، يعيشونَ فى بُحبوحةٍ من العيش ، يملِكون الممالك ، ويبسُطونَ سلطانَهم على ماجاورهم من بلاد .

ومرَّت السِّنون ، وظهرت قوَّةُ الفُرْس ، ونافستِ اليونان ، وزاحمْتهم على ما كان بأيديهم من الممالك ؛ فلمَّا ضاقتْ رُقْعةُ الأرضِ أمامَ اليونان ، انتقلَ بعضُ المغامرين من أهلِها إلى الأَنْدَلُسِ ، ولم

يكنْ لها ذِكرٌ إذْ ذاك ، كانت جزيرةً لم يَمْشِ فيها العُمران ؛ فلمّا وفدَ إليها اليونانيون المتحضِّرون ، وأقبلوا على عمارتِها ، فشقوُّا الأنهار ، وبَنُوا المعاقل ، وغرسوا الجنانَ والكروم ، وشيَّدوا الأمصار ، وملئوها حَرْثًا ونسْلاً وبُنيانا .

صارتِ الأَنْدَلسُ جَنَّةً في الأرض ، وصار هُمُّ أهلِها تحصينَها وحمايتَها من إغاراتِ الأُمم القريبةِ منها . نظروا فوجدوا أنّه لايحسُدُهم على رَغَدِ العيْش إلا هؤلاء الّذين يعيشونَ على مقرَبةٍ منهم فى ضيقٍ وشِدَّة ، وهُمُ العربُ والبرْبر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، وجعلوا يُفكِّرون فى حمايتها من نظرةِ الطمع ، التى تأتلقُ فى عيونهم .

٢

لم تكنِ الأندلُسُ مملكةً واحدة ، بل كانت عِدَّةَ ممالكَ مُتجاورة ، يحكمُ كلاًّ منها ملكٌ مُستقِلٌّ يُدبِّرُ شئونها . وكان بجزيرةِ قادس ، نواحى غربِ الأندلُس ، ملكٌ يونانيّ ، له ابنةٌ رائعةُ الحُسن ، غايةً فى الجمال ، تسامَعَ بها ملوكُ الأندلسُ ، فَطمِع كلٌّ منهم فى أن تكونَ زوجتَه ، فخرجوا إلى قادسَ يخطُبونها .

وغَصّ قصرُ الملكِ برسُلِ ملوكٍ وفدوا إليه ، يَطلبونَ يدَ ابنتِه ، فلمْ يغتبطْ ، واستولى عليه قلقٌ وحيْرة ، فما كان يدرى ما يفعل ؛ خَشِيَ إنْ زوَّجها

من واحد ، أسخطَ الباقين ، فيُعادونَه ، وتُصبحُ مملكتُه هدَفًا لإغاراتِ ملوكٍ حاقدين .

ودخل على ابنتِه وهو قلِقٌ مضطرِب ، فلمَّا لَمَحتِ الحزنَ فى وجهِه ، قالت :

ـ ما الَّذى يحزُنك يا أبى ؟

قال لها وهو مُطرِق :

ـ يابنيَّة ، إنّى أصبحتُ على حَيْرةٍ فى أمرِك ممَّن يخطُبُك من الملوك ، وما أُرضِى واحدًا إلاَّ أُسخِط الباقين .

فقالت فى هدوء :

ـ اجعلِ الأمرَ إلىَّ تخْلُص .

فنظر إليها مَلِيًّا ، ثمَّ قال :

ـ وما تقترحين ؟

قالت فى هدوء :

ـ أنْ يكون ملِكًا حكيما .

فهمس أبوها فى صوتٍ خافِت :

ـ ملِكًا حكيما !

ثم قال :

ـ ما أقلَّ الحكماءَ يابُنيَّة !

فقالت وهى تبتسم :

ـ هذا ما قصَدتُ إليه ، سيرجعُ أغلبُهم عن خِطبتهِم ، وبذلك نأمنُ عداوتَهم .

فانفرجتْ أساريرُ الملِك ، وقال :

ـ نِعمَ ما اخترتِه لنفسِك .

٣

وخرج الملكُ إلى رُسُلِ الملوكِ مُستبشِرا ، ودفعَ إليهم بجوابِه على طلبهم ؛ فعادَ الرُّسُل إلى الملوك ، فلمَّا وقفوا على الجواب ، سكتَ منْ لم يكنْ حكيما . ولكنَّ مَلِكيْنِ من الخاطِبين ، أعادا الكتابةَ إليه ؛ فلمَّا فضَّ كتابيهْما ، وجد أنَّ كلا منهما قد كتب أنَّه الملكُ الحكيم ، الَّذى تطلبُه ابنتُه ، فأصبح فى حَيْرَة ، وعاد إليه همُّه ، ودخل على ابنتِه ، وقال لها :

ـ يا بُنيَّة بقِيَ الأمرُ على إشكال ، وهذانِ ملكانِ

حكيمانِ ، أيَّهما أرضيتُ ، أسخَطتُ الآخر .

فقالت فى هدوء :

ـ هوّن عليك .

ـ وماذا تفعلين ؟

قالت :

ـ سأقترحُ على كلِّ واحدٍ منهما أمرًا يأتى به ، وأيُّهما سبق إلى ما التَمسْت ، كنت زوجتَه .

قال وهو ينظرُ إليها فى إعجاب :

ـ ما الَّذى تقترحين عليهِما ؟

قالتْ وهى تبتسم :

ـ ألسنا محتاجِين يا أبتاهُ إلى رحًى تدور ، لطحنِ الحبوب ؟

ـ نعم .

قالت :

ـ ألسنَا محتاجينَ إلى تحصينِ جزيرةِ الأندلُسِ من البربر ؟

ـ وما دخلُ الرَّحَى وتحصينِ الجزيرة ، فى طلب هذينِ الملِكين ، اللّذين يدَّعيان الحكمة ؟

ـ إنِّى مُقْتَرِحَةٌ على أحدِهما : إدارةَ الرَّحَى بالماءِ العذبِ الجارى إليها من ذلك البَرّ ، ومقْترِحَةٌ على الآخَر أن يتَّخذَ لى طِلَّسْما ، نُحصِّنُ به جزيرةَ الأندلسِ من البربر .

فأشرقَ وجهُ أبيها بابتسامةٍ عريضة ، وربَّت على كتِفِ ابنتِه فى حَنان ، وقال :

ـ بورِكَ فيكِ .

٤

وكتب إلى المِلكين بما قالتِ ابنتُه ؛ فأجاباهُ إلى ذلك ، واختارَ أحدُهما ، إدارةَ الرَّحَى بالماء العذب ، وقبِلَ الآخرُ إقامةَ طِلَّسْمٍ يحمى الأندلُسَ من إغاراتِ البربر ، الذين تأتلِقُ عيونُهم بالطَّمع فى الجزيرة .

راح المِلكانِ يعَملانِ دون كلال ، ليفوزَا بالأميرةِ الجميلة ؛ فراحَ صاحبُ الرَّحَى يقطعُ الحجارة ، ويُنضِّدُ بعضَها إلى بعضٍ فى البحرِ المالح ، الذى بين جزيرةِ الأندلسِ والبرِّ الكبير فى موضع زُقاقِ سَبْتَة ؛ فلمَّا تمَّ تنضيدُ الحجارةِ للملكِ الحكيم ، جَلَبَ الماءَ العذبَ من جبلٍ عالٍ فى البرِّ الكبير ، وسلَّطه من

ساقيةٍ مُحكمَة ، وبنى بجزيرةِ الأندلُسِ رحًى على هذه السَّاقية .

وأمَّا صاحبُ الطِّلَّسم ؛ فراح يرصُدُ النُّجوم ، ثمَّ ابتنى بنُيانًا مُربَّعا من حجرٍ أبيض ، على ساحلِ البحر ، فى رملٍ مُتراكم ، حَفَر أساسَه ، إلى أن جعلَه تحتَ الأرضِ بمقدارِ ارتفاعِه فوقَ الأرض ليثبُت ؛ فلمَّا انتهى البناءُ المربَّعُ إلى حيثُ اختار ، صَوَّرَ من النُّحاسِ الأحمرِ والحديدِ المُصفَّى ، المخلوطين بأحكمِ الخَلْط صورةَ رَجُلٍ بربرىٍّ لهُ لِحية ، وفى رأسِه ذُؤَابةٌ من شعرٍ جعْد ، وهو متأبِّطٌ بصورةِ كِساءٍ قد جمعَ طرَفَيْهِ على يدِهِ اليُسرَى ، بألطفِ تصويرٍ وأحكَمِه ، فى رجلِهِ نَعْل ، وهو قائمٌ من رأسِ البِنَاء على مكانٍ عالٍ بمقدارِ رِجْليه فقط ،

وهو شاهقٌ فى الهواء ، طولُه يزيدُ على ستِّينَ أو سبعينَ ذِراعا ، وقد مدَّ يَده اليُمنَى بمفتاحِ قُفْلٍ قابض عليه ، مُشيرًا إلى البحر كأنه يقول : لاَ عُبُور .

وكان تصميمُ التِّمثالِ بحيثُ إذا جرتْ فى البحرِ سفينةُ بربر ، يسقُط المِفتاحُ من يدِه ، فيستعِدُّ أهلُ الأندلُسِ لملاقاةِ الغازى المُغير .

٥

راحَ المِلكان يتسابقانِ ليفوزَ كلٌّ منهما بالجميلة ، التى كانتْ محطَّ أنظارِ كلِّ الملوك . وفرغَ صاحبُ الرَّحى أوَّلا ، وهُرعَ إلى الملكِ يَزُفُّ إليه النَّبأ ، ودخل الملكُ على ابنتِه ، وقال لها :

ـ لقد فرَغَ صاحبُ الرَّحى من عملِه .

فقالت الابنة :

ـ أخفِ أمرَهُ على صاحِب الطِّلَّسم .

فقال الأب في دَهَش :

ـ لماذا ؟

ـ لئلاَّ يترِكَ عملَه ، فيبطُلَ الطِّلَّسم ، لنحظَى بالرَّحَى والطِّلَّسمِ معًا .

فقال الأبُ في حيْرَة :

ـ وكيف نحتفِظُ لصاحبِ الرَّحَى بحقِّ سبقِه ؟

فقالت في ثِقَة :

ـ ما أيسرَ ذلك ! تُعلنُ عن الرَّحَى في صباحِ اليوم الَّذى يفرُغُ صاحبُ الطِّلَّسم في آخرِه .

فقال الأبُ في فرح :

ـ إنَّك أحكمُ منهما يابُنيَّة .

٦

وعكفَ صاحبُ الطِّلَّسم على عملِه حتى أتمَّه ، ولم يبقَ إلا بياضُ نهارٍ ليفرُغَ منه ؛ فبعثَ الملكُ إلى صاحبِ الرَّحَى أن أعلن عن فوزِك ، فأسرعَ إلى عملِه ، وأجرى الماء في الجزيرة ، وأدارَ الرَّحَى ، واشتهرَ ذلك ، وذاعَ أمرهُ ، وتحدَّثَ الناسُ عن فوزِ صاحبِ الرَّحى بالأميرةِ الجميلة .

واتّصَل الخبرُ بصاحبِ الطِّلَّسم ، وهو في أعلى القُبَّة ، يصقلُ وجه التِّمثال ، فلمَّا تحقَّقَ أنَّه مسبوق ، ضعُفتْ نفسُه ، فسقطَ من أعلَى البناء ميِّتا .

وتزوَّجَ صاحبُ الرَّحَى الأميرة ، وفاز بالجميلةِ

والرَّحَى والطِّلَّسم .

ومرَّتْ سِنونٌ والأندلُسُ فى مأمنٍ من غارات البربر ، ثم رُؤِى وضعُ الطِّلَّسم فى تابوتٍ من الرَّخام ، نُقل إلى بيتٍ فى « طُلَيْطِلَة » ، ووُضع على ذلك البابِ قُفل ، وأصبحتِ التَّقاليدُ تقضى أن يَضعَ كلُّ ملكٍ يعتلى المُلك ، قُفْلا على ذلك الباب ، تأكيدًا لحفظِ ذلك البيت .

وحانَ وَقتُ دخول العَربِ والبرْبرِ الأندلسُ ، واقتعدَ أريكةَ المُلكِ ملِك ، طمِعَ فى البيتِ المُحاطِ بالأسرار ، فعزمَ على أن يقتحمَ عليه قَداستَه ، فأمرَ بفتحِه ؛ فلمَّا تمَّ له ما أراد ، كان ذلك إيذانًا بانقراضِ دولتِه ، ودخولِ العرب إلى الأندلُس ، ليمكُثوا بها ما شاءَ اللّهُ لهم أن يمكثُوا .

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

رؤيا الرسول

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

انطلق رسولُ اللّهِ فى طرقاتِ المدينة فى حُلَّةٍ حمراء، يتكفَّأ فى مِشيته كأنَّما الأرضُ تُطْوَى له ، يلبَس النِّعال السِّبتيَّة ، ويطأ الأرضَ بقدمِه جميعا ؛ يُلقى السَّلامَ على أصحابه ، ويمسحُ بيدِه خدودَ الأطفال الَّذين يستقبلونَه فرحين ، فتملأُ أنوفَهم رائحةٌ أطيب من المسك ، وتَذْخُرُ صدورُهم بمشاعرَ أرقَّ من النَّسيم .

كان مستديرَ الوجه ، أبيضَ مُشربا بياضُه حمرة ، ضخمَ الرَّأس ، عظيمَ العينين ، أهدبَ الأشفار ، مقرونَ الحاجبين ، رَجْلَ الشَّعرِ أسودَه ، يضربُ مِنكبيْه ، كثَّ اللِّحيَة ، دائمَ البِشر ، سهلَ الْخُلُق ؛ فراحَ النَّاسُ يرنُونَ إليه ، وقد انشرحتْ صدورُهم ،

فقد أزاح الغِشاواتِ عن عيونِهم ، وأخرجهم من الظُّلماتِ إلى النور .

ودلفَ إلى دارِ مِلْحان ، واضطجع على حصير ، وراحَ فى النَّوم ؛ وجلست ابنة مِلحانَ عندَ رأسِه . فلمَّا استيقظَ ضحِك تبسُّما ، فاستنارَ وجهُه ، وكأنّه قطعةُ قمر .

فقالت : ما أضحكك يا رسولَ اللّه ؟

فقال وهو مُشرقُ الوجه : ناسٌ من أمَّتى عُرِضوا علىَّ ، يَركَبون ثَبجَ البحر ، مثلَ الملوكِ على الأسِرَّة .

فقالت : يا رسولَ اللّه ، اُدعُ اللّهَ أن يجعلنى منهم .

فقال وقد علاهُ البَهاء : أنتِ منهم .

فرفَّتْ على شفتيْها بَسمة ، وشرد بصرُها ، ورأتْ نفسَها بعينِ خيالِها تمخُر البحرَ مع إخوانٍ لها من

المجاهدين ، الّذينَ وهبوا أنفسَهم للّـه ؛ فخفقَ قلبُها شوقا ، وتدسَّس بين جوانِحها أملٌ حلوٌ مُرتجى .

٢

أقبلَ عُبادةُ بنُ الصَّامِت وصحبُه ، ودخلوا دَارَ مِلحان ، يعلو وجوهَهمُ البِشر ، وما استقرُّوا فيها حتّى قامَ رجلٌ يذكرُ مناقبَ عُبادة ، ويقول إنّه أحدُ الّذين وافَوا الرَّسولَ بالعَقَبةِ الأُولى ، ومن أوائلِ الّذينَ اختارهم رسولُ اللّهِ ليكونوا على قَدَمِهم فى العقبةِ الثانية ؛ وهو الذى أمره النَّبىُّ بالمُضِىِّ بيهودِ بنِى قَيْنقاعَ إلى ظاهرِ ديارِهم ، بعد أن أخذَ ما كان لهم من مالٍ وسلاحٍ وأمرَ بإجلائِهم . واستمرَّ الرَّجلُ يذكرُ فضائل عُبادة ، ولم يَقُلْ إلاّ صِدْقا . فلمّا انتهى من خُطبتِه ، قامَ رجلٌ آخرُ يُعدِّدُ فضائلَ مِلحانَ

وقومِه ، حتّى إذا أتم خُطبتَه ، جِيءَ بالطَّعام . فأقبلَ النّاسُ عليه مسرورين ، وارتفعتْ من حُجُراتِ النِّساء أصوات الدُّفوف ، وطَفِق بعضُ الأحباشِ يلعبونَ أمام الدَّار . ثمّ أخذتِ الأصواتُ فى الْخُفوت ، وجعلَ الرِّجالُ يَنْسَلُّونَ إلى دورِهم ، ولمْ يبقَ إلاّ عُبادَةُ ومِلحان ، فقادَ مِلحانُ صاحبَه إلى حيثُ كانت ابنتُه ، وقال له :

ـ بارَكَ اللّه لك فيهنّ .

وحمل عُبادَةُ بنُ الصَّامِت ابنةَ مِلحانَ إلى دارِه ، فقد صارتْ له زوجَة .

٣

بعث أبو بكرٍ الجيوشَ إلى الشَّام لغزوِ الرّومِ ، فخرَج عُبادةُ بنُ الصَّامتِ مع الخارجين ، وانطلقتْ

معه أمُّ حَـرام بنـتُ مِلحـانَ زوجُـه ؛ تشـاهد المواقعَ خافقـةَ القلـب ، مُضطربَـةَ النَّفـس ، كلمّـا زحـف الرِّجال إلى الرِّجال ، وتقـارعتِ السُّيوف ، مُشـرقةَ الوجه ، ضاحكةَ السِّنِّ ، قريرةَ العين ، كلَّما سقط النَّسرُ الرُّومـانىُّ وتقلَّـص ظِلُّـه ، وجلجلـت فـى السُّهولِ الفَيْحاءِ تكبيراتُ الفتح المبين !

وطُويتِ الأرضُ كما يُطْوَى البساط ، تحت أقـدام الرُّومان ، بعدَ أن رَوَّتْ دماؤُهم الوديانَ والسُّهول ، وتـردَّدت فـى الفضـاء صيحـاتُ خـالد بـن الوليـد ، وأبـى عُبيـدَةَ بْـنِ الجرَّاح ، وعمـرو بـنِ العـاص ، وصناديدِ المُسلمين ، كالزَّئير .

وانـداحَ المسـلمونَ فـى الشَّـام ، حتَّـى بلغـوا السَّواحلَ المشرفةَ على بحرِ الرُّوم ، فوقفت أمُّ حَرام ، بنتُ مِلحـان ، ترنـو إلى الماء فى شـرود ؛ كـانتِ الأفكارُ تنثالُ فى رأسِـها الصَّغير ، فتتحـرَّكُ الأمـانى

بينَ جوانحِها ، فيزدادُ وجيبُ قلبها ، وتتدفَّـقُ الدِّمـاء حارَّةً فى العُروق .

إنَّها ترى الماءَ مُنبسطًا أمامَها ، وقد انطبقـتْ عليـه السَّـماءُ فـى الأفـقِ البعيـد ، والمراكـب التـى خلَّفَهـا الرُّومُ جاثمةً فى المرفأ ارتفعتْ صَواريها فى الفضَـاء ؛ فيهزُّهـا السُّـرور ، وتتفتّـقُ أمـامَ عـينِ خيالهـا حُجُـبُ الغيْب ، عن عوالِمَ عجيبةٍ مسحورة ؛ فما هى إلاّ أن يضعَ المُسلمون أقدامَهم فى هذه المراكب ، ويمخُروا بها عُبابَ هذا البحْر ، حتَّى يمحُوا عنه اسمَ الـرُّوم ، ويحقِّقوا رُؤيا الرَّسول !

٤

واشرأبَّ مُعاويةُ بعُنقهِ ، ورمى ببصرِه إلى البحْـر ؛ فإذا بالأُمنِيَةِ التـى راودَتْـه فـى يقظتِـه ومنامِـه ، تحتَـلُّ أقطارَ رأسِـه . إنَّـه يرجـو أن يركـبَ البحـرَ فـى إثْـرِ

الرُّومِ المنهزمين ، فقرَّ رأيُه على أن يبعثَ بأُمْنِيَتِه إلى عمرَ أميرِ المؤمنين ، فكتب إليه :

« يا أميرَ المُؤمنين ، إنَّ بالشام قريةً يسمعُ أهلُها نُباحَ كلابِ الرّوم ، وصياحَ ديوكِهم ، وهم تلقاءَ ساحلٍ من سواحِلِ حِمص » ، وسأله أن يأذنَ له بغزوِهم . فلمَّا بلغَ الكتابُ أميرَ المؤمنينَ ، أطرق يُفكِّر ، فمعاويةُ هو المشيرُ بالغزو ، وما كان عمرُ ليأذنَ له قبلَ أن يستشير ، فكتب إلى عمرو ابنِ العاص : « صفْ لى البحر ، ثم اكتُبْ إلىَّ بخبرِه » .

وَبلغه كتابُ عَمْرو ، فكعفَ عليه يقرؤُهُ : « يا أميرَ المؤمنين ، إنِّى رأيتُ خلقًا كبيرا ، يركبُه خلقٌ صغير ، إن ركَنَ خرَقَ القُلُوب ، وإن تحرَّك أزاغَ العُقول ، يزداد فيه اليقينُ قِلّة ، والشَّكُّ كثرة . هم فيه كدُودٍ على عود ، إن مال غرِق ، وإن نجا برِق » .

ألفَى عمرُ أنَّ فى ركوب المسلمينَ البحرَ فى أثر عدوِّهم ، قبلَ أن تستقرَّ الأمورُ فى الأرض ، مخاطرة ؛ فكتب إلى مُعاوية : لا ، والَّذى بعث مُحمَّدا بالحق ، لا أحمِل فيه مُسلما أبدا .

٥

وكاتب ملكُ الرُّوم عمرَ وقاربَه ، ومشتِ الرُّسلُ بينَهما . وفى ذاتِ يوم بعثتْ أمُّ كُلثوم ، بنتُ علىِّ ابنِ أبى طالب ، زوجةُ عُمَر ، إلى ملكةِ الرّومِ بطيبٍ ومشاربَ وأحفاش من أحفاشِ النِّساء ، ودسَّتْه إلى البريد . فلمّا بَلغَ البريدُ امرأةَ هِرَقْل ، قدَّمَ إليها هدية زوجةِ أميرِ المؤمنين ، فجمعتْ نساءَها وقالت : هذه امرأةُ ملكِ العرب ، وبنتُ نبيِّهم ، أرسلت إلينا هَديَّة فماذا تَرَيْن ؟

ــ أهدى لها هديَّة ، تليقُ بامرأةِ هِرَقْل ملكةِ الروم .

فبعثتْ إلى أمِّ كلثومٍ بهدايا فاخرة ، وبعقدٍ يتألَّق يبهرُ العُيون . فلمّا انتهى البريدُ إلى عمَر ، ورأى الهدايا المُرسلة إلى زوجه ، دعا : « الصلاةَ جامعة » ؛ فوفد النَّاسُ من كلِّ صوب ، حتى التجَّ بهم المسجد ، فصلى بهم ركعتين ، وقال إنّه لا خيرَ فى أمر أُبرم عن غير شورى من أمورى ، قولوا فى هديَّةٍ أهدتْها أمُّ كُلثوم لا مرأةِ ملكِ الرّوم ، فأهدتْ لها امرأةُ ملكِ الرُّوم .

فقال قائلون : هُو لها بالّذى لها ، وليست امرأةُ الملكِ بذِمَّة ، فتُصانِعَ به ، ولا تحتَ يدِك فتتّقيك .

وقال آخرون : قد كُنَّا نُهدى الثِّيابَ لنَستثيب ، ونبعثُ بها لتُباع ، ولنُصيب ثمَنها .

فقال عمر :

ــ ولكنَّ الرَّسولَ رسولُ المُسلمين ، والبريدَ بريدُهم . رُدُّوا هذه الهدايا إلى بيتِ المال .

وانصرفَ عمرُ إلى دارِه ، وقد عَزَم أن يُردَّ على أمِّ كُلثوم بقدرِ نفقتِها .

واستمرّتِ الرُّسلُ بينَ عمرَ وملكِ الرُّوم . فتيقَّنَتْ أمُّ حَرام ، بنتُ مِلحان ، أنَّ بشارةَ الرَّسولِ لم يَحِنْ أوانُها ، ولكنّها كانت على ثقةٍ من أنّها من أولئك الّذين سيركبون ثَبَجَ البحر ، مثلَ الملوكِ على الأسرَّة .

٦

وقُتِلَ عُمر ، وصار عثمانُ خليفةَ المسلمين ، فعادتْ فِكرةُ ركوبِ البحرِ لغزو الروم ، تُلحُّ على معاوية ، فكتب إلى عثمانَ يستأذِنه فى الغزْو ، فشرح اللّهُ صدرَ الخليفةِ للفِكرة ، وأطرقَ يتدبَّر

أمرَه ، فألفَى أنَّ العربَ ليســت لهـم سـابقةٌ فـى هـذا الطرازِ من القتال . إنهم فُرســانٌ صناديد ، لا يُشقُّ لهم غُبار ، أَبطالٌ إذا صـالوا علـى الأرض ؛ أمَّـا فـى الماء ، فما يدرى ما يفعل هؤلاء الذين مرَّغـوا أنـوفَ صناديدِ الفُرس والرُّوم فى الرَّغام .

إنَّه يرى أنَّ من الحِكمةِ ألاّ يدفَـعَ المُجاهدينَ دفْعـا إلى هذا الخطرِ الجديد ، المحفوفِ بـالأهوال ؛ فكتـب إلى معاوية : « لا تنتخـبِ النَّـاس وَلا تقْـرَعْ بينهـم ؛ خيِّرهم ، فمن اختارَ الغزوَ طائعًا ، فأَحملْه وأعِنه » .

وخيَّر معاويـةُ النَّـاس ، فهُرعــتْ أمُّ حَـرام بنــتُ مِلحان ، إلى زوجِها عُبادة ، تحضُّه على التَّقدُّم ، فإذا به من أوائلِ الذيـنَ اختـاروا الغـزْوَ طـائعين . وتقـدَّم أبـو ذَرٍّ وأبــو الـدَّرْداءِ ووجـوهُ النَّـاس ، وتـأهَّبت المراكبُ للانطلاقِ لغـزوِ قـبرص ، أوَّلِ معْقِـلٍ بحْرِىٍّ للرُّوم .

وابتعدتْ أوَّلُ مراكــبَ إسـلاميّةٍ عـن الشـاطىء ، تحوطُها قلوبُ المؤمنين ؛ وراحــتْ أمُّ حـرام ترنـو إلى الواقفينَ مودِّعين ، وهى تبتعد عنهم رُوَيْدًا رُوَيْـدا ، فغامتْ مآقيها بـالدُّموع . وسـقط اللَّيْـلُ وابتلـعَ فـى جوفِهِ المراكبَ التى كـانت تَشُقُّ طريقَهـا فـى سـبيل اللّه ، فطفق المَسـلمونَ يقـرءونَ ويُصَلُّـون ؛ فـنزلتِ السَّــكينةُ بقلوبهــم ، وغشِـيَهُم أمْــن ، وأُفعمــتْ صدورُهم بالأمل الدَّفىء .

وَوقف قائدُ أَوَّلِ أسطولٍ إسلامىّ ، يبتهلُ إلى اللّــهِ فى حرارة :

اللّهـم ارزقْنـى العاقيـةَ فـى جُنـدى ، ولا تَبْتلينــى بمُصابِ أحدٍ منهم ، اللهم أنزلْ علينا نصرك ، اللهمَّ أيِّدْنا بروح مــن عنـدِك ، اللهـَّم انصُرْنـا علـى القـوم الكافرين !

وأصبحَ الصباح ، فَجَعلَـتْ أم حَـرام تُديـرُ عينيْهـا

فى المُجاهدينَ الذين معها فى المركب ، فإذا العزمُ الصّادقُ يلوحُ فى مُحيَّاهم ، وإذا بهم يركبون ثَبجَ البحر مثلَ الملوكِ على الأسِرَّة ؛ فتوَّجتْ شَفتيْها بَسمة ، وتبيَّن فى وَجهِها الرِّضا والغِبطةُ والسُّرور .

ولاحتْ مراكبُ الرّوم ، وخلفَها أرض الجزيرة ، قد نبتتْ فيها أشجارُ الفواكه ؛ فاصطفَّ المُسلمونَ فى المراكِب صفوفا ، وارتفعَ التكبيرُ والتَّهليل ؛ وهبّتِ الريح فجعلتْ تعبثُ بالمراكب ، ولكنْ لم تُزِغْ قلوبَ الصَّناديد .

ودنتِ المراكبُ من المراكب ، فربَط المُسلمونَ سُفنَهم بسُفنِ الرّوم ، ثم اجتلدوا وإياهُم بالسيُّوف ، ووثبَ الرِّجال على الرِّجال ، وَتألقَّتِ السيُّوفُ فى الشَّمس : كانتْ ترتفعُ لتهوى ، تقُط الرُّءوس . ودارتِ المعرَكةُ رهيبَةً قاسية ، فغلبَ الدَّمُ على لون الماء ؛ ولاحت مراكبُ فى الأُفُق البعيد ، إنها

الأسطولُ المِصرىُّ قد أقبلَ يقوُده والى مصرَ عبدُ اللّه بنُ سعدِ بنِ أبى سرْح ، ليشُدَّ أزْرَ إخوانهِ الخارجينَ منَ الشّام .

اندحرَ الرّوم ، وتقدَّمتِ المراكبُ من قُبرص ، حتّى إذا بلغتِ الشَّاطىء ، هبط المسلمونَ منها إلى الأرض ، وهم فى تكبير وتهليل ، وتقلَّص ظِلُّ النَّسرِ الرُّومانىِّ عن الجزيرة ، ووقع السَبْى ، وغنِمَ المجاهدون غنائم كثيرة ، وإذا بأبى الدَّرداء ينظُر إلى ما يقعُ أمامَ ناظريْه ، ثمَّ تغيمُ عينهُ بالدُّموع ، وتنحدِرُ حتَّى تبُلَّ لحيَته ؛ فيرنُو إليه رجلٌ فى عجب ، ويقول له :

ــ ما يُبكيك فى يوم أعزَّ اللّه فيه الإسلامَ وأهلَه ؟!

فضرب أبو الدَّرداء بيدِه على مَنْكِبِ الرَّجل وقال :

ــ ثكِلتْك أمُّك ، ما أهونَ الخلقَ على اللّهِ إذا

تركوا أمرَه . بينا هم أمة ظاهرةٌ قاهرةٌ للنَّاسَ لهمُ المُلك ، إذْ تركوا أمرَ اللّهِ ، فصاروا إلى ما ترى ، فسلّطَ عليهم السِّباء ، وإذا سُلِّطَ السبّاءُ على قوم ، فليس للّهِ فيهم حاجة .

وهبطتْ أمَّ حرام ، بنتُ مِلحان ، إلى الجزيرة ، وهى شاردةُ اللُّب ، تُمدُّ بصرَها إلى ما حولَها ولا ترى شيئًا ، فقد كانت ترى بعينِ خيالِها رسولَ اللّه وهو يضحكُ وقد استنارَ وجهُه ، كأنّه قطعةٌ من قَمر ، وتسمعُ بأُذنِها ما دارَ بينَه وبينَها :

ـ ما أضحككَ يا رسولَ اللّه ؟

ـ ناسٌ من أمَّتى عُرِضوا علىّ ، يركبون ثبَجَ البحر ، مثلَ المُلوكِ علىّ الأسِرَّة .

ـ يا رسولَ اللّه ، ادعُ اللّهَ أن يجعلَنى منهم .

ـ أنتِ منهم .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

ملك الأندلس

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنَّ للمُتّقِينَ مَفازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابا ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابا ، وَكَأْسًا دِهَاقا ، لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابا ﴾ .

(صدق الله العظيم)

١

كان غَيطشة يحكم الأندلُس ، وكان ملِكا عابثا ماجنا ، فراح يُشيعُ الفواحِشَ بين النّاس ، فعلَّم الشَّعبَ ارتكابَ الذّنوب ، واقْتِرافَ الآثام ، وكان رُودْريك (لُذْريق) أثيرًا لديه . كان يُقرِّبه منه ؛ لأنَّه ما كان يعصِي له أمرا ، وَكان الرِّجالُ الصَّالحونَ يُبغِضون غيطشةَ وحُكمَه . فلمَّا مات وترك أولادًا ضِعافا ، لم يجدوا من يعطِفُ عليهم ، لسيرةِ أبيهم البغيضة ، فانتهز لُذْريقُ هذه الفرصة ، واستمالَ طائفةً من الرِّجالِ مالوا معه ، فانتزعَ المُلكَ من أولادِ الملكِ المُستهتِر ، ونادى بنفسِه ملِكًا على الأندلُس .

واقْتعدَ لُذْريقُ أريكةَ المُلك ، فجاء إليه خاصَّتُه ، وقالوا له :

ـ ضعْ قُفْلاً على بيتِ الحكمة .

فقال لهم :

ـ لماذا ؟

قالوا :

ـ ما من ملكٍ اعتلَى الحُكم ، إلاَّ وضعَ قُفْلاً على هذا البيت .

قال :

ـ وكمْ قُفلاً عليه ؟

ـ ستّةٌ وعِشرونَ قُفْلا .

فقال في عزم :

ـ قد وقع في نفسي من أمر هذا البيتِ شيء ، أريد أَن أفتَحه ، لأنظرَ ما فيه لأَنَّه لم يُعمل عبَثا .

فقالوا :

ـ أيُّها الملكُ صدقت ، إنَّه لم يُصنَع عبثا ، ولم يُقفَلْ سُدًى ، والرّأيُ والمصلحةُ أن تُلْقِيَ أنت أيضًا عليه قُفْلا ، أُسْوَةً بمن تقدَّمك من الملوك .

فقال في عزم :

ـ إنَّ نفسي تُنازِعُني إلى فتحِه ، ولابدَّ لي منه .

ففزِعوا ، وقالوا له في توسُّل :

ـ إن كنتَ تَظنُّ أنَّ فيه مالا فقدِّرْه ، ونحن نجمعُ لك من أموالِنا نظيرَه ، ولا تُحدِث علينا بفتحِه حادثًا لا نعرِفُ عاقبتَه .

فقال في إصرار :

ـ لا بدَّ لي من فتحه .

وقام إلى بيت الحِكمة ليفتَحه ، وانطلق معه رجالُه وهم يتوجَّسونَ خوفا .

٢

سار لُذْريقُ ورجالُه حتَّى إذا بلغَ البيت ، أمرَ بفتح الأقفال ، وكان على كلِّ قُفْل مِفتاحُه مُعلَّقًا ، فتقـدَّم الرِّجالُ بقلوبٍ واجفة ، وفتحوها وأيديهـم ترتعـد ، فلمـا فُتـحَ البـاب ، دخـل لُذْريـقُ وتلَّفـتَ فلـم يجـدْ إلاّ مائدةً عظيمة ، وتابوتا عليه قُفْلٌ ومِفتاحُه معلّـق ، ففتـح التّـابوت ، فـرأى تمثـالاً مـن النُّحـاسِ الأحمـرِ والحديدِ المُصفَّى ، لرجل بربرىٍّ له لِحيـةٌ وفـى رأسـهِ ذُؤابةٌ من شعر جَعْد ، وفى رجلهِ نعْل ، وقد مدَّ يـدَه اليُمنى بمفتاحِ قُفْل قـابض عليه ، ووجـدَ رَقًّا فـأمر بنشـره ، فـإذا فيـه : متـى فُتِـحَ هـذا البيـتُ وهـذا التابوتُ المُقْفَلانِ بالحِكمة ، دخلَ قومُ هذا الرجلِ إلى

جزيرةِ الأندلس ، وذهب مُلْكُ من فيها من أيديهم ، وبَطلت حِكمتُهم .

سمِعَ لُذْريق مـا فـى الـرَّق ، فنـدِمَ علـى مـا فعـل ، وانصرف مُطرِقًا مهموما .

٣

عظُم غمُّ لُذْريق ، وغمُّ شَعبه ، وأمرَ بردِّ الأقفال ، وإقرارِ الحُرَّاس ، وعاد إلى قصره يلفُّه قلقُـهُ . ولكـن سُـرعان مـا انقشـعَ القلـق ، ورُدَّ لُذْريـق إلى طبعِـه ، يسوسُ أمرَ رعيَّته ، ويعُبُّ كأسَ لذَّاته .

وكان من تقاليدِ أكابرِ الأندَلُسـيِّينَ وقوَّادِهـم ، أن يبعثوا أولادَهم ، الَّذين يُريـدونَ منفعتَهـم ، والتنويـهَ بهم ، إلى بلادِ الملكِ الأكبرِ بطُلَيْطِلَـة ، ليَصـيروا فـى خدمتِـه ويتـأدَّبوا بأدبـه ، حتَّـى إذا مـا شـبُّوا عـن الطوْق ، تصـاهروا ، وتـزوَّج بعضُهـم مـن بعـض .

وكان لِيُلْيان ، عاملِ لُذْريقَ علـى سَبتَة ، ابنـةٌ رائعةُ الجمال ، حملها إلى قصرِ الملك ، لتعيشَ هناك عيشةَ الملـوك ، ومـا أنْ وصلـتْ فلُورِنـدا ابنـةُ يُلْيـانَ إلى

القصر ، حتى بهرَ جمالُها الرائعُ كلَّ من رآها .

وفـى ذاتِ ليلـةٍ ، وقعـتْ عـينُ لُذْريـقَ عليهـا ، فأعجبتْـه ، وأحبَّهـا حُبًّـا شـديدا ، اسـتولى علـى حواسِّه ، ولم يملكْ نفسَه حتّى اغْتصبَها .

غضِبـت فلُورِنـدا غضَبًـا شـديدا ، وارتمـتْ فـى فراشِها تبكى شبابَها الضَّائع ، وفكَّـرت فـى أن تثأرَ لنفسِـها ، فلـم تجـدْ أمامهـا إلاّ أَن تكتُـبَ إلى أَبيهـا بما فعلَ الملِك ، ليفعلَ ما يراه ، انتقاما لشرفِهِ المثلوم .

٤

وصلتْ رسالةُ فلُورنِدا إلى أبيها ، فثار ومشى الحَنَقُ فى جوفهِ يَنْهَشُه ، وعزم على أن ينتقِم من ذلك الّذى خان الأمانة ، انتقامًا رهيبا ، يَشفى غليلَ صدره ؛ ورأى قبلَ أن يبدأ في تقويضِ مُلكِه ، أن يستردَّ منه ابنته ، فانطلقَ إلى طُلَيْطِلَة ، وبين جوانحِه أتُونُ نار .

دخل يُلْيانُ على لُذْريقَ وقد كتم ثَورته ، وبدا هادئا ساكنا ، ولكنَّ لُذْريقَ أوجسَ خيفة ، فقال له :

ـ ما الّذى جاء بك فى هذا البردِ القارس ؟

فقال يُلْيان :

ـ ما جاء بى إلا أنَّ زوجتى فى النَّزْعِ الأخير ، وهى فى شوق إلى رُؤيةِ ابنتِها الّتى عندك .

ـ أفى مثلِ هذا البرْدِ الشّديد تحملُ فلُورندا ؟!

ـ كلُّ ما أرجوه أن أبلِّغَ زوجتى أُمْنِيَّتَها الأخيرة ، باللّه يا مولاىَ عَجِّل بإطلاق فلُورندا .

ودخل الملكُ على فلُورندا ، والتمسَ منها ألاّ تذكُرَ لأبيها شيئًا ممّا جرى بينهُما ، فوعدتْه خيرا ، فأطلقَها وهو يبتسِم ، دونَ أن يدرىَ أنَّ الشيخَ الحانق ، سيُزلزِلُ الأرضَ تحتَ أقدامِه ، بعد أن يبتعدَ بابنتِه ، الّتى كانت ضحيَّةَ مَلِكٍ غادر ، لا يرعى حُرمَة .

٥

بلغ يُليانُ سَبْتَة ، مَقرَّ حُكمهِ ، فلمْ يستقرَّ له قرار ، ولم يهدأْ له بال ، وراح يتهيَّأُ للمسيرِ إلى موسى بنِ نُصَيْر ، أميرِ إفريقِيَّة ، والوالى على البربرِ ، الَّذين تأتلِقُ عيونُهم بالطَّمعِ فى الأندلُس ، يحرِّضُه على غزو لُذْريق ، وخلعِه عن عرشِه .

دخلَ يُليانُ على موسى ، وراح يصفُ له حُسنَ الأندلُس وفضلَها ، وطِيبَ المزارِع ، وكثرةَ الثِّمار ، وغزارةَ المياهِ وعُذوبَتَها ، وضعفَ رجالِها ، وقلَّةَ كِفايتِهم ، وراح يُحرِّضهُ على غزوِها ، فأطرق موسى يُفكِّر ؛ إنَّه لَيشتهى أنْ يغزُوَ هذه البلادَ الغنيَّة ، فى سبيلِ اللّه ، ولكنَّه خشِيَ أن يكونَ يُليانُ ما جاء إلاَّ لينصِبَ شرَكًا للمُسْلمين ، فقال له :

ـ لماذا لا تبدأُ أنت ورجالُكَ بشنِّ الغارة ، ثمَّ نَرَى ما يكون ؟

وقبلَ يُليانُ أنْ يبدأَ بالهجُوم على أطرافِ الأَندَلُس ، فجمعَ جمعًا من أهلِ عَملِه ، وجهَّز مَرْكبَيْن شحنهُما برجاله ، ثمَّ انطلق للإغارة .

أغار على ساحلِ الجزيرةِ الخضراء ، وقتل وسبَى وغَنِم ، وأقامَ بها أيَّاما ، ثم رجَعَ بمن معه سالمين . فلما رأى موسى يُسرَ الغارة ، وشاعَ الخبرُ عند المسلمين ، أنسِوا لِيُليان ، واطمأنُّوا إليه ، وملكت فكرةُ غزوِ الأندلسِ حواسَّ موسى بنِ نُصَير .

وكتب موسى بنُ نُصَيْر إلى أمير المؤمنينَ بدِمَشق ، الوليدِ بنِ عبد الملِك ، يُخبرُه بالَّذى دعاه إليه يُليانُ ، من أمر الأندَلس ، ويستأذِنه فى اقتِحامها ، فكتب إليه الوليدُ : « أن خُضْها بالسَّرايا ، حتَّى ترى وتستخبرَ شأنها ، ولا تُغرِّرْ بالمسلمين ، فى بحر شديدِ الأهوال » .

فكتب إليه موسى : « إنَّه ليس ببحرٍ زَخَّار ، وإنَّما هو خليجٌ منه يبينُ للناظرِ ما خلفَه » .

فكتبَ إليه الوليد : « وإنْ كان ، فلا بدَّ من اختبارِه بالسَّرايا قبلَ اقتحامِه » .

٦

تأهَّب موسى لبعثِ السَّرايا ، فجهَّز أربعَ مراكب ، حمل فيها أَرْبَعَ مِئَةِ رجل ، معهم مِئَةُ فرس ، وأمَّرَ عليهم طَريفا ، وكان من مواليه من البَربَر ، وانطلقت المراكب ، حتَّى إذا ما بلغتْ جزيزةً تُقابلُ جزيزةَ الأندَلُس الخضراء ، نزل بها برجالِه ، فسُمِّيتْ « جزيرةَ طَريف » ، وأقامَ بها أيَّاما ، حتَّى التأمَ بها أصحابُه ، ثمَّ مضى حتى أغارَ على الجزيرة ، فأصابَ سبْيًا وغنائمَ كثيرة .

وعاد طريفٌ إلى إفريقيَّة ، يسوق السَّبْيَ والغَنائم ، فخرج النَّاسُ ينظرون ، فرأَوْا سبْيًا لم يَرَوْا مثلَه حُسْنا ، ومالاً جسيما ، وأمتعةً فاخرة ، فاشتاقوا للغَزْو ، وباتوا يحلُمونَ بالحِسان والمالِ الوفير . وجاء يُليانُ إلى موسى يحرِّضُه على قتال لُذْرَيق ، ويُهوِّن له شأنَ القوم ويذكرُ له ما فعلَه ، وما فعلَه طَريف ،

فعزمَ موسى على غزوِ الأندَلُس ، وتوسيعِ رُقْعةِ الإسلام والمسلمين .

وفكَّر موسى فيمن يعهدُ إليه قيادةَ الحَمْلة ، وراح يستعرضُ فى مخيلتِه قوَّادَه ، ويَعْجُمُ عودَهم ، فوجدَ أنَّ طارقَ بنَ زِيادٍ أكفؤُهمُ ، وأَصلبُهم عودا ، فبعثَ فى طلبه .

وأقبلَ طارقٌ بقامتِه الطَّويلة ، وشعرِه الأصفر ، وعينيه الزَّرقاويْن ، فى عُدَّةِ القِتال ، فكان أَشبَه بمارد من مَردةِ الحُروب ، فقال له موسى :

ـ لقد قلَّدتك قيادَةَ المُجاهدين ، الخارجينَ لغزوِ الأندلس ، فتأهَّب للخروج ، وسيخرجُ معك يُليان .

عقد له موسى ، وبعثه فى سبعةِ آلافٍ من المسلمين ، جُلُّهم من البربرِ والموالى ، ليس فيهم عَربٌ إلا قليل ، وراح يُليانُ يُهيِّىءُ المراكب ، فقد حانتْ ساعةُ الانتقام ، من لُذْريق ، الذى ثَلَم شرفَه ولطَّخ جبينَه بالعَار .

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

طارق بن زياد

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

خرج طارقُ بنُ زيادٍ في سبعةِ آلافٍ من المسلمين، جُلُّهم من البربر، في أربعِ سُفن، جهَّزها يُلْيانُ لينتَقِمَ من رُذْريك «لُذْريق» ملكِ الأندلس، الَّذى اعتدى على ابنته فلورِندا ؟

انطلقتِ السُّفنُ تحملُ فوارسَ صناديد، يتوقونَ للقِتال، ويطمَعون فيما في أيدى الأندلُسيِّين، ويَرجُونَ الثَّواب، فقد كانوا خارجينَ في سبيلِ اللّه، لرفعِ كلمتِه، وإعلاءِ دينِه، وتوسيعِ رُقعةِ الإسلامِ والمسلمين.

ونام طارقٌ في مركَبِه، فرأى في منامِه النَّبيَّ ﷺ، وحوله المهاجرونَ والأنصار، قد تقلَّدوا السيُّوف، وتنكَّبوا القِسِيّ، يقولُ له :

ــ يا طارق : تقدَّم لشأنِك .

ونظرَ إليه، وإلى أصحابه فألفاهُم قد دخلوا الأندلُس قُدَّامَه؛ فهبَّ من نومِه مُستبشِرا، وبشَّر أصحابَه، وثابَتْ إليه نفسُه، ثقةً ببُشراه، فقويَتْ روحُه، ولم يشكَّ لحظةً في الظَّفَر .

وحَطَّ بجبلِ طارق المنسوبِ إليه، ولم تَزلِ المراكبُ تعودُ حتَّى توافَى جميعُ أصحابه عندَه، وتأهَّبَ لشنِّ الغارة . وإذا بخبرِ نزولِه إلى البرِّ يبلغُ لُذْريق، فيتأهَّبُ لملاقاةِ الغُزاةِ ويُبادرُ في جموعِه؛ وهمْ نحوُ مِئة ألف، ذوى عُدَّةٍ وعَدَد، وينطلق ليقاتلَ الَّذين جاءُوا يقاتِلونهُ في عُقْرِ داره .

رأى طارقٌ جيشَ الأندلُس، فكتب إلى موسى بأنَّه قد زحفَ عليه لُذْريق، بما لا طاقة له به، فبعثَ له موسى خمسةَ آلافِ من المُسلمين، فصارَ جيشُ طارق اثنَىْ عشرَ ألفًا من الأبطالِ الصَّناديد .

وأصاب طارقٌ عجوزًا من أهلِ البلاد ، راح يسألُها عن أحوالِ القوم ؟ فقالت له فى بعض قولِها :

- إنه كانَ لها زوجٌ عالِمٌ بالحِدْثان ، فكان يحدِّثهم عن أمير ، يدخُل إلى بلدِهم هذا ، ويَغلِبُ عليه ، ويصِفُ من نعتِه أنه ضخمُ الهامَة ، وأنتَ كذلك : وأنَّ فى كَتِفِه اليُسْرَى شامة ، عليها شعْر ، فإنْ كانت بك هذه العلامة ، فأنت هو .

فكشفَ طارقٌ ثوبَه ، فإذا بالشَّامةِ فى كَتِفِه ، فاستبشرَ بذلك ، وراح يتأهَّبُ للمعركةِ التى ستفصِلُ بينه وبين لُذْريق .

٢

أحرقَ طارقٌ سُفنَه ، حتَّى ييأسَ جنودُه من العَوْدة ، وحتَّى يُقاتلوا فى استبسال ، دون أن يخطُرَ الفِرَارُ لهم على بال ، وقامَ فى أصحابه ، يحثُّهم على الجهاد ، ويُرغِّبهُم فيه ، فَحمِدَ اللّه ، وأثنَى عليه ثم قال :

- « أيُّها النَّاس ! أينَ المَفَرّ ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدُوُّ أمامَكم ، وليسَ لكم واللّه إلاّ الصِّدقُ والصَّبر . واعلموا أنّكم فى هذه الجزيرة ، أضيَعُ من الأيتام ، فى مأدُبَة اللِّئام . وقد استقبلكُم عدوّكم بجيشِه ، وأسلِحتُه وأقواتُه موفورة ، وأنتُم لا وَزَرَ (أى مَعقِل) لكُم إلاّ سيوفُكم ، ولا أقواتَ لكم إلاّ ماتستخْلِصونَه من أيدى عدوّكم . وإن امتدَّتْ

بكم الأيامُ على افتقارِكم ، ولم تُنجزوا لكم أمْرًا ، ذهبتْ ريحُكم ، وتعوَّضتِ القلوبُ من رُعبِها منكم ، الجرأةَ عليكم . فادفعوا عن أنفسِكم خِذْلانَ هذه العاقبةِ من أمرِكم ، بمُناجَزةِ هذا الطَّاغِية ، فقد ألقَتْ به إليكم مدينتُه الحصينة ؛ وإنَّ انتهازَ الفرصةِ فيه لممكن ، إنْ سَمَحتُمْ لأنفسِكم بالموت . وإنِّي لم أحذِّرْكم أمرًا أنا عنه بنَجوة ، ولا حَمَلْتكُم على خُطَّةٍ أرخصُ متاع فيها النفوس إلا أبدأُ بنفسي .

واعلموا أنَّكم إن صبَرتُم على الأشقِّ قليلا ، استَمعتُم بالأَرْفهِ الألَذِّ طويلا ، فلا ترغَبُوا بأنفسِكم عن نفسي ، فما حظُّكم فيه بأوفرَ من حظِّي ، وقد بلغكُم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحُورِ الحِسان ، من بناتِ اليونان ، الرَّافلاتِ في الدُّرِّ والمَرجان ، والْحُللِ المنسوجةِ بالعُقيان (الذهب) ، المقصوراتُ في قصورِ الملوك ذوي التِّيجان ، وقد انتخبكُمُ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ أميرُ المؤمنين ، من الأبطالِ

عُزْبانا ، ورضِيَكُم للملوكِ هذه الجزيرةِ أصْهارًا وأختانا ، ثِقةً منهُ بارتياحِكم للطِّعان ، واستماحِكم لمُجالدةِ الأبطالِ الفُرسان ، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ اللّهِ على إعلاءِ كلِمته ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مغنمُها خالصةً لكم من دونِه ، ومن دونَ المؤمنينَ سِواكم . واللّه تعالى وليُّ إنجادِكم ، على ما يكونُ لكم ذكرًا في الدَّارَيْن .

واعلموا أنِّي أوَّلُ مُجيبٍ إلى ما دعوتُكم ، وإنِّي عند مُلتَقى الجمعَيْن ، حامِلٌ بنفسي على طاغيةِ القومِ لذْريق ، فقاتِلُه إنْ شاءَ اللّه تعالى . فاحمِلوا معي ، فإنْ هلكتُ بعدَه ، كفيْتكُم أمرَه ، ولم يُعوزْكم بطلٌ عاقلٌ تُسنِدُونَ أمورَكم إليه ، وإن هلَكتُ قبلَ وصولي إليه ، فاخلُفوني في عزيمتي هذه ، واحمِلوا بأنفسِكم عليه ، واكتفُوا الهمَّ من فتحِ هذه الجزيرة بقتلِه ، فإنَّهم بعده يُخذلون » .

٣

أقبل لُذْريق وهو على سريره ، وقد حُمِل على رأسِه رِواقُ ديباج يُظَلِّله ، وهو مُقبلٌ فى غيابة من البُنودِ والأعلام ، وبين يدِه المقاتِلةُ والسِّلاح ، وأقبلَ طارقٌ فى أصحابه عليهم الزَّرَد ، ومن فوق رءوسِهم العمائم البيض ، وبأيديهم القِسِيُّ العربيّة ، وقد تقلَّدوا السُّيوف ، واعتقلوا الرِّماح ، فلمَّا نظر إليهم لُذريق ؛ تذكَّر تِمثالَ الرَّجُلِ البربرىّ ، الَّذى رآه فى بيتِ الحكمة ، يوم أصرَّ على فتحِ ذلك البيت ، الَّذى كان كلُّ ملكٍ يضعُ ببابه قُفلا يومَ تتويجه ، فقال :

ـ إنَّ هذه الصُّوَرَ هى الَّتى رأيناها فى بيتِ الحكمة .

فداخلهُ منهمُ رُعب ، واستولَى عليه خوفٌ شديد . ونظر طارقٌ ورأى الملكَ فى أبَّهته ، فقال :

ـ هذا طاغيةُ القوم ، إنِّى حاملٌ عليه ، فاحمِلوا معى .

وبدأ الهجُوم ، وراح طارقٌ يَلْعب بالسَّيف ، ويشُقُّ طريقَه إلى لُذْريق ، وحمل أصحابُه معه ، فتفرَّقتِ المُقاتلةُ من بين يدىْ لُذْريق ، فخلُصَ إليه طارق ، وضربه بالسَّيفِ على رأسِه ، فقتله على سريره . فلمَّا رأى أصحابُه مَصْرَعَ صاحبهم ، دبَّ الذُّعرُ فى قلوبِهم ، وراحوا يُولُّونَ الأدبار ، ولاحَ النَّصْرُ للمسلمين .

وقُتِل خلْقٌ كثير ، ووقعَ فى الأسْرِ خلقٌ كثير ، وجمع المُسلمونَ الغنائم ، وتسامعَ النَاسُ من أهلِ برِّ العُدوَةِ بالفتحِ على طارقٍ بالأندلس ، وسعَة الغنائم فيها ، فأقبلوا نحوَه من كلِّ وجه ، وخرَقوا البحرَ

على كلِّ ما قَدَروا عليه من مَرَاكِبَ وقواربَ صغيرة ، فلحِقوا بطارق : وارتفعَ أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحُصونِ والقِلاع ، وتهاربوا من السَّهل ولحِقوا بالجبال .

وأقبلَ طارقٌ يفتحُ البلاد ، حتَّى إذا بلغَ مدينةً حصينةً امتنعتْ عليه ، حاصرها . وفى ذاتِ ليلة ، خرجَ إلى النَّهر لبعضِ حاجتِه ، فصادف رجُلاً من رجالِ المدينةِ هناك : فوثبَ عليه طارقٌ فى الماء ، فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، وراح يسألُه عن المدينة وعن أهلِها ؟ فإذا به يعترفُ بأنَّه أميرُ المدينة .

وصالحه طارقٌ على ما أحبَّ ، وضرب عليه الجِزيَة ، وخلَّى سبيلَه .

٤

قذف اللّهُ الرُّعبَ فى قلوبِ الأندلُسيِّين ، لمّا رأوْا طارقًا يُوغِلُ فى البلاد ، وكانوا يحسبونَه راغبًا فى المغنَم ، عاملاً على القُفول ، فَسُقِط فى أيديهم ، وَتطايروا عن السُّهول إلى المعاقل ، وصعِدَ ذو القُوَّةِ منهم إلى عاصمةِ مملكتِهم طَلَيْطلَة ، فقال يُليانُ لطارق :

ـ قد هزمتَ القوم ، فانطلِق لعاصمتِهم : وهؤلاء أدِلاّءُ من أصحابى مَهرة ، ففرِّقْ جيوشك معهم فى جهاتِ البلاد ، واعمِدْ أنت إلى طلَيُطِلَة حيث معظمُهم ، فاشغَل القومَ عن النظر فى أمرِهم ، والاجتماعِ إلى أولى رأيهم .

وعمِلَ طارقٌ بنصيحةِ يُليان ، ففرَّقَ جيوشَه مع

أَدِلاَّءَ من أصحابِ يُلْيان ، بعثَ مُغيثًا « الرُّومىّ » ، مولَى الوليدِ بنِ عبدِ الملك ، إلى قُرطُبَة ، وكانتْ من أعظمِ مدائنِهم ، فى سبع مئةِ فارس ، فما كان فى جيشِ طارقٍ راجلٌ بعد أن ركِبَ المسلمون خيولَ أهلِ البلاد ، وبعثَ جيشًا آخرَ إلى مالَقَة ، وآخرَ إلى غَرناطَة ، وسارَ هو فى معظمِ النّاسِ يُريد طَلَيْطِلَة .

أرسلَ الأدِلاّء ، فأمسكوا راعىَ غنم ، فسُئل عن قُرْطبَة ؟ فقال :

ـ رحل عنها عظماءُ أهلِها إلى طُلَيْطِلَة ، وبقِىَ فيها أميرُها فى أَرْبَعِ مِئَةِ فارسٍ من حُمَلتهم ، مع ضُعفاءِ أهلِها .

وسُئِل عن سُورِها ؟ فقال :

ـ إِنَّه حصينٌ عالٍ فوق أرضِها . إِلاَّ أَنَّ فيه ثَغْرَة .

ووصفَها لهم .

وجاء اللَّيل ، وأقبلوا نحوَ المدينة ، ووطَّأ اللّهُ لهم أسبابَ الفتح ، بأن أرسلَ السَّماءَ برذاذ ، أخفى وَدْقُه حوافرَ الخيل ، وأقبَل المسلمونَ رُوَيْدا ، حتى عبروا نهرَ قُرْطُبَة ليلا ، وقد أغْفَلَ حرسُ المدينةِ احتراسَ السُّور ، فلم يظهروا عليه ، ضِيقًا بالَّذى نالهم من المطرِ والبرد .

فترجَّل القومُ حتىٰ عبروا النّهر ، وليس بين النَّهرِ والسُّورِ إلا مقدارُ ثلاثينَ ذراعًا أو أقلّ ، وأرادوا التّعلُّقَ بالسُّور ، فلمْ يجدوا مُتَعلَّقا ، ورجَعوا إلى الرّاعى ، ليدُلَّهم على الثَّغْرَةَ الّتى ذكرَها ، فأراهم إيّاها ، فإذا من الصَّعْب الصُّعودُ إليها ، إلاّ أنَّه كانتْ فى أسفلِها شجرةُ تين مَكّنت أفنانُها من التَّعلُّق بها ، فصعِد رجلٌ من أشِدّاء المُسلمين فى أعلاها ، ونزع رَجلٌ عِمامتَه ، فناوله طرَفَها ، وأعان بعضُ النّاس بعضًا حَتَّى كثُرُوا على السُّور ، وركِب قائدُ

المسلمين ، ووقف من خارج ، وأمر أصحابَه المُرتقين للسُّور ، بالهُجوم على الحرَس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرًا منهم ، وكسروا أقفالَ البابِ وفتحوه ، فدخل المسلمونَ يُكبِّرون ، واستولَوْا على المدينةِ الحصينة ، ولكنَّ مَلِكَها وبعضَ حاشِيته ، انطلق إلى الكنيسة وتحصَّن بها .

٥

بقِيَ الملكُ في الكنيسةِ ثلاثةَ أشهر ، حتَّى ضاقَ من ذلك قائدُ المسلمين ، فتقدَّم من أسودَ من عبيدِه اسمُه رَباح ، وكان يجيدُ الاختفاء ، وأخبره أن يُحاولَ القبضَ على واحدٍ من القوم ، يعرف منه أخبارَهم .

انطلقَ العبدُ حتى اقترب من الكنيسة ، ودعاه ضعفُ عقلِه إلى أَن يصعَدَ في بعضِ الأشجارِ القريبةِ من الكنيسة ، ليجنىَ ما يأكلُه ؛ فبصُر به أهلُ الكنيسة ، وشدّوا عليه ، فأخذوه فملكوه ، وهم في ذلك هائبونَ له ، مُنكرون لخَلقِه ، إذ لم يكونوا عاينوا أسودَ قَبْلَه ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لَغَطُهم وتعجُّبهم من خلقِه ، وحسبوا أنَّه مصبوغٌ أو مطلِيٌّ ببعضِ الأشياء الَّتي تُسَوِّد ، فجرَّدُوه وسْط جماعَتِهم ،

وأدنوه إلى القَناةِ التى منها كان يأتيهمُ الماء ، وأَخذوا فى غَسلِه وتدليكِه بالحبالِ الحُرْشِ حتى أدمُوه ، فاستغاثَهم ، وأشارَ إلى أنَّ الذى به خِلقَةٌ من بارئهم عزَّ وجلَّ ، ففهموا إشارتَه ، وكفّوا عنه وعن غِسْلِه ، واشتدَّ فزعُهُم ، ومكث فى إسارِهم سبعة أيَّام لا يتركونَ التجمُّعَ عليه ، والنَّظر إليه .

وفى ذاتِ ليلةٍ غافلهم وَفَرَّ ، وانطلقَ إلى قائدِ المُسلمين ، وعرَّفه بالذى اطَّلَع عليه من شأنِهم ، وموضع الماء الذى ينتابونه ، ومن أَىِّ ناحيةٍ يأتيهم ، فأمر أهلَ المعرفةِ بطلبِ تلك القناة ، فى الجهةِ التى أشارَ إليها الأسود ، حتى أصابوها ، فقطعوها عن جَرْيِها إلى الكنيسة ، وسَدُّوا منافذَها ، فلم يسعْ من فيها إلاَّ التسليم . ولكنَّ الملكَ غافلَ القوم ، وفرَّ وحدَه ، يريد طُلَيْطِلَة .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

موسى بن نصير

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

حاصر مُغيث ، الّذى بعثَه طارقٌ يستولِيَ على قُرْطُبَة ، الكنيسةَ الّتى تحصَّن بها الملك ، ثمَّ قطعَ الماءَ عنها ، فاستسلمَ المتحصنونَ فيها ، وفرَّ المِلك .

وبلغ خبرُه إلى مُغيث ، فبادرَ الرَّكْضَ خلفَه وحدَه ، فلحِقَهُ وتحتَه فرسٌ أصفر ، سريعُ الخَطْو . فالتفتَ المِلك ، ودُهِش لَمَّا رأى مُغيثًا قد لحِقَه ، وزاد فى حثِّ فرسِه ، فقصَّر به ، فسقط المِلك عن الفَرَس ، فترجَّلَ مُغيثٌ عن فرَسِه ، وقبضَ على المِلك الّذى كان يترنّحُ من السَّقْطة ، وسلبه سِلاحَه وعادَ به أسيرا ، وحبَسَه عندَه ، ليَقْدَم به على أميرِ المؤمنين ، الوليدِ بن عبدِ المِلك .

٢

مضى جيشُ المسلمينَ إلى تُدْمير ، وكانت مدينةً حصينة ، وكان مَلِكُها داهية ، ودافع عن مدينتِهِ دفاعَ الأبطال ، فلمَّا وَجدَ أن الهزيمةَ ستلحَقُ به ، انسحبَ مع يسيرٍ من أصحابِه لا يُغنونَ شيئا ، انسحبَ إلى « أُرْيوله » ، وراحَ يتحصَّنُ بها ، فلم يجدْ بها إلاَّ قليلاً من الرِّجال ، فأمر النِّساءَ بنشر الشُّعور ، وحَمْلِ القَصَبِ ، والظُّهورِ على السُّورِ فى زِىِّ القِتال ، متشبِّهاتٍ بالرِّجال ؛ وتصدَّر قُدَّامَهنَّ فى بقيَّةِ أصحابه ، يُغالطُ المسلمينَ فى قوَّتِه على الدِّفاع عن نفسِه . فكَرِه المسلمونَ قتالَه ، وعرضوا عليه الصُّلْح ، فأظهرَ الميلَ إليه ، ونكَّر زِيَّه ، ونزل

إليهم بأمان ، على أنَّه الرَّسول ، فصالحهم على أهل بلدِه ، ثمَّ على نفسِه ، وتوثَّق منهم فلمَّا تمَّ له من ذلك ما أراد ، قال لهم :

ـ أنا الملِك .

فقال بعضُ المسلمين :

ـ ولِماذا فعلتَ ذلك ؟

قال : « للإبقاء على قومي » .

وثارَ بعضُ المسلمين ، فقالَ لهم :

ـ لمْ نعدْ نخشَى منكم شيئًا ، لقد عاهدتُم ، وإنَّنا نعلمُ أنَّكم تُوفُونَ بعُهودِكم .

وأدخلهمُ المدينة ، فلم يجدوا فيها إلاَّ العِيالَ والذُّرِّيَّة ، فَندِموا على ما أعطَوْه من الأمان ، ولكنَّهم أُعجِبوا برَجاحةِ عقلِه ، ولم ينكُثوا وعدَهم

له ، فسلِمتْ عاصمةُ تُدْميرْ من شدَّةِ وطأةِ القِتال ، بفضلِ دهاء حاكمِها .

٣

انتهى طارقٌ إلى طُلَيْطِلَة ، عاصمةِ القُوط ، فألفاها خالِية ، وقد فرَّ عنها أهلُها ، ولجئوا إلى مدينةٍ بها خَلْفَ الجبل ، فمضى خلفَ من فرَّ من أهلِ طُلَيْطِلَة ، فاقتحمَ المدينةَ الَّتي تحصَّنوا فيها ، فأصابَ حُلِيًّا ومالا ، وامتلأتْ نفسُ طارقٍ غبطة ، فراح يترنَّم بالشِّعر ، قال :

ركِبنا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا
عسى أن يكونَ اللّهُ منَّا قد اشترَى
نفوسًا وأموالاً وأهلاً بجنَّةٍ
إذا ما اشتهيْنا الشَّيءَ فيها تيسَّرا

ولسنا نُبالى كيفَ سالتْ نفوسُنا
إذا نحنُ أدركنا الَّذى كانَ أجدَرا

وأقبلَ على طارقٍ أولادُ غَيْطَشة ، الَّذين اغتصبَ لُذْريقُ منهم المُلكَ بعد موتِ أبيهم ، وسألوه الأمان ، ثمَّ قالوا له :

ـ أنتَ أميرُ نفسِك ، أم فوقَك أمير ؟

قال : « بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأميرِ أميرٌ عظيم » .

وسألوه عنهما ؟ قال لهما :

ـ موسى بنُ نُصَير ، وأميرُ المؤمنينَ الوليدُ ابنُ عبدِ الملك .

فاستأذنوه فى اللِّحاقِ بموسى بنِ نُصَيْرٍ بإفريقيَّة ، ليُؤكِّدوا ولاءَهم له ، وسألوا طارقا الكتابةَ إليه

بشأنِهم معَه ، وما أعطاهم من عهدِه ، فقبل ، وساروا نحوَ موسى .

٤

بلغَ موسى بنَ نُصَيْرٍ ما صنعَه طارقُ بنُ زِياد ، وتَوَغلُّهُ فى الأندَلُس ، فغضِب ؛ فطارقٌ يسيرُ بالمسلمينَ فى بلادٍ يُحيطُ بها الأعداءُ من كلِّ جانب ، فماذا يفعلُ لو اتَّحدَ الملوكُ المُتنابذون ، وأطبَقوا عليه ، وقطعوا على المسلمينَ خطَّ الرَّجْعة ؟ رأى أن يتهيَّأَ للمَسير ، وأن يَسلُكَ طريقًا آخر ، غيرَ الطِّريقِ الَّذى سلكه طارق ، ليؤَمِّنَ جَناحَه ، وحتَّى تضيعَ فرصةُ الأعداء فى الإطباقِ على جيشِ طارق ، الَّذى امتدَّتْ خطوطُه ورقَّتْ ، حتَّى أصبحَ اختِراقُها أمرًا ميسورا ، لو أُطبِقَ عليها من الشَّمالِ ومن الجنوب .

تقـدَّم موسـى واحتـلَّ الجبـل ، الَّـذى أُطلِـق اسمُـه عليه ، وفى ذلك الوقت تلقَّاه أبناءُ غَيْطَشَة ، وعَرَّفوه بشـأنِهم ، فـأنفذهم إلى أميرِ المؤمنـينَ الوليـدِ بالشَّـامِ بدِمَشْق ، وكتب إليه بمـا عَرَّفـه بـه طـارق مـن جميـل أثرِهم .

واحتلَّ الجزيرةَ الخضراء ، وسارَ معه أدِلاَّءُ يُليان ، يدُلُّونَه على الطَّريق ، حتَّى بلغَ مدينةَ قَرْمونَة ، وليسَ بـالأندُلس أحصـنَ منهـا ، فـاجتمعَ بأصحـابِ يُليـانَ يرسُمُ معهم خُطَّةَ الاستيلاء على المدينة ، قال لهم :

ـ تظاهروا فـى اللَّيـل أنَّكـم فـارُّون مـن وجهـى ، فيفتَحـوا لكـم أبـوابَ الحِصـن ، فـاقبِضوا علـى الحُرَّاس ، وافتحوا لنا الأبواب .

وفى اللَّيل تظاهرَ أصحابُ يليانَ أنَّـهم فـارّون من

أمامِ جُيوشِ المسلمين ، وطَرَقَهُم موسَى بخيلِه ، وفتح الحرَّاسُ لهـمُ الأبـواب ، ليَحموهـم مـن الغُـزاة ، ثـم أغلقُوهـا فـى وجـوهِ العـرب ، ولكنَّهـم فوجئـوا بانقِضاضِ أصحابِ يُليانَ عليهم ، وفتـحِ الأبـواب ، فتدفَّقَ المُسلمونَ إلى المدينـةِ تدفُّـقَ السَّيْل ، يجمعـونَ كلَّ ما يقعُ فى أيديهم من الغنائم .

وتقدَّمَ نحـو إشـبيليَة ، فـإذا بهـا تخِرُّ صريعـةً تحت قدمَيه ، ومضى من نصرٍ إلى نصر ، حتَّى إذا ما بلغ مدينةَ مارِدَة ، وكانتْ ذاتَ عزٍّ ومَنَعَـة ، وفيهـا آثـارٌ وقصور ، ومصانعُ وكنائسُ جليلةُ القَدْر ألفَـى أهلَهـا قد تحصَّنوا ، كـان فـى أهلِهـا مَنَعَةٌ شـديدة ، وبأْسٌ عظيم ، فنالوا من المسلمينَ دفَعاتٍ وآذَوْهُم ، وعمِل موسـى دبَّابـة ، وكـانتْ تُتَّخـذُ مـن جلـودٍ وخشَـبٍ

للحُروب ، يدخُل فيهـا الرِّجـال ، فتُدفـعُ فـى أصـلِ الحِصـن فينقُبونَـه ، وهـم فـى جوفِهـا وهـى تقيهِـم ما يرمونَ به مـن فوقِهـم ، ودبَّ المسـلمونَ تحتهـا إلى بُرْجٍ من أبراجِ سُورِ المدينـة ، جعلـوا ينقُبونَـه ، فلمَّـا قلعوا الصَّخر ، ثار بهم العدَوُّ على غفلَة ، فاستُشهدَ بأيديهم قومٌ من المسلمينَ تحتَ تلك الدَّبَّابة ، فَسُمِّى ذلك الموضِعُ « برجَ الشهداء » .

ومال أهلُ المدينـةِ إلى السِّـلم ، فبعثـوا رُسُلَهم إلى موسى ، فلمَّـا جـاءوا إليـه ، وأذِن لهـم بـالدُّخول ، نظروا إليه ، فإذا هو أبيضُ الرَّأسِ واللحيَة ، قد زالَ عنـه خضابُـه ؛ وأخـذوا يُفاوِضونـه ، فلـم ينتهُـوا إلى رأى ، فخرجوا من عنده .

وبعدَ أيّام رأَوا أن يُفاوضوه ثانيـة ، فجـاءوا إليـه ،

فإذا هو قد حـمَّر لحيتَه بالحِنَّاء ، فعجبوا من ذلِك ، وأخذوا يُفاوِضونَه ، ولم ينتهُوا إلى رأى ، فانصرفوا .

وعاوَدوه بعد ذلـك ، فـإذا هـو قـد سـوَّدَ لحيتَـه ، فـازداد تعجُّبُهـم منـه ، وكـانوا لا يعرِفـون الخِضـابَ ولا استِعماله ، فلمَّا عادوا إلى قومِهم ، قالوا لهم :

ــ إنَّـا نُقـاتلُ أنبيـاء ، يتخلَّقـونَ كيـف شـاءوا ، ويتصـوَّرُون فـى كـلِّ صـورةٍ أحبُّـوا ، كـان ملكُهـم شيخا ، فقد صارَ شابّا ؛ والرّأىُ أن نقاربَه ، ونعطِيَـهُ ما يسألُه ، فما لنا به طاقَة .

فأذعنوا عندَ ذلك ، وأكملوا صُلحَهم مع موسى ، على أنّ أموال القتلَـى وأمـوالَ الهـاربينَ إلى جليِّقـة ، وأموالَ الكنائِسِ وحُلِيِّها للمُسلمين . ثـم فَتحـوا لـه المدينةَ يـومَ الفِطـر ، سـنة أربـعٍ وتسـعينَ مـن هجـرةِ

الرسولِ الكريم ، فكان ذلك اليومُ أبهجَ عيد .

٥

ثارَ أهلُ أشبيليَّةَ على المسلمينَ بها ، فقتلوا منهم نحوَ ثمانينَ رجُلا ، وأتى فَلُّهُم الأميرَ موسى وهوَ بمارِدَة ، فلمَّا أن فتحَها ، وجَّهَ ابنَه عبد العزيزِ بنَ موسى فى جيشٍ إليهم ، فأعادَ فتحَ إشبيليَّة ، وقتلَ أهلها . وأقامَ عبدُ العزيزِ بأشبيليَّة ، وتوجَّه الأميرُ موسى يُريد طلّيْطِلَة .

وبلغَ طارقًا خبرُ وفودِ موسى ، فخرجَ إليه يستقبلُه فى وجوهِ النَّاس ، فلمَّا وقعتْ عينُ طارقٍ على موسى ، نزلَ إليهِ إعظامًا له ، فوبَّخه على استبدادِه ، وعلى توغُّلِه بالمُسلمينِ فى بلادِ الأعداء ،

دونَ رأيِه ، وساروا إلى طلَيْطِلة ، فطالبَه موسى بأداء ما عندَه من مالِ الفَيءِ وذخائرِ المُلوك ، فأتاهُ طارقٌ بها .

كان موسى أميرًا عظيما ، وكان طارقٌ قائدًا عظيما ، فسَرعان ما انقشَعَ غضبُ موسى ، واصطَلَحَ مع طارق ، وأظهرَ الرِّضا عنه ، وأقرَّ مُقدِّمَته ، وأمرَهُ بالتّقدُّمِ أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفَه فى جُيوشِه ، وأَوْغلا فى البلاد ، لا يُمرّانِ بموضعٍ إلاَّ فُتحَ عليهما ، وقد ألقَى اللّهُ الرُّعب فى قلوبِ أهلِ البلاد ، فلمْ يعارضْهما أحدٌ إلاّ بطلبِ صُلح .

وظهرَ المُسلمونَ فى تقدُّمِهم ، حتَّى بَلغوا فرنسَا ، وانتهَوْا إلى وادى دُورْدونى ، ووصلُوا إلى أُربونَة ، فارتاعَ شارْلُ مارتِلْ ملِكُ فرنسا ، وانزعج لدُنوِّهِم

من ملكِه ، فحشدَ لهم ، وخرج عليهِم فى جمعٍ عظيم ، فلمَّا دنا من حصنِ لُودون ، وعلِمتِ العربُ بكثرةِ جموعه ، زالتْ عن وجهِه ، وأقبل حتّى انتهَى إلى صخرةِ إينيون ، فلم يجد بها أحدا ، وقد عسكر المسلمونَ قُدَّامه ، فيما بين الأجْبُلِ القريبةِ لمدينةِ أَربونة ، وهمْ فى غفلة ، لا عُيونَ لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتّى أحاط بهم شارْلُ مارْتِل ، فقاتلوا قِتالاً شديدًا ، واستُشهِد فيه جماعةٌ منهم ، وحمل كثيرٌ منهم على صفوفهِ ، فاختَرقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحُصونها ، فنازلهم بها أيّاما ، أصيبَ له فيها رجال ، وتعذّر عليه المُقام .

وتيقّن شارْل مارْتِلْ أنّ مددَ المُسلمين سَرعان ما يهُبُّ لنُصرةِ إخوانِهم ، فدبَّ الذُّعرُ فى قلبه ،

وانسحبَ إلى فرنسا ، وقد راحَ يُقِيمُ الحُصونَ فى وجهِ المسلمين .

وجمع موسى بنُ نُصَيْرٍ الجمُوع ، وخرج على باب الأندَلس ، الذى فى الجبلِ الحاجزِ بينَها وبينَ فرنسا ، فاجتمعتِ الإفرنجُ إلَى شارْل مارْتل ، وقالوا له :

ـ ما هذا الخِزْىُ الباقى فى الأعقاب (الذرِّيَّة) ؟ كنّا نسمعُ بالعَرَب ونخافُهم من جهةِ مطلعِ الشَّمس ، حتّى أتوْا من مغربِها ، واستوْلَوا على بلادِ الأندَلُس ، وعظيمِ ما فيها من العُدَّةِ والعَدَد ، بجمعهِم القليل ، وقلّةِ عُدَّتِهم ، وكونِهم لا دُروعَ لهم .

فقال شارلُ مارْتِل : « الرَّأىُ عِندى ألاَّ تَعْتَرِضوهم فى خَرْجَتِهم هذه ، فإنَّهم كالسَّيْل يحمِلُ من يُصادِرُه ، وهم فى أقبالِ أمرهم ، ولهم نِيَّاتٌ

تُغْنى عن كـثرَةِ العَـدَد ، وقلـوبٌ تُغْنـى عـن حَصانـةِ الدُّروع ، ولكن أمهلوهـم حتـى تمتلـىءَ أيديهـم مـن الغنائم ، ويَتّخِذوا المسَاكن ، ويتنافَسوا فى الرِّياسة ، ويستعينَ بعضُهم على بعض ، فحينئذٍ تتمكَّنونَ منهـم بأيسر أمر .

وانتظرَ موسى بـنُ نُصَيْرٍ جيـوشَ شـارْلِ مـارْتِل ، ولكـنَّ شـارلَ آثَـرَ أن يـتَرَيَّث ، فعـاد موسـى ليفتَـحَ ما بَقِيَ من بلادِ الأندلُس ، شامخًا بمجده ، مسرورًا بما آتاهُ اللّهُ من فتحٍ مبين .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

نهاية موسى بن نصير

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَان ، رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

(قرآن كريم)

١

بعثَ موسَى بنُ نُصَيْرٍ أبناءَ الملِكِ غَيْطَشَة ، الَّذين اغتصبَ لُذْريقُ مُلكهم ، إلى أميرِ المؤمنينَ الوليد ابنِ عبدِ الملك بدِمَشق ، وكتب إليه بما عرَّفه به طارقٌ من جميلِ أثرِهم . فلمَّا وصلوا إلى الوليدِ أكرمَهم ، وأنفذَ لهم عَهْدَ طارقٍ فى ضِياعِ والدِهم ، وعقدَ لكُلِّ واحدٍ منهم سِجلاًّ ، وجعَل لهم ألاَّ يقوموا لداخلٍ عليهم ، فقدِموا الأَندَلُس ، واستولَوْا على ضِياعِ أبيهم ، وتقاسموها ، فصارَ منها لكبيرِهم « ألموند » ألفُ ضَيْعَة فى غرب الأندلُس ، فسكَن من أجلِها إشبيليَّة ، ليكونَ قريبًا منها ، وصار « لأرطَباش » ألفُ ضَيْعَة ، وكانتْ فى مُوَسَّطة

الأندُلس ، سَكَن من أجلِهـا قرْطُبـة . وصـار لثالِثِهم « وَقْلِة » ألفُ ضَيْعة فى شرقِ الأندُلسْ ، فسكن من أجلِها مدينةَ طُلَيْطِلَة .

وبلغَ الوليدَ توغّلُ موسى فى بلادِ الأَنْدَلُس فأشفقَ على المسلمين ، ورأى أن يكتَفُوا بما بلغوه ، حتى لا يصيرَ إمدادُهم بالرِّجالِ والعَتادِ مُتعذّرا ، فبعث مُغِيثًا الرُّومِيَّ مولاهُ إلى موسَى بنَ نُصَيْر .

كانت نفسُ موسى تتوقُ إلى دخول جِلِّيقِية ، إذْ لم يكن فى الأَندلسِ بلدٌ لم يدخْله العربُ إلى وقتِه ذلك غيرُها ، فبينما هو يتأهَّب لذلك ، إذ أتاهُ مُغِيثٌ الرُّومىّ ، رسولُ الوَليد ، يأمُره بالخروجِ عن الأندَلُس ، والإضرابِ عن الوُغولِ فيها ، والرُّجوعِ إلى أميرِ المؤمنين ؛ فساءَه ذلك ، فقد كان شديدَ

الحرص على اقتحام جلِّيقية .

راح موسى يُلاطفُ مُغيثا ، ويسألُه إنظارَه إلى أن يُنْفِذَ عزمَه فى الدُّخول إليها ، والمسير معه فى البلادِ أيّاما ، ويكونَ شريكَه فى الأجرِ والغنيمة ؛ فقبِلَ مُغيث ، ومشى معه يفتحانِ الحُصون ، وكان العربُ والبربرُ كلّما مرَّ قومٌ منهم بموضِعٍ استحسنوه ، حطوُّا به ، ونزلُوه قاطنين ، فاتَسع نِطاقُ الإسلامِ بأرضِ الأندَلُس .

٢

استبطأ أميرُ المؤمنينَ الوليدُ بنُ عبدِ الملِك موسَى فى الرُّجوع إليه ، فأرسلَ أبا نصرٍ رسولاً إليه بعد مُغيث ، وكتبَ إلى موسى يُؤَنِّبُه ، ويأمرُهُ بالخروج ، وألزمَ رسولَه إزعاجَه ، وجاءَ أبو نصرٍ إلى موسى ،

وطلب منه الرُّجوع ، فتضايقَ موسى ، لأنه مُتلهِّفٌ على الجهاد ، وإنّه ليأمُلُ أن يخترِقَ أورُوبّا ، ويقتحِمَ فَرَنْسا وإيطالْيا وآسِيَا الصُّغْرى حتّى يصِلَ بالنّاس إلى الشّام مُؤَمِّلا أن يتّخِذ مُخْتَرَقَه بتلكَ الأرضِ طريقًا مُبينا يسلُكه أهلُ الأندُلسِ في مسيرِهم ومجيئهِم ، منَ المشْرِقِ إليه ، على البَرِّ ، لا يركبُون بحرا ؛ ولكنْ وصولُ رسولِ الخليفةِ قوَّضَ أحلامَه ، وجعلَه يتْرُك جهادَه ، ليتأهَّب للقُفول .

خرج موسى من جِلِّيقية ، ووافاه طارقٌ في الطَّريق ، فأرجعَه مع نفسِه ، ومضيا جميعا ، ومعهما من النَّاس من اختارَ العودة ، وأقامَ من آثرَ السُّكنى في مواضِعهم الَّتي كانوا اختصُّوها واستوْطَنُوها ، وعاد معهم الرَّسولان ، مُغِيثٌ وأبو نصر ، حتى

نزلوا بإشبيليَّة ، فاستخلفَ موسى ابنَه عبدَ العزيزِ على إمارةِ الأندلُس ، وركِبَ موسى البحرَ إلى المشرِق ، سنةَ خمسٍ وتسعينَ هجريَّة ، وطارقٌ معه ؛ وحمل موسى الغنائمَ والسَّبْي ، وهو ثلاثونَ ألفَ رأس ، ومن الجواهرِ ونفيسِ الأمتعة ما لا يُقدَّرُ قدرُه .

وبلغ موسى المغرِب ، وسأل مُغيثًا أن يُسلِّم إليه صاحبَ قُرْطُبة ، الّذى كان في إسارِه ، فرفض وقال :

ـ لا يُؤَدّيهِ للخليفةِ سواى .

فهجمَ عليه موسى ، وانتَزَعَهُ منه ، فقيل له :

ـ إن سِرتَ به حيًّا معك ادَّعاه مُغيث ، وصاحبُ قُرطبَةَ لا يُنكِرُ قوْلَه ، ولكن اضْرِبْ عُنُقَه ، ففعل ، فأضمرَها مُغيث ، وحقَد على موسى ، واستخلفَ موسى على طنجةَ وما يليها من المغرِبِ ، ابنَه الآخرَ

عبدَ الملك ، فصار جميعُ الأندلُسِ والمغربِ بيدِ أولادِه .

وسار موسى فوردَ الشّام ، والوليدُ فى مرض الموت ، فلمّا سمِع سُليمانُ ولىُّ العهدِ بقربِ موسى ابن نُصَيْرٍ من دِمَشْق ، كتب إليه يأمرُهُ بالانتظارِ والتَّمهُّل ، رجاءَ أن يموتَ الوليدُ قبلَ قدوم موسى ، فيَقْدَمُ موسى على سليمانَ فى أوّلِ خلافتِه ، بتلك الغنائِم الكثيرة ، التى ما رُئِىَ ولا سُمِعَ مِثْلُها ، فيعظُمَ بذلك مَقامُ سليمانَ عندَ النّاس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعَه دينُه منه وأَسرع فى السَّير ، حتى قدِمَ والوليدُ حىّ ، فسلَّم له الأخماسَ والمغانم ، والتُّحفَ والذّخائر ، ومن سوء حظِّ موسى ، أن مات الوليد .

٣

صار سليمانُ خليفةَ ، فحقَدَ على موسى وأهانَه وأمر بإقامتِه فى الشَّمس ، وكان رجُلا بادنا ، فوقف حتى سقطَ مغشِيّا عليه .

وقال له سليمان : « كتبتُ إليكَ فلم تنظُرْ كتابى ، هلمّ مِئةَ ألفِ دينار » .

فقال موسى : « يا أميرَ المؤمنين ، قد أخذتم ما كان معى من الأموال ، فمن أينَ لى مِئَةُ ألف ؟ » .

فقال سليمان : « لابدَّ من مِئَتى ألف » .

فقال موسى : « من أينَ لى ذلك » .

فقال سليمان : « لابدَّ من ثلاث مِئَة ألفِ دينار » .

وأمر بتعذيبه ، وأمر بقتلِه .

وألقى موسى بنفسِه على يزيدِ بنِ المُهَلَّب ، لمكانـهِ من أميرِ المؤمنين ؛ وطلبَ منه أن يكلِّمَه في أن يُخفِّفَ عنه ، فقال له يزيد :

ـ أُريد أن أسألك ، فأصغ إلىّ :

قال موسى : « سلْ عمَّا بدا لك » .

فقال له يزيد :

ـ لم أزلْ أسمعُ عنك ، أنَّك من أعقلِ النّاس ، وأعرَفِهم بمكايدِ الحُروب ، ومداراةِ الدُّنيا ، فقلْ لى : كيف حصلتَ فى يدِ هذا الرَّجل ، بعد ما ملكتَ الأَنْدلس ، وأَلقيتَ بينَكَ وبين هؤلاء القوم ، والبحرَ الزَّخَّار ، وتيقنتَ بُعْدَ المَرام ، واستِصْعابَه ، واستخلَصتَ بلادًا أنتَ اخترعْتَها ، واستملكتَ رجالاً لا يعرفونَ غير خَيْرِك وشرِّك ، وحَصَلَ فى

يدِك من الذَّخائر والأموال ، والمعاقلِ والرِّجال ، ما لو أظهرتَ به الامتناع ، ما ألقيتَ عُنُقَك فى يدِ من لا يرحَمُك ؟ ثمّ إنَّك علِمتَ أنَّ سُليمانَ ولىُّ عهد ، وأنَّه المولَّى بعدَ أخيه ، وقد أشرفَ على الهلاكِ لا مَحالَة ، وبعدَ ذلك خالفتَه ، وألقيتَ بيدِك إلى التَّهْلكَة ، وأحقدتَ سُليمَان وطارقا ، وما رِضا أميرِ المؤمنينَ سليمانَ عنك إلاَّ بعيد ، ولكنْ لا آلو جُهدا .

فقال موسى : « يابنَ الكِرام ، ليسَ هذا وقتَ تعْديد ، أما سمعتَ : إذا جاءَ الْحيْن ، غطَّى على العَيْن ؟ » .

فقال يزيد : « ما قصدتُ بما قلتُ لك تعديدًا ولا تبكيتا ، وإنَّما قصدتُ تلقيحَ العقل ، وتنبيهَ الرَّأى ، وأن أرَى ما عندك » .

فقال موسى : « أمـا رأيـتَ الهُدْهُـدَ يـرَى المـاءَ تحـتَ الأرضِ عن بُعْد ، وَيقَعَ فى الفخِّ وهو بمرأَى عينهِ ؟ » .

٤

ودخلَ يزيدُ على سليمانَ بـنِ عبـدِ الملـكِ ، وراح يشفعُ لموسى ، فقال سليمان :

ـ إنَّه قد اغترَّ بما تمكَّن لـه مـن الظُّهـور ، وانقيـادِ الجُمهور ، والتَّحكُّـمِ فـى الأمـوالِ والأنفس ، علـى ما لا يمحوه إلاَّ السَّيف ، ولكنِّى قد وهبتُ لك دَمَه ، وأنا بعدَ ذلك غيرُ رافعٍ عنه العَذاب ، حتـى يـرُدَّ مـا اختلسَ من مالِ اللّه .

وبعث سليمانُ بعضَ رجالِه إلى الأندَلُـس ، ليـدُسَّ لعبدِ العزيزِ بنِ موسى ، أميرِ الأندلـس ، الَّـذى كـان مــن خــيرِ الــوُلاة ، فراحــوا يقولــونَ للجُنــد : إنَّ

عبدَ العزيزِ قد تزوَّجَ زوجَةَ لُذْريق ، وإنَّها قالت له : لِمَ لا يسجُد لك أهل مملكتِك ، كما كان يسـجُدُ لِلُذريقَ أهلُ مملكتِه ؟

فقالَ لها : « إنَّ هذا حرامٌ فى دينِنا » .

فلم تقتنعْ منه بذلك وفهِم لكثرةِ شـغَفِه بهـا ، أنَّ عدمَ ذلك مِمَّا يُزرى بقدرِه عندَها . فاتَّخذ بابًـا صغـيرًا قبالـةَ مجلسِـه ، يدخـلُ عليـه النَّـاسُ منـه فينحَنــون ، وأفهمهـا أنَّ ذلـك الفعـلَ منهـم تحيـةٌ لـه ، فرضِيــت بذلك .

وظلَّ رجـالُ سـليمانَ ينفُثونَ سمومَهـم بـينَ الجنـد حتَّى ثاروا وقتلوا عبدَ العزيـز : وخرجـوا برأسِـه إلى سليمان ، وإنَّه لما أُحضِـرَ إلى سُـليمان ، دخـل عليـه موسى بنُ نُصَيْر ، فقال له سُليمان :

ـ أتعرِفُ هذا ؟

فنظر موسى إلى رأسِ أخِيه ، وقال :

ـ نعمْ أعرِفُه ، صوَّامًا قوَّامـا ، فعليـه لعنـه اللّـه إن كان الَّذى قتلَهُ خيرًا منه .

٥

كان سليمان يطلـبُ من موسى أن يؤدِّىَ لبيتِ مـالِ المُسـلمين مائـةَ ألــف ، فـراح يطـوفُ أحيـاءَ العرب ، وليسَ معه إلاَّ مولًى وفىٌّ له ، يسألانِ النَّاس أنْ يعاوِنُوا موسى فى جمـعِ مـا يطلبُـه منـه سـليمان ، فواحدٌ يجيبُهُما ، وآخرٌ يحتجِبُ عنهما ، ولرُبَّما دفـع إليهمـا علـى وجـهِ الرَّحمـة ، الدِّرْهـمَ والدِّرْهميْــن ، فيفرحُ بذلك الأمير ، الَّـذى كـانتِ الأندلـس كلُّهـا ملكَ يمِينِه ، ليدفعَه إلى الموكَّلين به ، فيخفِّفوا عنه من العذاب .

كـانت جنـودُ موسـى أيـَّامَ الفُتـوحِ العظيمـةِ فـى الأندلـس ، تـأخذُ الأسـلابَ مــن قصـورِ الملـوك ، فتفصِـل منهـا مـا يكـونُ فيهـا مـن الذَّهـب ، وترمـى ما عداه ، ولا تأخذُ إلاَّ الدُّرَّ الفاخر ؛ فأصبح موسـى الأميرُ العظيم ، الَّذى كانت كلمةٌ منه تُفـرِحُ ملوكًـا وأصحــابَ تيجــان ، تنفــرجُ أســاريرُه لِدرْهــمٍ أو دِرْهميْن !

وانطلـق موســى ومـولاهُ يـدورانِ علـى أحيـاء العرب ، حتَّى نفِد صبرُ موْلاه . فعزَم على أن يترُكَه ، وهو بوادى القُـرَى فـى أسـوإِ حـال ، وشـعر بذلـك موسى ، فقال لمولاه :

ـ أتترُكنى فى هذِهِ الحال ؟

كان المولَى فى ضجَرٍ شديد ، فقال له :

ـ قد أسلَمك خالقُك ومالِكُك ، الّذى هو أرحمُ الرّاحِمين .

فدمَعتْ عينا موسى ، وجعل يرفعُهما إلى السَّماء خاضعا ، وهو يبتهلُ إلى اللّه ، أن يريحَه مِنَ العذابِ الّذى يُقاسيه ، فما انقضتْ تلك الليّلة إلاّ عن قبضِ روحه .

وماتَ الشَّيخُ الّذى جاهدَ فى سبيل اللّه ، ودوّخَ مُلوكَ القُوط ، ودكَّ عروشهم ، وملأ ذكرُه المشرقَ والمغرب ، وهو من أفقرِ النّاسِ وأذلِّهم ، ولكنَّ اسمَه ظلَّ خافقا ، وما ادَّخره فى السَّماء ، كان أعظمَ من كلِّ كنوزِ الأرضِ ، وعروشِ الملوكِ ، والسُّلطانِ العريضِ الذّى يتقلّصُ ظِلةُّ بموتِ صاحِبه .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

العرب في فرنسا

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

لم يكتَفِ سُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلكِ بنكبَةِ موسى في شخصِه ، حتّى نكبَ جميعَ أولادِه ؛ فأمَرَ محمَّدَ بنَ يزيد ، أميرَ إفريقيَّة ، بأخْذِ عبد اللّه بنِ موسى بنِ نُصَير ، وتَعْذِيبه ، واستئصالِ أموالِ بني موسى ؛ فسجنَه محمَّدٌ وعَذَّبَه ، ثم قَتَله . ولم يَعِشْ سُليمانُ بنُ عبدِ الملك بعدَ ذلك طويلا ، ولم ينعَم بالمُلكِ ورَفاهِيَتِه ، فقد مات شابًّا ، وأصبَحَ عمرُ بنُ عبد العزيزِ أميرَ المؤمنين .

كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يرى أنَّ خُطُوطَ المسلمينَ قد امتدَّت ، وكان رأيُه انتقالَ الغُزاةِ الَّذينَ فتحُوا الأَندَلُسَ منها ، لانقطاعِهم عن المسلمين ؛ ولكنْ لم يُصادِفْ ذلك الرَّأيُ قَبولا ، فكيف يتركُ المنتصرونَ

أرضًا قد فَتحَها اللّهُ عليهم ، هي الجنّاتُ التي وعدَ اللّهُ بها المُتّقِين ؟

وَلِيَ إمْرَةَ الأندلسِ السَّمْحُ بنُ مالِكٍ الخَولانِيّ ، وأمَرَه الخليفةُ عمرُ بأن يُخَمِّسَ الأراضِي ، ويُخرِجَ منها ما كان عَنوة ، خُمسًا للّهِ من أرضِها وعِقَارِها ، ويُقِرَّ القُرى في أيدي غُنّامِها ، بعد أن يأخُذَ الخُمس ، وأمرَه بأن يكتُبَ إليه بصفةِ الأندلُسِ وأنهارِها .

كان السَّمْحُ مُدبِّرًا حكيما ، وقائدًا باسِلا ، وسياسيًّا حازِما ، رأى أنَّ عَصبيَّةَ العربِ لا زالت تَسُودُ الأندلس ؛ فالمُشاحَناتُ قائمةٌ بينَ اليَمَنِيَّةِ والمُضَرِيَّة ، والقِتالُ دائرٌ بين الشّاميين والبربر ، وأنَّ المَسيحيِّينَ المنهزمينَ قد كوَّنوا في شَمالِ الأندلسِ عِصابة ، وكانوا ذوي بأس شديد ، فثارُوا بالعربِ ثورَةَ الأسودِ ، وأبَوا إلاّ الدِّفاعَ عن دينِهم ووطَنِهم ؛

فرأى أن يسوسَ مملكتَه الفائزةَ بالحزْم .

كان عمرُ بنُ عبد العزيزِ شديدَ الخوفِ على الإِسلام ، فهالَه بقاءُ ذلك العَدَدِ الكبيرِ من المسيحيِّينَ فى تلك البلاد ، واستشعرَ من بقائِهم بين أظهُرِ المسلمينَ خطرًا شديدا ، فكتبَ إلى السَّمْحِ بإجْلاءِ مَسيحِيِّي إسبانيا وجنوبِ فرنسا إلى إفريقيَّة ، حيثُ لا يكونُ من وجودِهم خَطرٌ على الدَّولةِ النَّاشِئَة .

فكتَبَ السَّمحُ إلى أميرِ المؤمنين ، عمرَ بن عبد العزيز :

« إنَّ الإِسلامَ ينمُو وينتَشِر ، وتمتَدُّ شَماريخُه فى الأندلس ، وسرَعانَ ما تَدينُ هذه البلادُ جميعُها بدينِ الإِسلام » .

ورأى السَّمحُ بنُ مالكٍ أن يَشغَلَ النَّاسَ بالغَزَوات ، حتَّى تَستَنِيمَ الفِتن ، وتَخلُصَ له وجوهُ النَّاس .

٢

عَبَّأ السَّمحُ جُيوشَه ، وسارَ بها قاصِدًا فرنسا ؛ فَحاصَرَ أربُونَةَ واستولَى عليها ، وشحنَ المُدُنَ المُجاورةَ لها بالمُقاتِلة ، ثمَّ زَحَفَ صَوبَ « طلوزة » ، وكانت عاصمةَ أكتيانية ، فَنصَبَ المَنجَنيقاتِ وسائِرَ آلاتِ الحِصار ، وضَيَّقَ الخِناقَ عليها ، حتى كادَتْ تَخِرُّ ساجدةً تحت أقْدامِه .

رأى « أود » دوق أكتيانية أنَّ سقوطَ تيلوزِ (طلوزَة) فى أيدى العرب ، سيُهَدِّد سلطانَه ، ويجْعَلُ فرنسا كلَّها تحتَ رحمَتِهم ، فَراحَ يجمَعُ الجُموعَ ويحشِدُ الرِّجال ، ويثيرُ الهِمَم ؛ حتى حشدَ جَيشًا عظيما ، انطلقَ به لنجدةِ تيلوز .

أقبل « أود » بجيش يسُدُّ الفضاء ، حتى إنَّ الغُبارَ المتطايرَ من زَحفِ أقدامِهم ، كانَ يُغطِّى عَينَ

الشَّمس ، فرأى السَّمحُ أن يجمَعَ جُنودَه ، وأن يتأهَّبَ للقِتالِ المرير ، الذى سيدورُ بينَ المسلمينَ الذين أجهدَهُم حِصارُ المدينة ، والجيشِ القادِمِ للذَّودِ عن أعراضِهم ، ودينِهم ، وحُرِّيتهم ، وأمنِ بلادِهِم .

وراحَ السَّمحُ يتلو : « إنْ ينصُرْكُمُ اللّهُ فَلا غالِبَ لكم » . وبدأ القِتالُ ، ومَشى الرِّجالُ إلى الرِّجال ، ودارت معركةٌ رهيبة ، فبدا كأنَّما قد مَشَتِ الجِبالُ إلى الجبال ، وراحَ السَّمحُ يُحَمِّسُ المسلمين ، ويُذَكِّرُهم بأفضَلِ ما فيهم ، ويشُدُّ على الأعداء ، ويُسرِعُ إلى صفوفِه التى يَدُبُّ فيها الوَهَن ، يَشُدُّ الأزْرَ ، ويَرتقُ الفَتْق ، ويُبَشِّرُ الصَّابرينَ منهم بما وَعَدَهم اللّهُ من جَنّاتٍ عَرْضُها السماواتُ والأرض .

وَطَفِقَ السَّمْحُ يجُولُ فى الميدانِ كالأسد ، وسيفُه يقطُرُ دما ، ويحمِلُ على العَدُوِّ حملَ الصَّناديد ؛ وفيما

هو فى صَولَتِه ، وجَولَتِه ، أصابَتْهُ طعنة ، خرَّ بها صَريعًا عن جوادِه .

٣

رأى المسلمونَ قائِدَهم مُجَدَّلا ، وهُجومَ « أود » برجالِهِ المُستَبسِلين ، فَفَتَّ ذلكَ فى أعضادِهم ، ونَكَصُوا على أعقابِهم ، وتَركوا قَتلاهُم فى العَراء ؛ وقُتِلَ كثيرٌ من صناديدِ المسلمين ، وكادَ الأمرُ ينقلبُ إلى هزيمةٍ نَكراء ، لولا أن تَقَدَّمَ عبدُ الرَّحمنِ الغافِقِيُّ يقودُ الجيش ، ويَلُمُّ شعْثَ المسلمين ، ويعودُ بهم سالِمين إلى أُرْبونة .

وشاعَ خبر هذه الموقِعة ، فَدَبَّتِ الحماسَةُ فى قلوبِ أهالِى « اللانفدون » و « البيرانة » ، وهبُّوا ليثوروا على العرب ، ويستعيدُوا حُرِّيَتَهم . ولكنَّ العَربَ كانوا مُتَحَصِّنِينَ فى أُرْبونة ، وقد جاءَتهم الإمداداتُ من الأندَلُس ، فَعادُوا يشُنُّونَ الغاراتِ

منها على البلادِ المجاورة ؛ وراحَتْ جُيوشُهم تتقَدَّم ، وتَنتَقِلُ من نَصرٍ إلى نَصر ، فَعادَ للعربِ هيْبَتُهم ، وراحَ أهالِي البِلادِ يترَقَّبُونَ الفُرصةَ ليثوروا ثَورَتَهم ، ويُخرِجُوا العَربَ من ديارِهم .

وظلَّ « أود » دوق أكتيانية يتجنَّبُ القِتال ، لأنَّ غاراتِ العربِ كانت واقعةً على أطرافِ بلادِه ، ولكنّه كانَ يَخشَى إن شُغِلَ بحربِ العرب ، أن ينتهِزَ شارلُ مارتِل هذه الفُرصة ، ويقتَطِعَ بعضَ أجزاءِ إمارَتِه ، ويُضيفَها إلى مملكتِه .

٤

عُيِّنَ عبدُ الرَّحمنِ الغَافِقِيُّ واليًا للأندَلس ، فى صَفَر سنة ١١٣ هجرية (أبرل سنة ٧٣١ م) وكان من زُعماءِ اليَمانِيَّة ، وكِبارِ القُوَّاد . بدَأ ولايتَه بزيارةِ الأقاليم ، وتنظيمِ شُئونِها ، واهتمَّ بالجَيش ، فأنشأ فِرَقًا من البَربَر ، أسندَ قيادَتها إلى قُوّادٍ من العرب .

وكادَ الأمرُ يستَتِبُّ لِعبدِ الرَّحمن ، لولا أنَّ قائِدًا من قُوَّادِ البربر ، هو عثمانُ بنُ أبى نِسعة ، وكان يحكُمُ الولاياتِ الشَّمالية ، قد أحْنَقَه تولِيةُ عبدِ الرَّحمن ، فقدْ عُيِّنَ واليًا قَبْلَه ، ولكن لم تَدُم ولايَتُه أكثرَ من ثلاثِ سنوات ، ثمَّ عُيِّنَ عبدُ الرَّحمن .

كان الخِلافُ يشتَجِرُ بين العربِ والبربرِ منذ الفتح ؛ فالبربرُ يحِقُدونَ على العرب ، لأنَّهم كانوا يتولَّونَ المناصِبَ الرَّفِيعَة ، بينَما قامَ البَربرُ بحمْلِ جُلِّ أعباء الفَتح .

فَكَّرَ ابنُ أبى نِسعَةَ فى الاستِعانةِ « بأود » أمير أكتيانية ، لِيَشُقَّ عَصا الطَّاعةِ على عبدِ الرَّحمن ، عسى أن تَعودَ إليه إمارَةُ الأندلس ، فسعَى إليه .

ورَحَّب « أود » بهذا التَّقرُّب ، فقَدْ كانَ يَخشَى جيوشَ شارل مارتل ، ورأى فى مُهادَنةِ العربِ فُرصةً للتَّفرُّغِ لشارل .

وتزوَّجَ ابنُ أبى نِسْعَةَ ابنة « أود » فوثّقَ ذلك عُرَا التّحالُفِ بينَ الدّوق وابنِ أبى نِسعَة . وارتابَ عبدُ الرَّحمنِ فى أمرِ عثمانَ بنِ أبى نِسعَة ، فَبعَثَ جَيشًا إلى الشَّمال ، وما إن سمِعَ عثمانُ بنبأ هذا الجيش ، حتّى فَرَّ من « بويكارد » على البرينيه ، إلى شُعَبِ الجبال الدَّاخِليَّة ؛ فقاتَله قائِدُ عبدِ الرَّحمن ، وراحَ يقتَفِى أثَرَه من صَخْرَةٍ إلى صَخْرَة ، حتّى قَتَلَه وهو يُدافِعُ عن نفسِه ، وأُسِرَتْ زَوجَتُه لاميجيا ، وأُرسِلَتْ إلى دِمشق .

رأى « أود » ما حلَّ بحَليفِه وصِهْرِه ، فراحَ يجمَعُ جُموعَه ، ويتأهَّبُ للنِّزال ، ورأى عبدُ الرحمن ذلك التأهُّب ، فجمَعَ جُيوشَه وسارَ نحوَ الشَّمال ، ليَثأرَ لِمَقْتلِ السَّمح ، ولِيَفتَحَ فرنسا ، ويجتاحَ أورُبَّا .

انطلَقَ عبدُ الرحمن إلى الشَّمال ، فى جيش لم يجمَع المسلمونَ مثلَه ، ودَخلَ فرنسا فى سنة ٨٣٢ هـ ،

وزحفَ إلى مدينةِ « آرل » ، الواقِعةِ على نهرِ الرُّون ، ونَشِبَتْ معركةٌ رهيبة ، يشيبُ من هَولِها الوَلِيد ، انتهَتْ بانتِصارِ المُسلمين ، وتقهقُرِ « أود » وجنودِه .

وعَبَرَ عبدُ الرَّحمنِ نهر الجارون ، وانتشَرَ فى السَّهل المُمتَدِّ بين الرُّون شَرقًا ، وخليج وسْقُونيا غربا ، وبين اللّوارِ شَمالا ، ونَهرِ الجارُون جنوبا . وحاوَلَ « أود » أن يَقِفَ فى سبيلِ ذلك السَّيلِ المُتَدَفِّق ، ولكنّه هُزِمَ شرَّ هزيمة ، وفَرَّ فى نَفَر من أصحابه إلى الشَّمال .

وقَفَلَ عبدُ الرحمن عائِدا نحو الرُّون ، واختَرَقتِ الجيوشُ الإسلامية بَرجُونِيا ، واستَولَت على لِيون وبيزانسون ؛ وبَعثَ سراياه فبلغَتْ سانس ، التى لا يفصِلُ بينها وبين باريس إلا مِائة ميل فقط .

توغّلَتِ الجيوش الإسلاميَّةُ ألفَ ميل ، من جبل

طارقٍ حتى شُطْئَان اللُّوار ، وتَفَرَّقَتْ جيوشُ « أود » أيدى سبأ ، وهامَ أودُ على وجهِه ، ولم يجدْ أمامَه إلاَّ عَدُوَّه القديم « شارلْ مارتلْ » ، فانطلقَ إليه ، يلتمِسُ منه النَّجدَةَ والعَون .

٥

كان شارل مارتِلْ قد جمعَ جيشًا ضخمًا من الفِرنج ، ومن العَشائِر الجرمانِيَّة والعصاباتِ المرتزِقَةِ فيما وراءَ الرِّين ، وكان الجُندُ نصفَ عُراة ، يتَّشِحُونَ بجلودِ الذِّئاب ، وتَتَهَدَّلُ شعورُهم فوقَ أكتافِهم العارية .

سارَ شارلْ مارتِلْ فى جيشِه الجَرَّارِ نحوَ الجنوب ، لمُلاقاةِ عبد الرَّحمن ، الذى كان يُلْقِى الرُّعبَ فى قلوبِ أهلِ المُدنِ التى ينزلُ بها . ولم يسمَعْ عبدُ الرَّحمن بخروجِ شارلِ لقِتالِه ، فلمْ يتأهَّبْ للمعركةِ الفاصِلةِ بين العرب والفِرنج ، بينَ الشَّرقِ والغرب .

انتهى الجيشُ الإسلاميُّ فى زحفِه إلى السَّهل المُمتدِّ بينَ مدينتى بُواتِييه وتُور ، واستَولَى المسلمونَ على بُواتييه ، ثم هجمُوا على تُور ، الواقِعةِ على ضِفَّةِ اللُّوارِ اليُسرَى ، وسَرعانَ ما كانت مِلكَ يمينِهم ، كلِمتُهم فيها هى العُليا .

وبلَغَ شارلْ مارتِل نهرَ اللُّوار ، دون أن يشعُرَ المسلمون بمقْدِمه ، فلمَّا همَّ عبدُ الرَّحمن أن يقتحِمَ اللُّوار ؛ لمُلاقاةِ أعدائِه ، على الضِّفَّةِ اليُمنَى ، إذا بجيشِ شارلِ قدْ أقبَلَ بجُموعِه الجَرَّارَة ، فلم يجدْ عبدُ الرَّحمن بُدًّا من العَودةِ إلى السَّهل ، والتَّأهُّبِ للمَوقِعة ، التى أرغَمَه شارل على خَوضِ غِمارِها .

عبَرَ شارْل اللُّوارَ غربَ تُور ، وعسكَرَ بجيشِه إلى يسارِ الجَيشِ الإسلامىّ ، الذى كانَ يغُصُّ بالسَّبىِ والأَسرَى والغَنائِم وثَرَواتِ فرنسا ، وقَدَّرَ عبد الرحمنِ خطرَ هذه الغَنائم على رجالِ جيشِه ،

فحاولَ عَبَثًا أن يُقنِعَهُم بالتّخلُّصِ من بعضِها ، ولم يشتدَّ فى أمره خشيةَ التَّمرُّدِ والعِصيان .

واشتَعَلتْ نيرانُ الحرب ، وتقارَعتِ السُّيوف ، ومشى الرِّجالُ إلى الرِّجال مَشْىَ الوُعُول ، وارتَوَتْ سهولُ فرنسا بالدِّماء ، وانقضَتْ ثمانيةُ أيَّام ورحى الحَربِ دائِرة ، والأرواحُ تُزهَق ، والأَجسادُ تَهوِى عن الخُيول ، وأنَّاتُ الجَرحَى تمتزجُ بصهيلِ الخُيول ، وصَليلِ السُّيوف ، وأقبَلَ اليومُ التَّاسِعُ والقِتالُ دائر ، كلٌّ من الجَيشَينِ ثابتٌ فى مكانِه لا يزول ، وحَمِىَ وَطِيسُ القتال ، ودبَّ الوَهَنُ فى صفوفِ الفِرنج ، وكادَ النّصرُ يلُوحُ للمسلمين ، ولكن حَدَثَ أن فَتَحَ الفِرنجُ ثَغْرَةً فى الجيش الإسلامىّ ، واندَفَعُوا منها صَوبَ مُعسكَرِ الغنائم .

وارتَفَعَت صَيحةٌ فى الميدان :

ـــ ألا إنَّ معسكَرَ الغنائِم قد سقَطَ فى أيدِى الأعداء .

فتركتْ قوَّةٌ كبيرةٌ من فُرسانِ المسلمين المعرَكة ، وتقَهْقَرَتْ للدِّفاع عن الغنائِم ، وتَخلِيصِها من يدِ الأعداء ، وكأنَّما قدْ نَسِىَ المسلمونَ ما وقَعَ يوم أُحُدٍ لإخوانِهم ، الّذينَ كانوا مع النّبىِّ الكريم ، يومَ زالُوا عن أماكِنِهم ، لِيشترِكُوا فى الغَنيمة ، فَدارَت الدائِرةُ عليهم ، وانقَلَبَ نصرُهم هزيمةً نكراء .

وهُرِعَ كثيرٌ من الجُندِ للدِّفاع عن الغَنائِم ، فوَقَعَ الاضطِّرابُ فى صُفوفِ المسلمين ، وراحَ عبدُ الرحمن يحاولُ أن يُعيدَ إلى جيشِه النِّظام ، ولكن هَيهات ، شغَلَتهم الدُّنيا عمَّا هم فيه ، فإذا بسهمٍ من سهامِ الأعداءِ يُصِيبُه ، فَيسقُط مُجدَّلا ، يَخبطُ فى دمائِه .

رأى المسلمونَ مقتلَ قائِدِهم ، فَدَبَّ الذُّعرُ فى صفوفهم ، وراحت سيوفُ الفِرنج تعملُ فى رِقابهم ، ولكنهم صَمَدُوا حتى أرخَى اللّيلُ سُدُولَه ، وافتَرَقَ الجيشان ، ينتظِرانِ طلوعَ النّهار ، وفى

الليل ، انسحَبَ المسلمون ، فلم يعُدْ هنـاكَ أمَلٌ فى النَّصر .

وفى صَبيحـةِ اليـومِ التَّـالِى ، رأى أود وشـارْل مارتِل ، الهُـدوءَ المسيطِرَ على المعسـكر الإسـلامىّ ، فبَعثَ رُسُلَه ، فأخبَرُوه أنَّ العربَ قد انسـحَبُوا ، تـارِكينَ غَنـائِمَهم وجَرحَـاهم ، الذيـن لم يسـتطيعُوا الانسحاب ، وخشِىَ شارل أن يكونَ ذلك كَمِينـا ، فلـم يتقَـدَّمْ خلـفَ العربِ المنسـحِبين ، بـلِ اكتفَـى بالعودة ، بعدَ أن انتهت معركةُ « بلاطُ الشُّهداء » ، بوقـفِ سيلِ العـربِ المُتَدَفِّـق ، وإنقـاذِ أوربَّـا مـن الاحتلال الإسلامىّ ، وحُطِّمَ أمَلُ المسلمينَ فى سِيادةِ العالَمِ كلِّه .

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

القصص الديني

شارل مارتل

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

انتصرَ شارْل مارتِلْ على الجيوشِ العربيةِ المتَدفِّقةِ للاستيلاءِ على أوربَّة ، فى المعركةِ التى دارتْ بقُربِ « تُور » ، وانتهتْ بقربِ بواتييه ، وسقَط عبدُ الرَّحمنِ الغافِقىُّ أميرُ الجيوشِ العربيةِ صريعا ، وانسحبَ الجيشُ العربىُّ من فرنسا إلى البِيرانيه ، مُدمِّرًا كل ما مرَّ به .

شدَّ ذلك النَّصرُ أزْرَ المسيحيِّين ، وشحَذَ عَزائِمَهم ، وجعَلَهم يعتَقِدُونَ أنَّ اللّهَ صارَ يؤيِّدهم ، إذْ دبَّ الوَهَنُ فى صُفُوفِ المسلمين ، وراحَ الصَّالِحونَ منهم يقولون : إنَّ ما نَزَلَ بهم من هزيمة ،

إنَّما كان غضَبًا من اللّه ، لِما اقترَفُوا من ذنوب ، ولأنَّهم اشترَوا الدُّنيا بالآخِرة .

وبَلَغَ خبرُ هذه الهزيمةِ قُرطُبة ، فحَزِنَ النَّاسُ حُزنًا شديدا ، وارتَدُوا السَّواد ، وبعثَ أميرُ قُرطبةَ بنبإِ هزيمةِ المسلمينَ فى بلاطِ الشُّهداء ، إلى القَيروان ، وإلى دِمَشق ، فامتلأ صَدْرُ أميرِ المؤمنينَ حُزْنًا وأسى ، وعزمَ على أن يغسِلَ عارَ الهزيمة ، فأرسلَ عبدَ الملِكِ ابنَ قطن الفِهرِىَّ أميرًا على الأندلس ، وجَهَّزَ معه جيشا ، وأمَرَه بالأخْذِ بثأرِ المسلمين .

انطلقَ عبدُ الملكِ إلى الأندلس ، وراحَ يخطُبُ فى النَّاس ، يُذَكِّرُهم بأفضَلِ ما فيهم ، ويدعوهم إلى الجهاد . ثمَّ سارَ بالنَّاسِ إلى كتالُونيا وأراغُونَ ونافار ، ثم تقدَّمَ إلى بلادِ اللّنْغدون ، وحصَّنَ المدنَ

التى كانت فى أيدى المُسلمين ؛ ولكنَّ شارلْ مـارتِلْ لم يخفَّ لقتالِه ، فقد كان مشغولا ببسطِ سُلطَتِه علـى بُرغُونْية ، وعلى مُقاطَعةِ ليون ، حيثُ كان المسلمونَ قـد شَنُّوا الغـارات ، وأوقَعُوا الرُّعـبَ فـى قلـوبِ النّاس .

٢

اتّفقَ يوسُفُ أميرُ أُربُونةَ العربىّ ، مع مُورُونْدَ دوقِ مرسيليا ، وزحفَ المسلمونَ بجيـشٍ جـرَّار ، وعـبَرُوا نهـرَ الـرُّون ، واسـتولَوا علـى مدينـة « آرل » ، ثـم تقدَّمُوا إلى أواسِطِ بلادِ البُرُوفانس ، وحاصَروا مدينة سـانْ ريمى ، واسـتولَوا عليهـا ، وتَدَفَّقُـوا كالسَّـيلِ الجارفِ صوْبَ « آفِينيون » .

وهـبَّ سـكّانُ « أفِينيـون » لصَـدِّ هُجـومِ الجَيـشِ الإسـلامىّ ، ولكـن تكسَّـرَت مقـاوَمَتُهم أمـامَ تيَّـارِ المسلمينَ المُتدَفِّق ، وانسحَبُوا مـن ممَـرِّ « دُورانـس » ووقَعَـتْ « أفينيـون » ، التـى شـيِّدَ عليهـا فيمـا بعـد قصرُ البابوات ، فى أيدى المسلمين .

ومـات « أود » دوقُ أكتيانْيـا ، وعَـدُوُّ شـارل مارتِل اللّدود ، فانْقَضَّ شـارلْ مـارتِل على بـلادِه ، واستولَى عليها ، وبذلك ازدادَ شارلُ قُوَّةً على قوَّة ، وباتَ يتحيَّنُ الفُرَصَ لقتالِ العَرب ، الذيـن يُهـدِّدُونَ بلادَه ، والذينَ يتطلّعونَ إلى وضْعِ أيديهم على أورُبَّةَ بأسرِها .

٣

انتصَرَ الأمـير عبـدُ الملـكِ بـنُ قطـنِ الفِهـرىُّ فـى فرنسا، واستولَى على المُدنِ التى شنَّ الغـارةَ عليهـا ، ثم عادَ إلى جبـالِ البيرانيـه ، لتـأديبِ الأهـالى الذيـن أعلَنُوا عِصيانَهم . راحَ عبدُ الملكِ يُقـاتِلُ فـى الجبـالِ قتالَ الأبطال ، وإذا بالسَّـماءِ تتلبَّـد ، وإذا بالأمطـارِ

تهطِـل ، وإذا بالرِّيـاحِ تعصِـف ، فلـم يحتَمِـل رجالُـه غَضـبَ الطَّبيعـة ، فوَقَعـتْ عليهـم هَزِيمـة ، جَعلَتهـم ينسحِبُونَ من الميدان .

وبلغَ الخليفةَ نبأُ هَزيمةِ عبدِ الملك ، فازدادَ غَضبه ، وعـزَمَ علـى أن يبعـثَ أمـيرًا آخَـر ، يَلُـمُّ الشَّــمْل ، ويَرْتُقُ الفَتقَ ، ويُعيدُ إلى العربِ هَيبَتهـم ، وأن يسـيرَ فى الأرضِ يَدُكُّ الحُصونَ ، ويفتَحُ البلاد .

كانَ عُقْبَةُ بنُ الحجَّاج السَّلُولِىُّ يتوقُ إلى الجِهـاد ، ويشتاقُ إلى الاستشهادِ فى سبيل اللّـه ، فَبعثَـه أمـيرًا على الأندَلُس .

حَصَّنَ عُقبةُ جميعَ المواقِـع التـى رأى تَحْصِينَهـا فـى بلادِ اللّنغدُون ، حتّى ضِفافِ نهرِ الـرُّون ، وشَـحَنَها بالمُقاتِلـة ، ثـمَّ أغـارَ علـى بـلادِ دوفنييـه ، شمـالِى

« بُروفـانس » ، وغربـيّ « سـافوا » ، وشـرقيّ « ليون » . واحتلّ المسلمونَ أخذًا بثأرِ جيشِهم ، الذى قَهَرَه شارْلُ فى بلاطِ الشُهَداء ، مدينة لِيون ، وبَثُّوا الغاراتِ منها على « بورغُونية » . فَعَزَمَ شارلُ مارتِل على قِتالِ المسلمين ، حتى يُجلُوا عن بلادِه ، وحتّى ينقطِعَ تهديدُهم له .

٤

رأى شارلُ مارتلْ أن يُؤَلِّبَ حُكّامَ البلادِ المُجاوِرَةِ على المسلمين : فاستَصرَخَ « لِويتْبراند » ملكَ اللّومبَاردِيِّينَ فى إيطاليا ، لِيُوافِيَه بجيش لقتال المسلمين ؛ وسَرَّحَ أخاهُ « شِيلْدِبْراند » بجيشٍ إلى لِيون ، فجاءَ شِيلْد بْراند وحاصَرَ المسلمينَ فى آفينيون ، وتبِعَه شارلُ مارتِل بجيشٍ جديد ، وجاءَ

لويتْبراندُ ملكُ اللُّومبارديِّين بجيش جَرَّار من إيطاليا ، فاستَولَوا على أفينيون عَنوة ، واستأصلُوا من بها من المسلمين .

وراحَ شارلُ مارتِل يتقَدَّمُ صَوبَ أُربُونة ، الحصنِ الحَصينِ للمُسلمين ، وبلغَ عُقْبَةَ نبأُ تقدُّمِ شارل ، وتضْيِيقِه الحِصارَ على أُربُونة ، فأرسَلَ جيشًا فى البحرِ لنجدَةِ المُحاصَرين ، ووصَلَ الخَبَرُ إلى شارل ، فانقَضَّ فجأةً على الجيشِ الوافِدِ من البحر ، فدَبَّ الهَرجُ فى صُفُوفِهم ، وسَقطَ أغلَبُهم صَرعَى ، ومن بَقِيَ هُرِعَ إلى السُّفُنِ الرَّاسِيةِ على الشاطِيء ، يلتَمِسُ الفِرار .

وعادَ شارلُ مارتِل إلى حِصار « أُربونة » ، ولكنّه أخفَقَ فى الاستِيلاء عليها ، وفيما هو يُحاصِرُها

وردَتِ الأنباءُ بأنَّ السَّكسُونَ قد أشعَلُوا نارَ الثَّورة عليه من جديد ، فاضطُرَّ إلى رفْعِ الحِصارِ عن « أُربُونة » ، وراحَ يُدَمِّرُ في عَودَتِه القِلاعَ والحُصونَ ، فخرَّبَ القِلاعَ التي كانت في « بيزيه» ، ودمَّرَ أبواب مدينة « نيم » ، وقِسْمًا من المَلْهَى الرُّومانيّ ، الذى كان فيها ، خوفا من أن يتحصَّنَ به العرب .

٥

كان « موروند » دوقُ مَرسِيليا ، وحليفُ العرب ، قدْ فَرَّ هاربًا من وجهِ شارل مارتِل ، وبَقِيَ مختَفِيًا حتى غادَرَ شارل مارتل جنوبِيّ فرنسا ، قافِلا إلى الشَّمال فلمَّا بَعُدَ شارل مارتل ظَهَرَ موروند ،

وجَدَّدَ علاقاتِه مع المسلمين ، وراحُوا يعمَلُونَ معا ، ويُغِيرُونَ على بلادِ شارل .

ضَايَقَ شارلَ تلكَ الغاراتُ التى لا تنقَطِعُ على أطرافِ بلادِه ، فزَحفَ في سنة ٧٣٩ م إلى الجنوب ، ومَعه أخوه ، وهاجَمَ مرسيليا ، واستولَى عليها ، وبعدَها قرَّ المسلمون فى « أُربونة » ، لا يجرُءونَ على عُبورِ نهرِ الرُّون .

كان العربُ فى الأندلُس مُنقسِمينَ إلى يمنيين ، وإلى عَدنانيِّين ، وكانت العداواتُ قائِمةً بينهما ، فلم تقِفْ تلكَ العدواتُ والعصبيَّةُ عند جزيرةِ العرب ، بل امتدَّتْ إلى مصرَ والشام ، ثم الأندَلَسَ وفرنسا ، وليتَ الأمرَ اقتَصرَ على انشقاقِ العرب فحسب ، بل إنَّ البَربَر الذينَ جاءوا مع العربِ يومَ الفتح ،

كانوا يُبغِضُونَ العربَ جميعا ، الأمرَ الذى كان يَدِبُّ فى جِسم الدَّولةِ الجديدةِ كما يدِبُّ السُّوس فى الخشب .

وفى سنة ٧٣٧ م ، فى الوقتِ الذى كانتِ الحروبُ الرَّهيبةُ دائِرةً بينَ عُقْبَةَ بن الحجَّاجِ وشارلْ مارتِل ، ثارَ البَربَر على أميرِ إفريقِيَّة ، لأنَّه عادَ فَوضَعَ الجِزية على البَربَر ، بعدَ أن كانت قد وُضِعتْ عنهم . كان البربرُ أقوامًا أشِدَّاء ، نَشَئُوا على صَهَواتِ الخيول ، فلم يَقْوَ أميرُ إفريقيَّةَ على إخضاعِهم ، فاضطُرَّ عُقْبةُ أميرُ الأندلُسِ أن يُجيزَ إلى أفريقِيَّة ، لإدخالِ البربر فى الطَّاعة . فانتَهزَ شارلُ مارتِل فرصةَ غِيابِ عُقْبة ، وانشغالِه بثورةِ البربر ، وراح يُخَلِّصُ جنوبِيَّ فرنسا من أيدى العرب .

٦

ومات شارلُ مارتِل سنة ٧٤١ ، وخَلَفَه ابنُه بيبين القَصِير ، واشتغَلَ فى تَوطِيدِ مُلكِهِ فى شَمالِيِّ فرنسا وجنوبِها . ولاحتْ الفُرصةُ للعرب ، ليُجَدِّدوا غاراتِهم على فرنسا ، ويَبلُغُوا منها مُرادَهم ؛ ولكنْ شَغَلَهم عن ذلك الشِّقاقُ الذى دبَّ بينَهم ، وانشغالُ الخلفاءِ الأمويِّينَ عن الأندلُس بالثَّورات ، التى كانت تتوالى فى الولايات الشَّرقية ، فقد كانت دولةُ بنى أُمية فى آخرِ أيَّامِها تجودُ بأنفاسِها الأخيرة .

تغَيَّرتِ الحالُ فى جنوبِيِّ فرنسا ، وخلا الجوُّ للمسيحِيِّين ، بِرغْمِ ضَعفِ بيبينَ وفُتورِ هِمَّتِه . وراحتِ الحامياتُ فى نِيم ، وفى بِيزيه ، وفى

ماغلون ، تَخِفُّ شيئا فشيئا ، وتكوَّنت بها إداراتٌ أهليَّةٌ تُدِيرُ شئُونَها ، تتمتَّع باستِقلالِها ، وإن كانت تَعترِفُ بسلطانِ المسلمين .

وفى سنة ٧٤٧ م ، تولَّى يوسفُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الفِهرِىُّ إمارَةَ الأندلُس ، فبعثَ ابنَه عبدَ الرحمنِ بجيش إلى البيرانيه ، لتأديبِ الثائِرينَ بها ، ولكنَّ المَسيحيِّينَ قاوَموهُ بالسِّلاحِ مقاوَمةً شديدة ، وأطمَعَ ذلك أهالى المُدُن القَريبة ، فراحُوا يُعلِنونَ الثورةَ على المسلمين ، ويرفَعُونَ رايةَ العِصيان .

وسارَ بيبين بجيشٍ إلى اللاّنفدون ، واستولَى على نِيم وأقت وماغلون وبيزييه ، ثمَّ زحَفَ لحصارِ أُربونة ، وضَيَّقَ عليها بجميعِ قُوَّاتِه . وطالَ الوقتُ ، ولم تسقُطْ أربونة ، فعادَ بيبين ، وأبقَى جانِبًا من عساكِره حولَها ، تحت إمْرَةِ أميرٍ من أمراءِ القُوط .

واستدْرجَ العربُ الأميرَ إلى كَمين وقَتَلوه ، ووقَعَتْ مَجاعةٌ فى جَنُوبِىِّ فرنسا ، عطَّلَت حركاتِ الجيوش ، فرُفِعَ الحِصارُ عن « أُربونة » .

٧

استولَى أبو مسلمٍ على خُراسان ، وسَرعانَ ما ثارَ أهلُ العِراقِ على الوالى من قِبَلِ الخليفةِ الأَمَوى ، ونُودِىَ بأبِى العَبَّاسِ خليفَةً للمسلمين ، فكان ذلك إيذانًا بزَوالِ مُلكِ بنى أُميَّة ، ومطلَع عهدِ العَبَّاسِيِّين .

وراحَ قُوَّادُ أبى العَبَّاس يقتَفُونَ أثَرَ الأَمويِّين ، ويَقتُلُونَهم ، ويَضَعُونَ أيدِيهم على البلاد ، فأصْبَحَتِ الشَّامُ ومصرُ والمغربُ تدينُ بالوَلاءِ لأبى العَبَّاس ، مؤسِّسِ الدَّولةِ العبَّاسيَّة ، وتقلَّصَ ظِلُّ الأَمَويِّين عن

الدَّولـةِ الإسـلاميَّة ، وبلغَـتْ أنبـاءُ ذلــك الانقِـلابِ الأندَلس ، فَبَقِيَتْ في حَيرَة ، تَرقُبُ مَصيرَها .

راحَ العَبَّاسيُّونَ يقتُلونَ الأَمويِّين فـي الشَّـام ، وقـدْ أفْلتَ من القَتلِ شابٌّ من بنى أُميَّة ، هو عبدُ الرَّحمــنِ ابـنُ مُعاوِيـة ، صقْـرُ قُريـش ؛ فـانطَلَقَ إلى الأندَلُــسِ وحـدَه ، ليـسَ معـه إلاَّ مَـولاهُ بـدْر . وقـدِ اسـتَطاعَ بذكائِـه ودهائِـه وفِطْنَتِـه ، أن يؤسِّـسَ فـي الأندلــسِ دَولَةً أَمويَّة قويَّة ، وأن يُنشِيءَ فيها حضارةً شـامِخةً ، فقد كان ربيبَ مَجْد ، ومن بيتِ سيادةٍ وسلطان .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

صقر قريش

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

زالَ مُلكُ بنى أُمَيَّةَ من المشرِق ، واستَتَبَّ الأمرُ لأبى العَبَّاس ، أولِ خليفةٍ عبَّاسيّ ، وانتقلَ المُلكُ من « دِمشق » إلى « بغداد » .

وَوَلّى أبو العبَّاسِ عمَّه عبدَ اللّهِ بنَ علىٍّ الشامَ ، فبعثَ عبدُ اللّهِ إلى بنى أُمية ، وأظهرَ للنّاسِ أنَّ أميرَ المؤمنين وصَّاه بهم ، وأمَرَه بصِلَتِهم ، وإلحاقِهم فى ديوانِه ، وردِّ أموالِهم عليهم ، فقدِمَ عليه من أكابرِ بنى أُميَّةَ وخِيارِهم ، ثلاثةٌ وثمانونَ رجُلا ، كان فيهم عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاويةَ بنِ هِشام .

انطلَقَ عبدُ الرَّحمنِ ليدخلَ على الأمير ، وفيما هو فى طريقه ، لَقِيَه رجلٌ كان عبدُ الرَّحمنِ أحسنَ إليه ، فقال له الرَّجل :

ـ أَطِعنِى اليومَ فى كلِمة ؛ ثم اعصِنى إلى يومِ القِيامة .

فقال له عبدُ الرَّحمن : « وما أطِيعُكَ فيه اليوم ؟ » .

فقال له الرَّجل : « أدْرِك مَوضِعَ سُلطانِك وقاعِدَتَك المغرب . النّجاءَ النّجاء ! فإنَّ هذا غَدْرٌ من السَّفّاح ، وهو يُريدُ قَتْلَ من بَقِيَ من بنى أُميَّة » .

فقال له عبد الرحمن : « وَيحَك ، إنّه كِتابُ أبى العَبَّاس قَدِمَ عليه ، يأمُرُه فيه بصِلَتِنا ، وردِّ أموالِنا إلينا ، وإلحاقِنا بالعَطاء الكامل ، والرِّزقِ الوافِر » .

فقال له الرَّجل فى حماسة : « وَيْحَكَ الغَفَل ! واللّه لا يستَقِرُّ ملكُ بنى العبَّاس ، ولا يستَولونَ على سُلطان ، ومنكم عَينٌ تَطْرِف » .

فقال له عبدُ الرَّحمن :

ـ ما أنا بالذى يُطيعُكَ فى هذا .

فراحَ الرَّجل يتوَسَّلُ إليه ، قال :

ـ النَّجاءَ النَّجاء . والهَربَ الهَرب ، فاخرُج فأنا معَك ، ومالِي لك ، ولى عشرونَ ألفَ دينارٍ مصرورة ، كنت أعدَدتُها لهذا الوقت .

وظَلَّ الرَّجلُ يُجادِلُه ، حتّى أقنَعَه بالهرب ، فَخَرَجَ عبدُ الرَّحمنِ يُريدُ المغرب ، ودخَلَ أكابرُ بنى أُميَّةَ على عبدِ اللّهِ بنِ علىّ ، فَقَتَلَهم ، وأخَذَ أموالَهم .

٢

سارَ عبدُ الرَّحمنِ ومَولاهُ بَدْرٌ إلى المغرب ؛ ولما استقرَّ به المَقام ، واطمَأنَّ أنَّه أصبَحَ بعيدًا عن أمَراءِ بنى العَبَّاس ، بعثَ مَولاهُ بدرًا إلى الأندَلُس ، يدعو له ، ويُمَهِّدُ لدخولِه عندَ شِيعةِ بنى مروانَ هناك .

وبلغَ بدرٌ الأندلس ، وكانت العَدواتُ ناشِبةً بين اليمَنِيَّةِ والمُضَرِيَّة ، فاتَّفقَتِ اليمنيَّةُ على تولِيتِه ، وشدِّ أزْرِه ، إذا ما وَفَدَ إلى الأندلس ، ورجَع بدر مَولاهُ إليه بالخبر .

وفى سَنةِ ثَمانٍ وثلاثينَ ومِائَة ، فى خِلافَة أبى جَعفرٍ المنصور ، أجازَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاويةَ البحرَ وحدَه ، لا يُرافِقُه إلا بدرٌ مولاه ، وشبابُه ، وعزيمتُه الماضية ، وعقلُه الرَّاجح ، وإرادَتُه الحديديَّة ، وحِذْقُه الشَّديد ، وشخصيَّتُهُ الجبَّارةُ القَوِيَّة .

ونَزَلَ بساحِلِ الأندلُس ، فأتاهُ قَومٌ من أهلِ إشبيليةَ فبايعُوه ؛ ثمَّ انتقَلَ إلى كُورةِ رَيَّة ، فبايَعَه عامِلُها ؛ وانطلَقَ إلى قُرطُبة ، فاجتَمعَت إليه اليمنيَّة ، ونُمِيَ خبرُه إلى والى الأندَلُس ، يوسُفَ

ابنِ عبدِ الرَّحمنِ الفِهرِىّ ، وكان غازِيًا بِجِلِّيقِيَّة ، فرجَعَ إلى قُرطبة ، ليرى ما يجرى هناك .

وقابَلَ يوسُفُ وزيرَه الصَّميلَ بنَ حاتم ، وحادَثَه فى أمرِ عبدِ الرَّحمنِ ، الذى جاءَ من المشرقِ يطلبُ البَيعةَ لنفسِه ، فأشارَ عليه الوَزيرُ بالتَلَطُّفِ له ، والمكرِ به ، لكونِه صَغيرَ السِّن ، حديثَ عهدٍ بنِعمة ، فحاوَلَ يوسُفُ أن يستَميلَ عبدَ الرَّحمنِ الدَّاخل ، وأن يمكرَ به . ولكنْ باءَتْ مُحاوَلَتُه بالإخفاق ، فقد كان عبدُ الرَّحمنِ صغيرَ السِّنِّ حقًّا ، ولكنه كان راجِحَ العقلِ فَطِنا ، ولم يكن من المَيسُورِ أن يُسْتَدْرَج ، ليَمكُرَ به يوسُف والصَّمِيل .

وعلا ذِكرُ الدَّاخِل ، وتَوافتْ إليه جنودُ الأمصار ، وتَدَفَّقَتْ عليه المُضَرِيَّة ، ولم يَبْقَ مع يوسُفَ غيرُ

الفِهرِيَّةِ والقَيسِيَّة ، فَزَحَفَ الدَّاخلُ بجيوشِه ، لِيَقْضِىَ على يوسُفَ ومن معه ، ليستَتِبَّ له الأمرُ فى الأندلُس .

والتَقى الجَمعانِ بظاهِرِ قُرطبة ، وانتصَرَ عبدُ الرَّحمن ، وانكَشفَ يوسُف ، ولجأ إلى غَرناطَة ، فتحَصَّنَ بها ؛ وانطلَقَ خلفَه الأميرُ عبدُ الرحمن ، ليُجهِزَ عليه ، حتّى تُصبِحَ الأندلُسُ له وَحْدَه ، لا يُنازِعُه فيها مُنازِع .

٣

لم يكنْ لأمَراءِ المسلمينَ فى الأندلُس شغلٌ إلا قتالَ بعضِهم بعضا ، لم يكونوا من بيوتٍ عَريقةٍ فى المُلك ، ولم يكنْ لهم تُراث . أمّا عبدُ الرَّحمن ، فقدْ كان بقِيَّة

أسرةٍ مالِكة ، لها حَضارَتُها وآثارُها ؛ فلمَّا استَتَبَّ له الأمر ، راحَ يبنى المسجِدَ الجامعَ والقَصرَ بقُرطُبة ، ويضعُ بُذورَ أعظَمِ حضارةٍ للمُسلمينَ فى الأندُلس .

وكانَ هَدَفُ المسلمينَ فى الأندلس ، الاستيلاءَ على فرنسا ، والانطلاقَ منها إلى أورُبَّة ، وكانت الإمداداتُ الإسلاميَّةُ تصِلُ إلى الأندَلُس ، من الشَّامِ ومصرَ والمغرِب ؛ أما وقدْ أصبحَ العباسيُّونَ حُكَّامَ المشرِق ، وأصبَحَ عبدُ الرَّحمنِ الدَّاخلُ وَحْدَه فى الأندَلُس ، فقد صارَ غزوُ فرنسا صعبا ، فما كانت الأندلُس وحدَها بقادِرةٍ على تجهيزِ حَمَلاتٍ عظيمة ، كفيلةٍ بالاستِيلاءِ على أورُبَّة .

كانت فرنسا يشتدُّ ساعِدُها يومًا بعدَ يوم ، فقدْ أصبَحتْ كلُّها وحدةً واحدة ، فى يد « بيبين » ؛

وكانت قادِرةً لدى الحاجةِ أن تستعينَ بجيوشٍ جرَّارةٍ من ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا ، فلم يعُدْ مسلمو الأندَلُس ، المهاجمينَ لمسِيحِيِّى فرنسا ، بلِ انقلَبَ الأمرُ ، وأصبح « بيبين » يُهدِّدُ حُصونَ العَربِ الأماميَّةَ في فرنسا ، ويُؤَلِّبُ الثَّائِرينَ على أمِرهم فى قُرطُبة ، ومِمَّا زادَ الطِّينَ بِلَّة ، التَّنافُسُ الشَّديدُ بينَ الخليفةِ في بغداد ، والأَميرِ فى قُرطُبة ، ؛ فقدْ أرسَلَ المنصور ، الخليفةُ العبَّاسِىّ ، من سواحِلِ إفريقيَّة ، أُسطولاً لُمحارَبة عبدِ الرَّحمن الدَّاخِل ، ليضُمَّ الأندَلُسَ إلى مُلكِه ، ولِتوحيدِ الدَّولةِ الإسلاميَّة ، كما كانت لعهدِ بنى أميَّة .

ونزلَ قائِدُ أسطولِ المنصورِ بباجَةِ الأندلس ، داعيًا لأبى جعفر ، وقدْ نشَرَ اللِّواءَ الأسود ، شِعارَ

العبَّاسِيِّين ، فاجتَمعَ إليه الأُمراءُ الثَّائِرون ؛ ولكنَّ عبدَ الرَّحمن لقِيَه بنواحِي إشبيلية ، فقاتَلَه أيَّامًا حتى هزَمَه ، وقَتَله في سبْعةِ آلافٍ من أصحابه ، وبعثَ عبدُ الرَّحمنِ برُءُوسِ كثيرٍ منهم إلى القَيرَوان ومكّة ، فأُلقِيَت في أسواقِها سِرًّا ، ومعها اللِّواءُ الأسود ، وكتابُ المنصورِ لقائِدِ أسطولِه .

وبلغَ المنصورَ ذلك ، فارتاعَ وقال :

ـ ما هذا إلاَّ شَيطان ، والحمدُ للّه الذى جعلَ بيننا وبينَه البحر .

٤

تيَقَّنَ « بيبين » مَلِكُ فرنسا ، من العَداوةِ النَّاشِبةِ بينَ بَغدادَ وقُرطُبة ، فلم يكتَفِ بالتَّضريبِ بينَ أمراءِ المُسلِمين ، بل رأى أن يستَعِينَ بالمَنصُورِ على

عبدِ الرَّحمنِ الدَّاخل ، عَدُوِّهما المشترك . فَبَعَثَ رُسُلَه إلى بَغداد ، ولبثُوا بها ثلاثَ سِنين ، ثمَّ رجَعُوا إلى فرنسا ومعهم رسلُ الخليفة ، فنزلُوا فى مرسيليا ، وصَعِدُوا إلى مقرِّ « بيبين » ، فبالَغَ فى الاحتِفاء بهم ، وقضَوا ذلك الشِّتاءَ فى مدينة « مِتْز » باللُّورين ، ثمَّ أمَرَ بإقامتِهم فى قصْرِ سلس على ضِفافِ اللُّوار ، ثم أُعِيدُوا إلى الشرقِ عن طريق مَرسِيليا ، ومعهم الهَدايا إلى الخليفة .

وفكَّرَ عبدُ الرَّحمنِ ، بعدَ أن استَتَبَّ له الأمر ، فى مدينة « أُربُونة » وما يليها من جنوبِيِّ فرنسا ، فَسَرَّحَ جيشًا زحفَ إلى البيرانيه ، لرفعِ الحِصارِ عن « أربُونة » .

كان جمهورُ أهلِ « أُربونةَ » من المسيحِيِّين ، وقد

أثقلَت كاهِلَهم الحروب ، فبعثُوا إلى « بيبين » سرّا ، يتّفقُونَ معه أن ينتَفِضُوا على المسلمين ، وينضمُّوا إلى جيشِه ، على أن يكونوا أحرارًا فى بلدتهم ، وأن تكونَ إدارةُ شئونهم فى أيديهم ، ووافقَ « بيبين » على ذلك ، فى غفلةٍ من الحامية الإسلامية .

كانت الحاميةُ الإسلاميةُ مطمئنةً لأهالِى « أُربونة » ، وفى غَفْلةٍ منها هجمَ الأهلُونَ عليها ، وأعملُوا سيوفَهم فيها ، فذَبَحُوها عن آخِرِها ، ودَخَلَها « بيبين » وشحَنَها بالحُرَّاس ، وانقَرَضَت منها حكومةُ الإسلام .

صارَ المسلمونَ يبغُونَ عَرَضَ الدُّنيا . رأَوْا بأعيُنِهم ظِلَّ الإسلامِ يتقلّص ، وعلى ذلك كانوا يُبرمونَ معاهدات ، ويُقيمُون عَلاقاتٍ مع الملوكِ الّذينَ

يُناوِئُونَ الإسلام ، لِيعُودَ حيثُ بدأ .

٥

ماتَ « بيبينُ » وصارَ ابنُه شارلمانُ مِلكا على فرنسا ، فاتَّبعَ خُطَّةَ أبيه ، فأخَذَ يُحَرِّضُ أمراءَ الأندَلُس ، من مُسلمينَ ومَسيحيِّين ، على عبد الرَّحمنِ أميرِ قُرطُبة . كان يقولُ لهذا الفَريق : إنّه إنّما يُريدُ أن يُحرِّرَهم من استبداد عبد الرَّحمن ، ويقولُ لذلك الفَريق : إنّه حامى النّصرانيَّةِ الطَّبيعىّ ، الحافظُ للكنيسة .

وثارَ أميرانِ من أمراءِ المسلمينَ فى مقاطعةِ نهر إبرة ، على عبد الرَّحمن ، فاجتازا البيرانيه قاصِدِيْن شارلمان ، واستَعْدَياهُ على أميرِ قُرطُبة . كان شارلمانُ

يرقُبُ هذه الفُرصة ، حتى ينقضَّ على إسبانيا ، ويملِكَ ولو جانبًا منها ، فأمرَ بتعبئَةِ الجيوش ، وسَرعانَ ما خَفَّت إليه جيوشٌ من ألمانيا وفرنسا ولُمبارديا ، وزحفَ بهم إلى البيرانييه .

كان شالمانُ واثِقًا من أنَّ الأهلِينَ سَرعانَ ما ينضَمُّونَ إليه فى مَسيرِه ، ولكن أخطأَ حَدَسُه ، فقد ثارَ المسلمونَ فى وجهِه ، وقاتلوه قِتالاً مريرا .

وتكشَّفَ له أنَّ الأُمراءَ إنّما استعانُوا به لينالُوا استقلالهم ، لا ليستَبدِلُوا عبدَ الرَّحمنِ بشارلَمان .

وثارَ مسيحيُّو الجبالِ عليه ، فقدْ عَقَدُوا العَزْمَ على ألاَّ يخضَعُوا لحكمٍ أجنبيٍّ أيًّا كان ، فما وصلَ شارلمانُ إلى البيرانيه ، حتى وجدَ نفسَه مُحاطًا بالأعداء .

تحصَّنَ عبدُ الرَّحمن فى سَرَقَسْطة ، فتكَسَّرَت عليها هجماتُ شارلمان ، وأخفقَ فى الاستيلاء عليها ، وبينما شارلمانُ فى حربه ، إذ جاءَه الصَّرِيخُ بأنَّ أمَّةَ السَّكسونِ أبتْ أن تَتْرُكَ وثنِيَّتَها ، وبأنَّها هبَّتْ للقِتال ، فاضطُرَّ شارلمانُ إلى مغادرةِ إسبانيا .

٦

كان عبدُ الرَّحمن فى كفاحٍ دائِم ، لتوطيدِ ملكِه ، الذى أسَّسَه بقوَّةِ ساعِدِه وحُسنِ تدبيرِه . وكان يُضطرُّ إلى الشِّدَّةِ أحيانا ، ليُرهِبَ عدوَّه ، ولكنَّه كان حليمًا عاقلا ، مُحبًّا للعلوم .

لقدْ قَذَفَ نفسَه فى لُجَجِ المَهالِك ، لابتناءِ مجدِه ، فاقتَحَمَ جزيرةً شاسعة ، تتقسَّمُ جندَها العصبيات ،

فاحتالَ حتى أُسلسَ له قِيادُ الأمر ، وأسَّسَ دَولةً مَرهُوبَةَ الجانب ، يخشاها الفِرنج ، ولا يجرُؤُ على مُناوَأتِها خُلَفاءُ بغداد .

وقد أُعجبَ أبو جعفر المنصورُ به ، على الرَّغم مما كان بينهما من عداوة ، فكان يسمِّيه « صقرَ قُريش » ، لمَّا رأى أنَّه فَعَلَ بالأندلُس ما فعل ، وأنه نهَدَ إليها من أنأى دِيارِ المَشرِق ، من غَيرِ عِصابةٍ ولا أنصار ، فغلَبَ أهلَها على أمرِهم ، وتناوَلَ المُلْكَ من أيديهم ، بقُوَّةِ شكيمة ، ومُضِيِّ عَزْم ، حتى انقادَ له الأمر .

وماتَ « صقرُ قُريش » عبدُ الرَّحمنِ بنُ معاويةَ ابن هِشام ، بعدَ أن أسَّسَ مُلكًا جديدا فَريدًا لبنى أُميَّةَ فى الأندَلُس ، وقدِ استَخلَفَ بَعدَه ابنَه هِشامًا .

كان عظيمًا ، وكان جَليلا ، حتَّى إنَّ أعداءَه ترحَّمُوا عليه يوم أن مات .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

عودة العرب إلى غزو فرنسا

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

ماتَ عبدُ الرَّحمنِ الدّاخل ، ذلك الرجلُ الطويل النّحيلُ الأعور ، الّذى أَسَّس بعزيمتِه مُلكا عريضا لبنى أُميَّة فى الأندلُس ، بعد أن زالَ مُلكُهم من المشرِق . واستخلفَ عبدُ الرَّحمن ابنه هِشامًا من بعدِه ؛ وكان عبدُ الرَّحمنِ كثيرا ما يسألُ عن ابنيْه : سليمانَ وهِشَام ، فيُذكَرُ له أنَّ هِشامًا إذا حضَر مجلسًا امتلأَ ذلك المجلسُ أدبًا وتاريخًا وذِكرًا لأمورِ الحرب ومواقِف الأبطال ، وإذا حضر سليمان مجلِسا ، امتلأ سُخفا وهذَيانا ، فيكبُر هِشامُ فى

عينيْه ، بمقدارِ ما يصغُر سليمان .

كان سليمانُ أكبرَ أبنائِه ، وكان يُحبُّ له الرشاد . ولكن سليمانَ كان فارغا ، لا يميلُ إلاّ للّهو ، ولا يُحبُّ مجالسَ الأدب .

قال عبدُ الرَّحمنِ لهِشامٍ يوما :

ــ لمنْ هذا الشّعر ؟

وتعْرِف فيه من أبيه شمائلا	ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُرْ
سماحَةَ ذا مع برِّ ذا ووفاءِ ذا	ونائل ذا إذا صحا وإذا سَكِرْ

فقال هشام :

ــ ياسيِّدى هو لامرىء القيس ، ملكِ كِندة ، وكأنّه قاله فى الأمير ــ أعزَّه اللّه .

فضمَّه أبوهُ الأميرُ فرِحا ، وأمرَ له بإحسانٍ كثير .

وقال لسليمانَ على انفراد :

ــ لمنْ هذا الشعر ؟

وأنشدَه البيتين .

فقال سُليمانُ فى زِراية :

ـ لأحدِ أَجلافِ العرب ، أما لى شـغلٌ غـيرُ حفـظِ أقوالِ بعضِ الأعرابِ ؟!

فأطرقَ عبدُ الرَّحمن ، وراح يرقُب ولَديه ، فـأيقَنَ أنَّ هِشامًا أفضلُ للإمارةِ مـن سـليمان ، فـأوصى لـه بالإمارةِ بعدَه .

٢

صـار هِشـامٌ أمـيرَ الأندلـس ، فمــا كــان حُكّـامُ الأندلُس يتلقّبون بأمـيرِ المؤمنـينَ فـى ذلـك الوقـت ؛ لأنَّ الخليفـةَ العبّاسِـىّ ، المـتربِّعَ فـى كرسـىِّ الخِلافـة

ببغداد ، كـان أمـيرَ المؤمنـين ، وكـان يُخْطَـب باسمِـه على المنابِر .

كان هشامٌ أبيضَ أشهب ، مُشـرَبًا بحُمـرة . بعينيـه حـوَل ، عـاقلاً حازمًـا ذا رأىٍ سـديد ، مُحبًّـا لأهـلِ الخيرِ والصَّلاح ، راغبًا فى الجهادِ . اتَّبع سُنَّةَ العـدلِ فى رعيَّتِـه فأحَبَّته ، وراح يتّبـع فـى سياسةِ مُلكِـه ، سياسةَ عمـرَ بـنِ عبـد العزيـز ، فكـان يبـثُّ العيـونَ والأرصادَ بينَ القُرَى والأمصار ، ليُخبروه بمتجدِّداتِ الأحوال ، حتّى يقومَ بما يجبُ لها .

وجـد أولَ مـا اسـتولى علـى المُلـك ، أنَّ الفتـنَ منتشـرةٌ فـى البـلاد ، وأنَّ عصبيَّـةَ الجاهليـةِ الأولى ، لا زالتْ تُسيطِر على المجتمعِ الإسلامىِّ فى الأندلس ، فالـبربرُ فـى عـداوةٍ مـع العـرب ، والعـربُ أنفسُـهم

منقسمونَ إلى يمانيّينَ ومُضريِّين ، والقلوبُ متنافرة ، فعزمَ على أن يؤلِّفَ القلوبَ بالجهاد ، وأن يُعيدَ إلى مملكتِه ما نقص منها من غاراتِ ببين وشارْلمان .

وذاع بين العامَّةِ أن المُسلمينَ لا يقدِرونَ إلاّ على قِتَالِ بعضِهم بعضا ، وأفتى بعضُ الفقهاءِ بأنّه لا يجبُ دفعُ الخرَاجِ لأمراءَ لا يعرفون أن يُقاتلوا إلاّ أمَّةَ محمد ، فلم يُغضِبْ ذلك هِشاما ، بل وجدَ فيه خدمةً لأغراضِه ، فأعلنَ الجهاد ، وأمرَ النَّاسَ أن ينفِروا إلى جبال البيرانيه ، ليستَعيدوا الأراضيَ الّتى خلّصها منهم ملوكُ فرنسا .

وقرىءَ منشورُ الأميرِ بالدَّعوةِ إلى الجهاد ، وتحبيبِ النّاسِ فيه في الجوامع ، فثارتْ حميَّةُ النَّاس ، وانطلقوا إلى الجهاد ، وقد طُويت العداوات ، الّتى

كانوا يَكنّونَها بعضُهم لبعضٍ فى صدورِهم .

واجتمع المُجاهدون ، وكان عددُهم كبيرا ، ولكنّه لم يبلغْ مثلَ الأعدادِ الكبيرة ، التى كانت تنفِرُ أيامَ الغزواتِ الأولى ، لأوّلِ الفتح ، فقد انقطعتِ الأندلس عن العالَمِ الإسلاميّ الخارجى ، ولم يعدْ راغبو الجهادِ من الشَّامِ أو مصرَ أو المغرِب ، بقادرينَ على أن يَنْفِروا مع إخوانِهم المجاهدينَ فى الأندلس ، لنُصرةِ دينِ اللّه ، وإعلاءِ كلمته .

٣

انطلق الجيشُ الإسلاميُّ بقيادةِ الوزيرِ عبد الملك ابن عبدِ الواحدِ بن مُغِيث ، إلى كتالونيا ، لينقضَّ منها على فرنسا ، ويجتاحَ أراضيها .

دخلَ العربُ فرنسا ، سنة ٧٩٣ م ـ ١٧٧ هـ ، وكانت جنودُ أكتيانيةَ غازيةً فى إيطاليا ، بقيادةِ لويسِ ابنِ شارلمان ؛ فانطلقَ المسلمونَ إلى أُربونة ، وفتحوها ، وصالحوا أَهلَها على أن ينقُلوا التُّرابَ من سورِ أُربونة ، إلى باب قصرِ الأميرِ بقرطبة ، ليُتمَّ منه مسجدَ قُرطبة ، الّذى بدأ أبوهُ فى بنائِه ، فقد كان الأمراءُ يفخرُونَ بأنَّ المساجدَ إنّما بُنيتْ من الجِهاد .

وزحفَ المُسلمونَ إلى قرشونة ، فاستنفرَ غليوم ، وكيلُ لويسَ بنِ شارلمان أثناءَ غيابه ، أمراءَ المملكةِ وفرسانَها ، فأقبلَ المسيحيّونَ يحملونَ سِلاحَهم من كل حدبٍ وصوْب ، ليُدافعوا عن فرنسا ، وعن دينِهم ، المسلمينَ الّذين جاءوا يحمِلونَ رسالةً جديدة .

والتقى الجمعانِ على ضفافِ نهرِ « أوربير » ، بين قرقشونةَ وأُربونة ؛ ودارت معرَكةٌ رهيبة ، استبسل فيها الكونت غَليوم ، ولكن ذهبَ استبسالُه سُدىً ، فقد انتصرَ المسلمون ، وتقهقرَ الفَرنسيُّون منهزمين ، وغنِم المسلمونَ غنائمَ لا تُحصى .

وسقط أحدُ قوادِ المسلمينَ صريعًا فى هذه المعرَكة ، مما جعل المسلمين يكتفونَ بهذا النَّصر ، وبما وقع فى أيديهم من سَبْى ، ولم يقتفوا أثر المنهزمين ، ليقضوا عليهم .

٤

وانتشرتْ أنباءُ هذا الانتصار ، فخرج النّاسُ لاستقبالِ الجيشِ المظفّر ، فرحينَ مسرورين ، فقد طال عهدُ النّاسِ بالنّصر ، منذ تلك الانتصاراتِ الأولى ، الّتى أحرزها طارقٌ وموسى ، وصناديد المسلمين .

وفرِح هشامٌ بذلك الفَتْح ، وباندحارِ جيشِ فرنسا أمام جيوشِه ، فسجدَ للّه شكرا . وأصابَ خُمسَ الغنائم ، فبلغَ خمسةً وأربعينَ ألفَ مثقالٍ من الذّهب ، راح يُتم به جامعَ قُرْطبة ، الّذى كان أبوه قد شرع فى بنائِه .

كان عبدُ الرَّحمنِ الدّاخلُ بدأ جامعَ قُرْطُبة ، من غنائمِ الحروب ، فزادَ ذلك فى حُرمةِ الجامع فى نظرِ المسلمين . فلمّا بنى هِشامٌ القسمَ الجديدَ من الجامع ، وجدَ المسلمينَ لا يُصلّونَ إلا فى القسمِ القديم ، فسألَ عن السَّبب ؟ فقيل له :

ـ لأن هذا القِسمَ بُنى من غنائِمِ الجهاد .

فقال هشام :

ـ والقسم الجديدُ بُنىَ من غنائِم الجهاد أيضا .

٥

وراحَ هِشامٌ يهتمُّ بتعميرِ الأندلس ، فجدّد قنطرةَ قُرطُبة ، الّتى كانت مضرِبَ الأمثالِ فى الرَّوعةِ والهندسة ، وكان قد بناها السَّمحُ بنُ مالك ، عاملُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ على الأندلس .

وأحكم هشامٌ بناءَها ، وقال يوما لأحدِ وزرائه :

ـ ما يقولُ أهلُ قرطبةَ عن القنطرة ؟

قال الوزير : « يقولون ما بناها الأميرُ إلاّ ليَمضىَ عليها إلى صيدِه وقَنْصه » .

كان هِشامٌ زاهدا ، ورِعًا تقيًا ، فساءَه ذلك ، وأقسمَ ألا يَسْلُك عليها . ووفّى بما حَلفَ عليه ،

فلم يمرَّ عليها بَعْد .

وتُوفِّىَ رجلٌ فى عهدِه ، وكان قد وصَّى أن يُفكَّ أسيرٌ من المسلمينَ من تركتِه . فطلب ذلك ، فلم يوجدْ فى دار الأعداءِ أسيرٌ مسلمٌ يُفتَدَى ، لقوّةِ المسلمين ، وضعفِ أعدائهم .

٦

استتبَّ الأمرُ لِهشامٍ وعلا ذكرُه ، وعَهِد بالأمرِ من بعدِه إلى ابنِه الحكَم . ولم تقرَّ عينُه ، فقد كان يخشى ثورةَ أخويه سليمانَ وعبدِ الرَّحمن بابنه . إنَّ سليمان أظهرَ عليه الخِلافَ بطُليطلة ، يومَ تولّى الأمر ؛ ولحِق به أخوه عبدُ الرَّحمن ، فحاربَه وظَفِر به ، حتى دَخل فى طاعتِه . ولكنّه ما لبِثَ أن عادَ إلى خلافِه ، فحاصره بتُدْمِير . فطلب سليمانُ من هشامٍ العبورَ إلى عُدْوةِ البربرِ بأهلِه وولدِه ، فأجازَه وأعطاهُ مالاً جزيلا ، وأقامَ بعُدْوَةِ المغرب . فما يُدريه إذا مات وأصبحَ الأمرُ للحكم ، أن يلتزِمَ سُليمانُ الطّاعة ،

ولايثورَ على ابنه ؟ كانت هذه الأفكارُ تطوف برأسِه ، ولكنّه ما كان بقادرٍ على أن يفعلَ شيئا .

كان هشامٌ قد بعث فى استدعاءِ المُنجِّمِ الضَّبِّىّ ، من وطنِه : الجزيرةِ الخضراءِ ، إلى قرطبة ؛ وكان ذلك فى أوَّل ولايتِه ، فلما أتاهُ خلا به ، وقال له :

ـ يا ضَبِّىّ ! لستُ أشكُّ أنه قد عَنَاك من أمْرِنا ، إذ بلغَك ما لم نَدَعْ تحديدَ النَّظرِ فيه ، فأنْشُدُك اللّهَ ألا ما نبَّأتنا بما ظهر لك فيه .

واعتذرَ المنجِّمُ بأنّه لم يرصُدْ نجمَ الأمير ، فطلب منه أن يفعل ؛ ثم أحضره بعد أيّام ، فقال له :

ـ إنَّ الّذى سألتُك عنه جِدٌّ منى ، مع أنّى واللّه ما أثِقُ بحقيقتِه ، إذ كان من غيبِ اللّه ، الّذى استأثر به . ولكنى أُحبُّ أن أَسمعَ ما عندَك فيه ، فالنَّفسُ طُلَعَة .

فقال المنجم :

ـ اعلم أيُّها الأمير ، أنَّه سوفَ يستقِرُّ ملكُك ، سعيدًا جَدُّك ، قاهرًا لمن عاداك ؛ إلاَّ أن مُدَّتَك فيه فيما دلَّ عليه النظر ، تكونُ ثمانيةَ أعوامٍ أو نحوَها .

فأطرق هِشامٌ ساعة ، ثم رفعَ رأسَه ، وقال :

ـ يا ضَبِّيّ ، ما أخوفَني أن يكون النَّذيرُ كَلَّمني بلسانِك . واللّهِ لو أنَّ هذه المدَّةَ كانت في سجدةٍ للّهِ تعالى ، لقلْت طاعة .

وكأنَّما النَّذيرُ كلَّمه بلسانِ الضَّبِّيّ ، فقد مات هِشامٌ بعد ثمانيةِ أعوامٍ من ولايتِه ، وقد خلَّف الأندلسَ لابنِه الحكم .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الحكم بن هشام

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

كان الحكَمُ فى أوَّلِ عهدِه ماجنا ، يجهَرُ بالمعاصى ، ويَسْفِكُ الدِّماء ، ويقتُلُ العُلماء . وكان مجونُـه يبلغُ أحيانًا درجةَ الجُنون ؛ فكان يُمسك أولادَ النّاسِ ويَخْصيهم ، وهو يُقهقِه غِبطةً وانشراحا .

ووجدَ عَمَّاه سليمانُ وعبدُ الرَّحمنِ الفُرصةَ سانحة ، لتأليبِ الشعبِ عليه . فثارا عليه ، وأيدَّ ثورتَهما أنَّ أهلَ الربضِ من قُرطبَة ، ثاروا به وخلعوه ، وبايعوا عمَّه . فجمعَ الحكمُ جيوشَه ، وخرج لِقتالِ الثائرينَ بنفسه ؛ فانتصرَ عليهم ، وهدَم دُورَهم ومساجدَهم ؛ ففرَّ بعضُهم ، ولحِقوا بناسٍ من إفريقيَّة ، وكان على أيدى هؤلاءِ المجاهدين فتحُ

جزيرة كريت (أقريطِش) .

وفرَّ عمُّ الحَكمِ إلى شارْلمان ، ودخلَ عليه فى مدينةِ إكسلا شابِل ، وطلبَ منه النَّجدة . وفى نفس الوقت ، حينما كان لويسُ بنُ شارْلمان ، ملكُ أكتيانا ، عاقدا مجمعًا فى طُلوزَة ، جاءه رسولٌ من الأذفونْش مَلكِ جلِّيقيَّةَ وأشتورية ، يَلتَمِسُ حشدَ جميع القُوَّاتِ المَسيحيَّة ، لقتالِ المُسلمين .

ولاحَ أنَّ الفرصةَ سانحةٌ للثَّأرِ من المُسلمين ، ودخولِ أسبانيا . فراح لويسُ ملك أكتيانا وأخوه كارل ، يشُنّانِ الغارةَ على أطرافِ المُقاطعاتِ التى تشربُ من نهر إبْرُه ، وانطلق لويسُ حتّى اجتازَ البيرانيه من جهةِ أَرَغون ؛ وفى ذلك الوقتِ وضعَ عبدُ الرَّحمن ، عمُّ الحَكَم ، يدَه على طُلَيْطُلَة ،

واستقرَّ عمُّه سُليمانُ فى بَلَنْسيَة .

خرج الحَكَمُ بنفسِه إلى البيرانيه ، وبعثَ جيشًا آخر لقتالِ عمِّه ، فاستولى على بَرْشِلونة ، وغيرِها من المدنِ الّتى أعلنَتِ العِصيان . ثمَّ قصدَ إلى الجبال ، وأوقعَ بالمَسيحيِّين ، وسَبَى منهم خلْقًا كثيرا ، واتّخذ من أَسْراهُ حرَسًا خاصًّا ؛ فكان أوّل أمراءِ قُرْطُبة الّذين اتّخذوا حرسًا خاصًّا من الأجانب .

٢

كان الحكَمُ أوّلَ من جعَل للمُلكِ بأرضِ الأندلسِ أُبَّهة ، واستَعدَّ بالمماليك ، حتّى بلغوا خمسةَ آلاف ، منهم ثلاثةُ آلافِ فارِس ، وألفا راجل . وكان أوّلَ من جنّدَ الأجناد ، واتّخذ العُدَّة . وكان أفحلَ بنى

أميَّةَ بالأندلُس ، وأشدَّهم إقدامًا ونخوة ، حتى إنّه كان يُشَبَّهُ بأبى جعفر المنصور ، فى شدَّةِ المُلك ، وتوطيدِ الدولة .

رأى أن يَقْضِيَ على مُناوئيه ، فراح يُقاتل عمَّه سُليمان ؛ ولم يهدأْ حتى قُتِل عمُّه فى إحدى المعارك . وتفرَّغ لعمِّه الآخر ، فما زال يُقاتله حتّى فرَّ عمُّه إلى إفريقيَّة ، وعادت طُلَيْطُلَةُ إلى الطّاعة .

وكانت بَرْشِلونةُ لقربِها من فرنسا ، من أشدِّ البلادِ نِكايةً بالفَرَنْسيّين ؛ فكان يخرجُ منها فُرسانُ المُسلمين ، على خيولِهم السريعة ؛ ينقَضّون على المُدن الفَرَنْسِيَّة ثمَّ يعودونَ بالغنائِم والأسلابِ والأسرى . فاتّفق لويسُ ملكُ أكتيانا ، وغليومُ كونت طلُوزة ، عى الاستيلاءِ على بَرْشِلونة ؛ وكان

شارلمانُ فى رومةَ مشغولا بتتويجه إمبراطورًا على الغرْب .

كانت بَرْشِلونة حِصنا منيعا للعرب ، فحاصرها الفرنسيّونَ سنتيْن ، وضيَّقوا عليها الحِصار ، ولكنّها صمدتْ فى وجهِ المهاجمين ، وعزَّ عليهم أَخْذُها .

وقسَّمَ الإِفْرِنجُ أنفسَهم ثلاثةَ أقسام : قسمٌ منهم راحَ يُهاجم برْشِلونة ، وقسمٌ ثانٍ يقودُه غليوم كونت طُلوزَة ، كان يُرابط فى الممرِّ الَّذى تتدفّق منه جيوشُ الحكَم ، الوافدةُ من قرْطبةَ لنجدةِ المدينةِ المحاصَرَة ؛ وقسمٌ ثالثٌ يقودُه الملكُ لويسُ نفسُه ، وكان فى أعالى جبالِ البيرانيه ، يحملُ على المسلمين كلمّا سنحتْ له الفرصة .

وتقاسمَ الإِفرنجُ أعمالَ الحصار : فراحَ بعضُهم

يضعون السَّلالم على الحصون ، وأخذ آخرونَ يجلبونَ الميرةَ والماء ، وجعلَ آخرونَ يحفِرونَ وينقُبون الجُدران ، فاشتدَّ الحِصارُ وأُحكم ، وجاءتْ جيوشُ المُسلمينَ فعجزتْ عن الاتّصالِ بإخوانهم المحصورين فى بَرْشِلونة ، فتحولت إلى بلادِ أَشْتُورِية ، وهزمتْ أهلَها ، واستولتْ عليها .

ووقفَ أميرُ برشلونَة وحدَه ، فى وجهِ القُوَى المتَألِّبَةِ عليه ، المتجمِّعةِ على قتاله . وخرج فى إحدى المعارِك لقتالِ هؤلاءِ الَّذين أخذوا يُضيِّقونَ الْخِناقَ عليه ، فسقطَ أسيرا ، وحملوا على المدينةِ حملةً صادقة ، فسقطتْ بَرْشِلونَة ، والحَكَمُ مشغولٌ عن نجدتِها ، فإخمادِ الفِتَن الّتى كانتْ ثائرةً ضدَّه ، داخلَ بلادِه .

استولى الإِفرنجُ على بِرْشِلونَة ، بعد أن بقيتْ تسعينَ سنةً فى أيدى المسلمين . فلمّا دخلوها حوَّلوا

جوامعَها كنائس ، وبعثَ الملكُ لويسُ إلى أبيه شارلمانَ من الغنائمِ دُروعًا وخُيولاً عربيَّة . وبسقوطِ برشِلونَة ، أصبح لفرنسا مِنْطَقتان فى شمالىِّ أسبانيا : كتالونْيا وقاعدتُها برشِلونة ، وغَشقونية ومن جملتِها نابارَة وأراغون .

٣

كانتِ المنافسةُ على أشُدِّها بين خُلفاءِ بغدادَ وأمراءِ قرطبة ؛ كانت منافَسةً تتّسم بالأنانيَة ، والمصلحةِ الخاصَّة ؛ فكانتْ مصالحُ الإسلامِ والمُسلمينَ تضيعُ فى سبيلِ مجدٍ شخصىٍّ زائل ، أو من أجل نكايةِ أميرٍ لأمير .

ففى السَّنة الَّتى سقطتْ فيها بَرْشِلونة ، مَعقِلُ المسلمينَ الحصين ، أوفدَ هارونُ الرَّشيد ، خليفةُ المُسلمين ، وفدًا إلى شارلمان .

كان شارلمانُ قد بعثَ إلى هارونَ الرشيدِ رسولاً يهوديّا ، ومعه اثنانِ من الفَرنسيِّين ، للسَّلامِ على الخليفةِ العبّاسىّ . وأمر شارلمانُ ذلك الوفدَ بأن يمرَّ بالقُدْسِ قبلَ ذهابه إلى بغداد ، وأن يتعهَّد أحوالَ حُجّاجِ بيتِ المقدِس ، وأن يلتمسَ من الخليفةِ تيسيرَ زيارةِ الحُجّاجِ لبيتِ المقدِس . وكان الفَرنسيّونَ منذ عهدِ أنّيبالَ لم يَروْا فى بلادهم فيلا ، فكان على الوفدِ أن يجلبُوا معهم فيلا ، ليراهُ أهلُ فرنْسا .

ووصل الوفدُ إلى بغداد ، فاستقبله الخليفةُ استقبالاً رائعًا ، وأنفَذ له كلَّ طلبِه ، حتّى الفيلَ أرسلَه مع وفدٍ من عندِه ، يحملُ الطيبَ والهدايا ، ويدخُل إكسلا شابل ، مقرِّ الإمبراطور ؛ حاملاً مودَّةَ الخليفة ، التى يضعُها فوق مودَّةِ جميعِ الملوك ، وكان

ذلك في نفسِ السَّنة التي سقطتْ فيها بَرْشِلونة .

٤

كانت طُليطُلَةُ في ثورةٍ دائمة ، فما كان يهدأُ لها حال ، وكان أغلبُ سكّانِها من الأسبان ، فراح الحَكَمُ يفكّر في أمرِها ، فرأى أن يأخذَهم بالحيلة ، حتى يقضِيَ على ثورتِهم ؛ فكتب إليهم : « إنَّ أعظمَ دليلٍ على اهتمامِنا بأمرِكم ، أنَّنا باعثونَ إليكم واليًا من أبناءِ جنسِكم » .

وبعث إليهم عُمروس ، وكان مولّدا ، أبوه مُسلم وأمُّه من الأسبان . وكان الحكم قد اتّفقَ معه على أمر ، فانطلق عُمروسُ إلى طُلَيْطُلَة ، وأظهرَ للثّائرين أنّه ثائرٌ مثلَهم ، وأنّه يرقُب أوَّلَ فرصةٍ ليخلعَ طاعةَ الأميرِ الحكم ، ويَستقلَّ بالبِلاد . وصار يُردِّد ذلك

القول ويهمسُ به ، ويُوسوِسُ لهم بالنِّيَّات ، حتى وَثِقُوا به ، وأسلَموا له قِيادَهم .

واتّفق معهم على بناءِ قلعةٍ في أعلَى البلدة ، تكونُ المعقِلَ الأمينَ لهم ، إذا ما دهمتهُم جيوشُ السُّلطان . وبُنى الحصن ، ونزل به عُمروس ، ثم راح ينفِّذُ ما اتفق عليه مع الأمير .

وبعثَ إلى الأميرِ أن يُرسلَ جيشًا إلى طُلَيطُلَة ، بحُجَّةِ أنَّ العدوَّ تحرَّكَ بالثُّغور ، فأرسلَ الحكَمُ جيشا بقيادةِ ولدِه عبدِ الرَّحمن ، وكان في الرابعةَ عشرةَ من عمرة . فلما وصلَ الجيشُ إلى طُلَيطُلَة ، أطلقَ عمروس إشاعةً تقولُ إنَّ العدوَّ قد انسحب ، وأنَّ جيشَ الأميرِ سيعود إلى قُرْطبَة . ولَما صدَّق النّاسُ هذه الشائعة ، أشارَ عُمروسُ على أعيانِ طُلَيْطُلَة ،

بأن يقدُموا للسَّلام على الأميرِ عبدِ الرَّحمن .

وأولم عُمروسُ وليمةً هائلةً فى الحِصن ، فتقاطَرَ المدعُوّون ، وراحوا يهبِطون عن ركائِبهم ، ويَدْلُفون إلى الحِصن فى أبَّهةٍ وجلال . وكان يستقبلُهم فى ساحةِ الحِصن جَلّادون قد شَهروا سيوفَهم ، يقطعونَ رقابَ الوافدين ، ويُلقون بها فى الخندق .

ولحظ طبيبٌ من أهلِ طُلَيْطُلَة عدمَ خروج المدعوّين ، فراح يسألُ النّاس :

ـ هل رأيتُم أحدًا من المدعوّين فى الحِصن قد خرج منه ؟

ـ لم نَرَ أحدا ، فقد يكونونَ دخَلوا من هذا الباب ، وخرجوا من البابِ الآخر .

فقال الطبيب : « بل لن يخرُجوا أبدا » .

وسكَنتِ الأمورُ فى طلَيْطُلَة ، ولم تقمْ فيها بعد ذلك ثورَة .

٥

لم يتمتعِ الحكَم طويلاً بالرّاحةِ الّتى لاحتْ لعينيه أوَّل ما تولّى الحُكم ، ولم يستطِعْ أن يستمرَّ فى عبثِه ومُجونه ، فقد ألفَى نفسَه مُحاطًا بأعداءٍ يتربَّصون به ؛ وفى قلبِ مملكتِه خوَنة ، سَرْعانَ ما يُهْرَعونَ إلى شارْلمان يستعْدُونَه عليه ؛ فخلعَ رِداءَ المُجون ، وارتدَى ثوبَ الجِهاد ، وراحَ يُقاتل فى السُّهول والجبال ، يوطِّدُ مُلكَ بنى أُميَّة .

وأغار على نابارة وبنبلونة ، ودخل وَشْقَة ، وانقضَّ على عاملِه الذى انضمَّ إلى شارْلمان يسيرُ بين يديه ، فقتله ، واحتزَّ رأسَه ، وعاد إلى قُرْطُبَة مُظَفَّرا

منصورا ، مرهوبَ الجانب .

وذهب العبَّاسُ الشّاعرُ إلى الثّغر ، فلما نزل بوادى الحِجارة ، سمع امرأةً تقول :

- واغَوْثاه بك يا حَكَم ، لقد أهملْتَنا حتى كَلَبَ العدوُّ علينا ، فأيَّمنا وأيتَمنا .

فقال لها العبَّاس : « ما بك ؟ » .

- كنتُ مقبلة من الباديةِ في رُفْقة ، فخرجتْ علينا خيلُ عدّو ، فقتلتْ وأسرت .

ودخل العبَّاسُ على الحَكَم ، ووصف له خوف الثّغر ، واستصراخَ المرأةِ باسمه . فنادى فى الحينِ بالجهادِ والاستعدادِ ؛ فخرجَ بعد ثلاثٍ إلى وادى الحجارة ، وسأل عن الخيلِ الّتى أغارت من أىّ أرض العدوّ كانت ؟

فغزا الناحيةَ الّتى خرجتْ منها الخَيل ، وأثخنَ فيها ، وفَتح الحصون ، وخرَّب الدِّيار ، وقَتل عددًا كثيرا . وجاء إلى وادى الحجارة ، فأمرَ بإحضارِ المرأة ، وجميعِ من أُسر له أحدٌ فى تلك البلاد ، وأمر بضربِ رقابِ الأسرى ، ثم قال للعباس :

- سلها هل أغاثَها الحكم ؟

فقالت المرأة :

- واللّه لقد شَفَى الصدور ، وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه اللّه ، وأعز نصره .

فارتاحَ الحكَمُ لقولها ، وبدا السُّرورُ فى وجهه ، وقال :

ألْم ترَ يا عبّاسُ أنّى أجبتُها
على البُعد أقتادُ الخميسَ المُظفّرا

فـأدركتُ أوطـارًا وَبرَّدْتُ غُلَّةً

وَنَفَّستُ مكروبًا وأغنيتُ مُعسِرا

فقال العباس :

ـ نعمْ ، جزاكَ اللّه خيرا عن المسلمين !

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

العرب في كريت

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

أنوارُ قصرِ قُرطُبة تتألّق ، وأصواتُ المُغنّياتِ تـتردَّد في أرجائِه ، والجارياتُ في إقبالٍ وإدبارٍ كالأقمـار ، وكئوسُ الخمْرِ تُفْرَغُ في البُطون ، وشبابٌ فارغٌ يملأُ القاعة ضجيجًا وعَجيجا . والحكَمُ بن هِشامٍ ينهَلُ من اللّذات ، وهو غافِلٌ عمّا يعملُ في صدورِ أحرارِ الأندلُسِيّين من ثورةٍ وضِيق ، فهم يُشفِقُونَ على هذا المُلكِ الذى أسَّسُوهُ بدمـائهم ، ويخشَونَ أن يتحمَّلَ المسلمونَ نتائِجَ عَبَثِ الحكَمِ ولَهوِه . كانوا يطمَعُون في أن يسيرَ بهم إلى الأرضِ الكبيرة ؛ إلى فرنسـا وإيطاليا وألمانيـا ، ليُذكَر اسمُ اللّه فيها في الغُدُوِّ والآصال ؛ فإذا به يهجُر الجِهـاد ، ليُقبِلَ على الكَواعِبِ النّاهِدات .

آه لو سارَ إلى عدُوِّهم ، لألْفاهُم ليوثًا كَواسِر ، لا هَمَّ لهم إلاّ أن يُستَشهَدُوا ، أو يفتَحَ اللّه عليهم أرضًا جديدة ، أمَّا وقدْ قَعَدَ عن الجهاد ، فحقٌّ عليهم جِهادُه ليثوبَ إليه رُشدُه ، أو يَنزِعُوه عن ملكِه .

واجتَمَعَ في الرَّبَضِ من قُرطُبةَ أعيان الفُقَهاء : يَحيَى بنُ يحيى اللّيثيّ صاحِبُ مالِك ، وطالوتُ بنُ عبد الجَبّار الفقيه ، وأبو حَفْصٍ عمرُ بنُ شُعَيب البَلُّوطيّ ، وأهلُ العِلمِ والوَرَع ؛ وراحُوا يُدِيرُونَ قِداحَ الرَّأى بينَهم ، فاستَقَرَّ أمرُهم على أن يثورُوا على الحكَم ، وأن يَخْلَعُوه ويُوَلُّوا عليهم أميرًا آخَر ، من قَرابَتِه ، يحمِلُ المسلمينَ على الجِهاد ، ورفعِ ألوِيةِ الدِّينِ خفَّاقَةً في العالَمين .

وانْطَلَقُوا في الرَّبض ، يُحرِّضُونَ النّاس على الأميرِ الذى انهمَكَ في لذّاتِه ، ويُؤَجِّجُونَ في صُدُورِهم

نارَ الثَّورة ، حتّى اندلَعَ لهيبُها ؛ وإذا بآلافٍ منهم يُقرِّرُونَ خلْعَ الأميرِ المُنصرِف عن سُنَنِ آبائِه .

وطارَتِ الخمرُ من رأسِ الحَكَم ، بعدَ أن لَقِيَ قَوائِمَ عرشِه تكادُ تندَك ، فعزَمَ على أن يخرُجَ بنفسِه لتأديبِ الثّائِرين ، فأقبَلَ عليه ابنُه وكبارُ قُوَّادِه يتوسَّلُونَ إليه :

ـ لا تُغامِرْ بنفسِك ، ابعثْ إليهم الجُيوش .

ـ لنْ يخرُجَ إليهم أحَدٌ غيرِى .

وخَرَجَ الحَكَمُ إليهم على رأسِ جَيشٍ عظيم ، ودَارَتْ فى الرَّبض معركةٌ رهيبة ، سالتْ فيها دماءُ المسلمين ، وامتلأَتِ الشَّوارِعُ بجُثث القَتلَى ، وانكسَرَ أهلُ الرَّبض ، فألقَى الحكمُ القَبضَ على ثلاثِ مائَة منهم ، وصَلَبَهم على النَّهر ، ثمَّ خَلَّى بينَ جُنودِه وبينَ الحَىّ ، وأمَرَهم ألاَّ يتعرَّضُوا للنِّساء .

أعْمَلَ الجنودُ السَّيفَ فى الثُّوّار ، وهَدَمُوا دُورَهم ومساجدَهم ، وسلبُوا ما فيها من مالٍ ومَتاع . ونَزلَ بالثُّوّارِ كَربٌ شديد حتّى إذا ما وافى اليومُ الثّالث ، عفَا الحَكَمُ على مَن بَقِىَ منهم ، على أن يُغادِرُوا البلادَ مع أُسَرِهم ، فراحُوا يتأهَّبُونَ للرَّحِيل .

٢

امتلأَتِ المَراكِبُ برجالٍ مُطَأطِئِى الرُّءُوس ، ونساءٍ تغسِلُ وجوهَهُنَّ الدُّموع ، وأطفالٌ مفزوعين مُرَوَّعين ، وقدْ وقَفَ بينَ هؤلاءِ الذينَ تصَدَّعَتْ قلوبُهم ، أبو حَفصٍ عمرُ بنُ شُعَيب البَلُّوطِىّ ، رافِعَ الرَّأس ، يُصدِرُ أوامِرَه إلى البَحَّارَة فى ثِقَةٍ وعَزْم ، كأنَّما كان خارجًا فى غَزْوَة ، لا طَرِيدًا لا يدرِى إلى أينَ يسير .

وفَصَلَتِ المَراكِبُ عن شواطِئِ الأندَلُس ، فارتَفَعَ النَّحيبُ والعَويل ، وشَرِقَ الرِّجالُ بدموعِهم ، حتَّى أبو حَفصٍ عمر بنُ شُعَيب ترقرقتِ العَبَراتُ فى مَآقِيه ، ولكنْ سرْعانَ ما كَبَحَ جِماحَ عواطِفِه ، ورفَعَ رأسَه ، فما للزَّعيمِ أن يَضْعُفَ أمامَ من وَثِقُوا

به ، وألقَوا إليه مقاليدَ أمورِهم ، ليُخرِجَهم من ظُلُماتِ الواقِعِ البَغِيض .

وشَقَّتِ المَراكِبُ عُبابَ الماء ، حتَّى إذا بَلَغَتْ بَرَّ العُدْوَة ، هَبَطَ منها ثمانيةُ آلاف ، حيثُ تقبَّلَهم إدريسُ بنُ إدريسَ فى فاس ، وانطلَقَتِ المَراكِبُ الأخرى تحملُ خمسةَ عشر ألفا ، يقودُهم أبو حفصٍ إلى المجهول . واستمرَّتِ المراكبُ فى انطِلاقِها ، لا لشىء إلا الماءُ والسَّماءُ وتسبيحُ المُسَبِّحين ، والابتهالُ إلى اللّه أن يُفرِّجَ عنهم ما هم فيه من كَربٍ شديد ، ولاحَتِ الإسكندريَّة ، فخفقَتِ القُلوبُ فى الصُّدُور ، واشرأبَّتِ الأعناق ، ودَبَّتْ فى المراكبِ الحياة ؛ فقدْ أصدَرَ أبو حفصٍ أمْرَه للرِّجالِ أن يتأهَّبُوا ، فقدْ قَرَّ رأيُه على النُّزولِ إلى الإسكندريَّة .

ودَخَلَتِ المَراكِبُ المَرفأ ، وطَفِقَ الرِّجالُ يقفزونَ إلى الأرضِ كالأسود ، وقدْ شهَرُوا أسيافَهم وكشَّرُوا عن أنيابِهم ، فلمْ يعُدْ أمامهم إلاّ احتلالُ الإسكندريَّة ، أو الموتُ دونَها .

وساحُوا فى الأرضِ ، وانتَشَرُوا فى أرجاء المدينة ، وما سَقَطَ اللَّيلُ ، حتى كان أبو حَفصٍ عمر بنُ شُعيبٍ البَلُّوطىّ الأندلُسىّ ، صاحِبَ الكلمةِ المَسموعةِ فى البَلدة .

أفزَعَ سقوطُ الإسكندريَّة فى أيدِى الأندلُسيِّين عبدَ اللّه بنَ طَلحَة ، صاحِبَ مصرَ للمأمونِ ابنِ الرَّشيد ، فجمَعَ جُموعَه ، ثمَّ انطَلَقَ إلى الإسكندرِيَّة ، ليَطرُدَ منها هؤلاء الغاصِبين ، الذين جاءُوا ليَزيدُوا فى متاعِبه ، كأنّما لم يكُن يكفيه تلك

الفتيةُ التى اجتاحَتِ البلاد ، وكادَت تعصِفُ به وبالخليفةِ الذى أرسَلَه .

وبلغَ الإسكندريَّة ، وحاصرَها ، ودارَ القِتالُ بينَه وبينَ رجالِ أبى حَفْص ، وكانَ قِتالاً رهِيبا ، يَشِيبُ من هَولِه الوَليد . وأطرَقَ عبدُ اللّه بنُ طلحةَ يفكِّر ، فألفَى أنَّه لو استَمرَّ فى قتالِ اليائِسين فَسَيوهِنُ جَيشَه ، وقد يُطمِعُ ذلك السَّاخِطينَ والمُترَبِّصِين ؛ فألفَى من الخَير مصانَعَتهم ، وأن يؤدِّى هم جانِبًا من المال على أن يُجلُوا عن الدِّيار . فأرسَلَ إليهم رُسُلَه ، وقَبِلَ أبو حفصٍ عمر بنُ شُعيبٍ الأندَلُسىّ ما عَرضَ عليه عبدُ اللّه بنُ طلحةَ من مال ، على أن يُجلُوا إلى جَزيرةٍ من جُزُرِ الرُّوم . وتأهَّبَ الرِّجالُ للرَّحيل ، وفى صُدُورِهم قَلق ، وفى نفسِهم مَرارَة ، وبينَ جَوانِحهم حَيرَة . خُيِّلَ إليهم أنَّ الدُّنيا قد سُدَّتْ فى

وُجُوهِهم ؛ ولولا ثِقَتُهم بزعيمِهم لاستولَى عليهم يأسٌ وقُنوط .

وراحَ أبو حفصٍ يُصْدِرُ أوامِرَه ؛ وفى وجهه ثِقةٌ وفى نفسِه أمَل ، وبينَ جَوانِحِه طُمأنينة . كان يرجُو إحْدَى الحُسنَيَين ؛ أن يَفتَح اللّه عليه أرضًا من أراضِى الأعداءِ أو يموتَ شهيدا .

وغادَرَتِ الإسكَندَرِيَّةَ أربَعونَ سفينة ، تَحمِلُ عَشرَةَ آلافِ مُقاتِل ، تَتَدَفّقُ فى عرقِهم دِماءٌ حارَّة ، وتَرتَسِمُ فى مُحَيَّاهُم قوّة العَزيمة .

ركِبَ المسلمونَ ثَبَجَ البحرِ كالمُلوكِ على الأسِرَّة ، وانسابَتِ المراكِبُ تحمِلُ المُجاهِدين ؛ حتى إذا لاحَتْ إقْرِيطِشْ (كريت) تحفَّزَ الرِّجال ، وقَبَضُوا على سيوفهم ، وانطلقتِ الصَّيحاتُ مُدَوِّيةً من الحناجر ، وطَفِقَ القُرّاءُ يقرءُونَ آياتِ الجِهاد ؛

فاستَشْعَرَ الرِّجالُ كأنَّ نِيرانَ الإقدام تتأجَّجُ فى صُدُورِهم ، وكأنَّ الكَونَ قد أُرهِفَ ليُسَجِّلَ آياتِ بطولاتِهم .

وأخَذَ الشاطئُ يقترِبُ رُويدًا رُويدا ، فارتَجَّ المكانُ بالتّهليلِ والتّكبير ، وخُيِّلَ لسُكّانِ الجَزيرةِ أنّهم يسمعُونَ زئيرَ الأسُود ، ففَرُّوا مُرتاعِين . وخَفَّتِ الحامِيةُ البيزَنطِيَّةُ إلى الشّاطيء ، تَصُدُّ المُغيرين ؛ ولكنَّ المسلمين راحوا يقفزون من المراكبِ إلى الأرض فى رشاقةِ الغِزلان ، ويمشونَ إلى أعدائِهم مشيَ الوُعُول ، وقد أطلَّت من أسيافِهم المَنون .

وانكسَرَتِ الحاميةُ أمامَ سيلِ المسلمينَ الجارف ، ففرَّتْ مَفزُوعة ، تحتمى بحُصُونِها الدّاخِليَّة ، تنتظِرُ المَدَدَ الذى سيَبعَثُ به الإمبراطورُ ميخائيلُ الثانى ، إمبراطورُ الرُّوم ، من القُسطنطينيَّة ، لطردِ العَرب

الذين لم يكتفُوا بانتزاعِ الشَّامِ ومصرَ وشَمالِ إفريقيَّة من أيديهم ، بل جاءُوا يحتلُّونَ الجزائر ، ليضربوا حَولَ بلادِ الرُّومِ نفسِها ستارًا حديديًّا .

ثبَّتَ أبو حَفصٍ أقدامَه على الشَّاطىء ، فكان أوَّلَ ما بدأ به أن صَاحَ برجالِه : أحْرِقُوا السُّفُن .

فنظَرُوا إليه مشدُوهِين وقدْ تَسَمَّرَتْ أقدامُهم بالأرض ، ولم يُسرِعُوا خِفافًا لتلبيةِ أمرِه ، كما اعتادُوا أن يفعلُوا ، فإذا به يَصِيحُ ثانية ، وفي غضب وعزم :

ـ أحرقُوا السُّفُن .

وأفاقُوا من الذُّهولِ الذى دَثَّرَهم ، ووجدُوا ألسِنَتَهم ، فقالوا له :

ـ كيف تفعَلُ ذلك ؟ أتريدُ أن تقطعَ بيننا وبين بلادِ المسلمين ؟

فقال فى ثورة ؟

ـ فيمَ شَكواكُم ؟ ألم أحمِلكم إلى أرضٍ تَفِيضُ باللبنِ والشَّهد ؟

ـ وأوطانُنا ؟

ـ هذهِ أوطانكم ، انسَوا أوطانكم القَاحِلة الماحِلة ؟

ـ ونساؤُنا ؟

ـ ما أكثَرَ النِّساءَ الحِسانَ فى الجَزيرة ، إن هى إلا أن تستولُوا عليها ، وتُصبِحَ نساؤُها إماءَكم

ـ وأولادُنا ؟

ـ ما أجمَلَ أن تُنسلوا هنا ، وأن تُصبحُوا آباءً لجيلٍ جديد ، يَذكُرُ اسمَ اللّه فى الغُدُوِّ والآصال .

وماتتِ اعتِراضَاتُهم أمامَ حُجَجِه ، فأهْرَعُوا إلى السُّفُنِ يحرِقُونَها ، واندَلَعَتْ ألسِنَةُ النِّيرانِ

كالأبالِسة ، فزَادَ ذلك فى عَزْمِ جنودِه ، وأورَثَ رجالَ الحامِيةِ البيزَنطِيَّة وهْنًا على وهن .

تقَدَّم أبو حفصٍ فى الجزيرة ، ولم يلقَ مقاوَمة ؛ فقد أُهرِعَت الحاميةُ إلى الجبالِ تحتمى بها ، ونزَلَ بجندِه فى مكانٍ فَسيح ، وحفَرَ حولَ معسكَرِه خندَقًا هائلا ، فأُطلقَ اسمُ « الخَندَق » على الجزيرة ، وحَرَّفَه الغربيُّونَ فأصبَح « كائديا » .

وظلَّ أبو حفْصٍ فى تقدُّمِه ، يَسْحَقُ كلَّ مقاوَمةٍ تعترِضُ سبيلَه ، حتَّى خَلا له وَجهُ الجزيرة ، وأصبحت كلمتُه هى العليا . وجزِعَ ميخائيلُ الثَّانى إمبراطورُ الرُّومِ لسُقُوطِ « كريت » فى أيدى هؤلاء المُغامِرين . فما إن انتهى من قَمْعِ الثورة التى قامَت ـ فى وجهِه ـ فى القُسْطنطينِيَّة ، حتَّى جهَّزَ حَملَةً بَحرِيَّةً بقيادةِ أميرِ البَحرِ « أوريفاس » ، لطردِ الذين

انتزَعُوا من الإمبراطوريَّةِ ذلك الموقِعَ الهامَّ الذى سَيُصبِحُ على الدَّوام شَوكَةً فى جنبِها ، ما دامَ فيه هؤلاء العرب الذين راحُوا يضرِبُونَ حولَها نِطاقًا فُولاذِيًّا .

انطلقَ أوريفاسُ بأسطُولِه إلى إقرِيطِش (كريت) ، وما إن دنا من شواطِئِها حتى ألفَى أَبا حَفْصٍ وجنودَه يتأهَّبُونَ لاستِقْبالِه . وعلى شواطِىء الجزيرة دارتِ المعركة قاسيةً مريرة ، سالت فيها الدِّماءُ ، وسقَطَتْ جُثَثُ القتلى ، وراحَ الموجُ يغمُرُها فى إقبالِه ، وينحَسِرُ عنها فى إدبارِه . ودوَّى المكانُ بالتَّكبير وصَيحاتِ المسلمين ، فألقَى اللّهُ الرُّعبَ فى قُلوبِ أعدائِهم ، فتقهْقَرُوا مهزومين ، ولاذُوا بمراكِبهم ، ثمَّ انسَحَبُوا مدْحورين يلعَقُونَ جِراحَهم ، وقدْ نكَّسوا رءُوسَهم خِزيًا وانكسارا .

واتّخَذَ المسلمونَ من حِسانِ الجزيرة أُمَّهاتِ أولاد ، وأصبَحُوا آباءً لجيلٍ فَتِيٍّ يدينُ بالتّوحيد ، ويؤمنُ بوطَنِه الجديد ، ويَذُبُّ عنه غاراتِ أباطِرة الرُّوم ، ويُدافعُ عن الدَّولة التى أسَّسَها زعيمُهم : أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ شُعَيبٍ البَلُّوطِيُّ الأندَلُسِيُّ الإقرِيطِيشِيّ ، ويبذُلُ فى سَبيلِها دَمَه ، ويجُودُ لها برُوحِه ومالِه .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

العرب في صقلية

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

كان وقع أقدامِ الخَيلِ على الأرضِ الصَّلدة ، يُمزِّقُ سكونَ اللَّيل . وبدا الضَّوءُ الخافِتُ المنبعِثُ من شُموع الدَّير ، كالخيطِ الأبيضِ في الثَّوبِ الأسود . واشتدَّتِ الرِّياحُ فكان لها في النُّفوسِ وقعُ النَّحِيب ، فزادَ ذلك المكانَ وَحشة . ورفعَ الشَّريفُ بوفيموسُ رأسَه ، وتمهَّلَ في سَيرِه ، فجذَبَ أتباعُه أعِنَّة جيادِهم ؛ وأرهَفُوا آذانَهم ، حتى إذا ما أصدَرَ إليهم أوامِرَه ، نَفَرُوا خِفافًا لإنفاذِها . ولكنَّ شَفَتيه لم تتحرَّكا ، بل مَدَّ بَصَرَه أمامَه ، وقد لاحَ الخَجلُ في مُحَيَّاه ، وخفَقَ قلبُه ، واستيقَظَتْ مشاعِرُه ، وأريقت عواطفُ الحبِّ في جوفِه ، ففي ذلك الدِّير الذى يقع منه على مَرمَى حجر ، مَن شُغِفَ بها حُبًّا ، وسَلَبَتْه

طُمأنينتَه ، وجعلَته حَليفَ السُّهاد .

واستمرَّ في صَمتِه ، وإن كانت إحساساتُه تمورُ فَوَّارةً بين جوانِحه . واشتدَّ به وَجدُه ، فإذا به يفكِّرُ بقلبه ؛ فَلَكزَ جَوادَه وانطلَقَ كالسَّهم صوبَ الدَّير ، وأتباعُه يعدُونَ في أثَرِه ، حتّى إذا بَلَغَه اقتَحَمه عَنوة ، ودخل يُنقِّبُ عمَّن تعلَّق بها الفُؤاد .

وهَبَّتِ الرَّاهِباتُ مفزُوعات ، ورُحنَ يُهَرولْنَ مرعوبات . ودَوَّت في جَنَباتِ الدَّير صيحاتُهنَّ ، فلم يحفِل بوفيميوسُ ورجالُه بصراخِهنَّ ، بل ظَلُّوا في تَجْوالهم ، يُديرُونَ العُيونَ في وجوهِ الرَّاهبات ، ولَمَحها بوفِيميوس في ثوبٍ أبيض ، وقدْ تهدَّلَ شعرُها على كَتِفَيها ؛ فاشتدَّ وَجيبُ قلبه ، وهَفتْ رُوحُه إليها ، فتقدَّمَ منها ، وحَمَلَها بينَ ذراعَيه ، ثم دارَ على عَقِبَيه ، وانسابَ بها وهو يحسُّ أنَّه يضُمُّ الدُّنيا إلى صدرِه ، وامتطَى جَوادَه ، وقد أركَبها أمامَه ،

وانطلقَ بها إلى قصرِه ، وأتباعُهُ يعدُونَ خلفَه .

وذاعَ فى صِقلِّية ، أن الشَّريفَ بوفيميوس ، اختطَفَ الرَّاهبةَ التى هامَ بحبِّها من دَيرِها . وبلغَ النبأُ مسامعَ قُسطنطين ، بَطريقِ صِقلِّية ، فثارَ واشتدَّت ثَورَتُه ؛ فرفعَ الأمرَ إلى الإمبراطورِ ميخائيلَ الثانى بالقُسطنطينيَّة ، فَأحنقَ الإمبراطورَ ذلك النَّبأ ، وزاد فى هَمِّه . إنه لَيرى العربَ يستلُّونَ أملاكَه من يدِه قطعةً قطعة ، ويرى الناسَ يثورون عليه فى بلادِه . وكأنَّما لم يكن فى كلِّ ذلك ما يكفيه ، فيهبُّ ذلك الشَّريفُ المفتونُ ويتحدَّى سُلطانَه .

وقد رأى الإمبراطورُ أن يبطشَ بذلك العابث ، ليُعيدَ إلى نفسه هَيبَتَها ؛ فكتَبَ إلى البَطريقِ قُسطنطينَ أن يحاكم بوفيميوس ، وأن يحكُمَ عليه بجَدْعِ أنفِه ، عقابا له على ما اقترفَ من جُرم ، وليكونَ عِبرةً لكلِّ مَن تُوسوِسُ له نفسُه الخروجَ عن الطَّاعة ،

والعبثَ بأمنِ البلاد .

وبلغَ بوفيميوسُ ما قضى به الإمبراطور ، فغادَرَ « بالرم » فارًّا بنفسِه ، وذهبَ إلى سِرَقُوسة (سيراكوزا) ، وأعلنَ أصحابَه أن الإمبراطورَ أمرَ بمحاكَمتِه ، فغضِبُوا له ، وجمعوا جموعَهم ليُعينُوه على الصُّمودِ فى وجهِ الإمبراطور .

واشتدَّ ساعِدُ بوفيميوس ، فثارَ فى عِصابَتِه على حاكمِ المدينة ، واستولَى على سِرَقُوسة . وأثارَ ذلك النَّصرُ حَنَقَ البَطريقِ قُسطنطين ، فجمعَ جَيشًا وانطلقَ به إلى ذلك الثَّائرِ ليُؤدِّبَه ، ولكن بوفيميوس هزَمَ جيشَ البطريق ، وأجبرَه على الفِرار إلى « قطانيا » .

وشقَّ ذلك على الإمْبراطور ، فبعثَ بأساطيلِه إلى صِقِلِّية ، وسَيَّرَ الجيوشَ إلى ذلك الثَّائِر ، الذى شقَّ عَصا الطاعة . والتقى الجَمعان ، ودارت رَحَى الحرب ، وحَمِيَ وطيسُها ، ولم يُطق بوفيميوس

وعصابتُه الصبرَ أمامَ ذلك الجيشِ المتدفِّق كالموج ، فانهزَمُوا ، وأسرعُوا إلى مراكبهم ، لتقلعَ بهم بعيدا عن شواطىء صِقِلِّية .

٢

وصلت مراكبُ بوفيميوسَ وصحبِه إلى تونس ، فهَبَطوا منها : ويَمَّمَ بوفيميوس إلى قصرِ الأميرِ زيادةِ اللّه بنِ الأغلب ، ودخلَ عليه ، وطفقَ يذكرُ له ما تقاسِي أهلُ صِقِلِّية ، من صنوفِ العذاب ، وجعلَ يُزَيِّنُ له فتحَ الجزيرة ، لتخليصِ أهلِها من طُغيانِ الرُّوم ، الذين أسرَفُوا في استِغلالِ الجزيرةِ واستنزافِ مَوارِدِها ، بعدَ أن خرجَتْ من أيديهم سوريَّةُ ومِصر ، ليُعوِّضوا ما خسِرُوه .

وأطرقَ الأميرُ زيادةُ اللّه يفكِّر . كان يخشى أن تكونَ هذه الدَّعوةُ مكيدةً للإيقاعِ بالمسلمين ، فقال بوفيميوس :

ـ إذا ما خلَّصتَنا مِمَّا نحنُ فيه من ذُلّ ، نادَينا بك ملكاً على البلاد .

فرفعَ الأميرُ رأسَه وقال :

ـ أستشيرُ رجالِي ، ثم أنبئُكَ بما عزمت عليه .

وخرج بوفيميوس ، وأرسلَ الأميرُ إلى أسدِ بنِ الفرات ، قاضي قضاة قيروان . فأقبلَ أسدٌ في مهابتِه ، فقد كان عالمًا جليلا ، جابَ الأقطارَ ، وشدَّ الرِّحال إلى مصرَ والشَّامِ والعراقِ ومكَّة ، يجمعُ العِلمَ من أطرافِه ، وصحِبَ الإمامَ مالِك ؛ ثمَّ استَقَرَّ به المقام في تونس ، وصارَ يقضِي بين النّاس .

وقصَّ الأميرُ على أسدِ بنِ الفُرات ما سمِعَه من بوفيميوس ، وما جاءَ من أجلِه ، ثم قال :

ـ وما ترى الآن ؟

فقال أسد : « أرى أن تنتهزَ هذه الفُرصة ، وأن تبعَثَ بالجيوشِ إلى صِقِلِّية ، لعلَّ اللّه يفتحُ على

يديكَ هذه البلاد » .

ورنا الأميرُ إلى أسدٍ رَنوةَ إكبار . كان يعلمُ أنَّه عالِمٌ من كبارِ العُلماء ، وبَحّارٌ من أفذاذِ الرِّجالِ الذين ركِبوا البحر ، فقال له :

ـ لن يخْرُجَ في هذه الغزوةِ غيرُك .

وتأهَّبَ أسدُ بنُ الفرات ، قاضي قُضاةِ قيروان ، ليقُودَ أسطولَ المسلمينَ إلى صِقِلِّية .

وفي ربيعِ الأوَّلِ من عام ٢١٢ بعدَ هِجرةِ الرَّسول ، خرج إلى عرضِ البحر سبعونَ مَركبا ، وعشرةُ آلافِ مقاتل ، وتسعُ مِائَةِ فارس . وأصدرَ العالِمُ البحّارُ أمره بالسيَّر ، فأبحَرَ الأسطولُ الإسلاميّ ، وأبحرت معه مراكبُ بوفيميوس ، لتخليصِ أهلِ صِقِلِّيةَ من ظلمِ الرُّوم ، ولِتُنكِّسَ النَّسرَ الرُّومانيّ ، رمزَ العَسفِ والجور ، وليُرفرفَ على ربوعِ الجزيرةِ عَلَمُ الأمن والسلام .

٣

انطلَقَ الأسطولُ الإسلاميُّ إلى الشَّمالِ الغربيّ من الجزيرة ، ودخلتِ المراكبُ مَرفَأ مازارا ، وهبطَ المجاهدونَ إلى الشَّاطىء ، واصطفَّ الفُرسان ، وعَبَّأَ ابنُ الفُراتِ جيشَه ؛ ثم انسابَ صَوبَ الشَّرقِ ليستوليَ على الجزيرةِ كلِّها ، ويُخلِّصَها من طغيانِ الرُّومان . .

وتقَدَّمَ على حَذَر ، وما لبثَ أن وجَدَ أمامَه جيشًا من الرُّومِ جرَّارا ، جيشًا يعادِلُ عشرةَ أمثالِ جيشِه ، في عُدَّةٍ عظيمة . فلم يضطرِب ابنُ الفُرات ؛ كان واثقًا من رِجالِه ، وكان على يقين أنَّ قلوبَ أعدائِه هواء .

وراحَ يُحرِّضُ رجالَه ، ويُذكِّرُهم بأفضلِ ما فيهم ، وقرأ « يس » ثم كبَّرَ ، فانقَضَّ المسلمونَ على

أعدائِهم انقضاضَ الصَّاعِقَة ، وسالتِ الدِّماء ، وبلغَت قلوبُ الرُّوم الحناجر ، وزُلزلُوا زِلزالاً شديدا ، ولاحَ النَّصرُ للمسلمين ، فأخذوا يحتسُّونَ بسيوفِهم ، وركِبوهم من كلِّ جانب . فلم يجِدِ الرُّوم مَنجاةً لهم إلاَّ الفِرار ، فَوَلُّوا الأدبارَ ، وقد خَلَّفُوا وراءَهم دوابَّهم وأموالَهم ؛ فراحَ المسلمونَ يجمعونَ الغنائِم ، وقد أفعمَ النَّصرُ قلوبَهم غبطةً وسرورا .

وتقَدَّمَ المسلمون ، فراحتِ الحُصونُ تسقُطُ في أيديهم حِصنًا حِصنا ؛ حتى إذا ما بلغُوا قلعةَ الكراث ، ألفَوا خلْقًا كثيراً من الرُّوم قد تحصَّنُوا بها ؛ فحاصَرُوها ، وراحوا يضربونَها بالمَنجَنيق ، ويُلقُونَ عليها النِّيران ؛ حتى إذا ما اشتدَّ الضِّيقُ بالمُدافِعين ، أرسلُوا رسلَهم إلى ابنِ الفُرات يُفاوِضُونَه في الصُّلح .

رأى بوفيميوسُ ما حلَّ بالحامِية ، فضايَقَه نصرُ المسلمين ؛ فابنُ الفُراتِ لم يُشركْهُ معه في القتال ،

بل أمَرَه أن يعتزل ؛ فخَشِيَ إن استَمَرَّ نصرُ المسلمين ، أن يخرجَ صفرَ اليدين ، دونَ أن يُحقِّقَ بعضَ أطماعِه ، فقد كانت نفسُه تهوى أن يولَّى على الجزيرةِ من قِبَلِ الذين حرَّضَهم على غزوها ، ولكنَّه يُحسُّ الساعةَ أن ذلك لن يكون ؛ فعزمَ على أن يُعاونَ من في الحامية ، لعلَّهم يذكرونَ له فضلَه ، إذا ما ثبَتُوا في وجه ذلك التيَّارِ الجارِف ، وتمكَّنوا من ردِّ المسلمين .

أرسلَ بوفيميوس إلى الرُّسلِ أن يثبتوا ، وأن يحفَظُوا بلَدهم ، ووعدهُم أنه سيمُدُّ إليهم يدَ العَون .

فعزمَ المفاوضونَ على خديعةِ ابنِ الفُرات ، حتى يفِي لهم بوفيميوسُ بوعدِه ؛ فصالَحوا المسلمين على أن يبذلوا لهم الجزية ، وسألوهم ألاَّ يقربوا منهم . فأقَرَّ ابنُ الفُراتِ ذلك الصُّلح ، وتأخَّرَ عنهم أيَّاما ، حتى يحملوا إليه أموالَهم .

وفى سكونِ الليلِ ، راح بوفيميوسُ يبعثُ إلى رجالِ القَلعةِ ما يحتاجُونَ إليه ، إذا ما عادَ المسلمونَ لحصارِهم ، حتى إذا ما أحسُّوا مَنعةً ، نَقضُوا عهدَهم ، وناصبُوا المسلمينَ العَداء . فعادَ ابنُ الفراتِ إلى حِصارِهم وقتالِهم ، وبثَّ السَّرايا فى كلِّ ناحية ، وحاصرَ سِرَقُوسة (سيراكوزا) برًّا وبحرا ، وبوفيميوس فى رفقتِه ، يرقبُ الفرصة التى تسنَحُ له ليُحقِّقَ مطامعَه .

٤

كان ابنُ الفراتِ يضيِّقُ الخِناقَ على سِرَقوسَة ؛ وقبلَ أن يَلوحَ له النَّصر ، تفشَّى الطَّاعونُ فى جيشِه ، فراحَ الموتُ يحصُدُ الرِّجالَ الصنَّاديد . وأخذَ ابنُ الفراتِ يُحارِبُ الوَباءَ والأعداءَ ؛ انتصرَ على الرُّوم ، ولكنَّ المرضَ قضى عليه .

هَلكَ أسدُ بنُ الفراتِ أميرُ الجيوش ، فقام محمدُ بنُ أبى الجوَارى يقودُ المسلمين ، وقد فتَّ الطَّاعونُ فى عَضدِهم ؛ فقرَّ عَزمُه على العَودةِ بما بقِىَ معه من النّاس ، ولم يجدْ فى ذلك من بأس ؛ فقد عادَ خالدُ ابنُ الوَليدِ بالمسلمينَ من مُؤتَة ، بعدَ أن استُشهِدَ القُوَّادُ الثلاثةُ الذينَ ولاَّهم الرَّسول ، وكانت هذه العَودةُ أقربَ إلى النَّصر .

أمر ابنُ أبى الجَوارى رجالَه أن يركَبُوا مراكِبَهم ، وأن يتأهَّبُوا للرَّحيل ؛ فامتلأتِ المَراكبُ بالرِّجال ، وقبلَ إقلاعِها لاحَ الأسطولُ الرُّومانِىّ ، وقد سدَّ بابَ المرسى ؛ فرأى ابنُ أبى الجوارى ألاَّ مفرَّ من القِتال ، فعزَمَ على العودةِ إلى الجزيرة ، وأن ينطلِقَ غازِيًا فيها إلى أن يقضىَ اللّه أمرَه .

وغادَرَ الرِّجالُ مراكبَهم ، وأمرَهم ابنُ أبى الجَوارِى بإحراقِها ، فاندلَعَتِ النِّيرانُ فيها ، ولم يبقَ

للمسلمينَ إلا أسيافُهم ، وما يستولونَ عليه من أيدى أعدائهم .

وتقدَّموا كاللُّيوثِ إلى مدينة منباو ، وحَصرُوها ؛ ولم تنقَضِ ثلاثةُ أيَّام إلا كانت المدينةُ فى حَوزَتهم . فشدَّ ذلكَ أزرَهم ، وأنعَشَ الأملَ فى صدورهم ، فكانوا كلَّما حاصَرُوا حِصنًا سقطَ فى أيديهم ، وفيما هم فى تقدُّمهم ، جاء إلى الجزيرةِ أُسطولٌ أندلُسىٌّ بقيادةِ أصبغ ، فخفَّ المسلمونَ الأندلسيُّون إلى إخوانِهم ؛ ثمَّ انطلقَت الجيوشُ الإِسلامية إلى « بلوم » عاصمةِ صِقِلِّية ، ليضَعُوا أيديَهم عليها .

ودَوَّى فى الفضاء تكبيرٌ وتهليل ، فالتفتَ المسلمونَ وقد هزَّهم الفرح ، فقد جاءتهم جيوش ابنِ الأغلَب ، لِتُشاركَهم فى حِصارِ العاصمة . وضيَّقَ المسلمونَ الخناقَ على المدينة ، حتى أجبَروا حاميتَها على تسليمها .

واشتدَّتْ نفوسُ المسلمينَ بهذا الفَتح المُبين ، ثمَّ سارُوا إلى مدينةِ (كاستروجوفانى) ، وفى رفقتهم بوفيميوس . فلمَّا بلغَ أهلَ المدينة تقدُّمُ الجيوشِ الإِسلاميَّة صَوبَهم ، خرجَ وُجوهُ النّاسِ لاستقبالِ الغازين ، وقبَّلوا الأرضَ بين يدَى بوفيميوس ، وقالوا له : إنهم يُوَلُّونَه عليهم . فانشرَحَ صدرُه ، واطمأنَّ إليهم ، وسارَ معهم ؛ حتّى إذا ما خيَّمَ الظَّلام ، انقَضُّوا عليه وقتلوه !

وأطبقتِ الجُيوشُ الإِسلاميَّةُ على المدينةِ من كل جانب ، فلم يقوَ أهلُها على الصُّمود فى وجهِ المجاهِدين . فما تَصرَّمَتْ أيَّامٌ حتّى تقلّصَ ظلُّ النّسر الرُّومانىِّ عن المدينة ، وراح اسمُ اللّه يتردَّدُ فى جنباتِها ، آناءَ اللّيلِ وأطرافَ النّهار .

وأخذَتِ المُدُنُ تسقُط ، واحدةً إثرَ أخرى ؛ فسقطت جورجنتو (جرجنت) ، وقطانية ،

ومنسنين . ولم يبقَ العلَمُ الرُّومانىُّ خفَّاقًا إلاّ فوقَ سِرَقُوسة (سيراكوزا) آخرِ معاقِلِ الجزيرة ، ولكن لم يدم خفقانُه طويلا ، فسرعانَ ما أُنزِل ، وأُلقِىَ النّسرُ الرُّومانىُّ على الأرض ، لتُمزِّقُه سنابك الخيولِ العربيَّة .

واستقرَّ المُسلمونَ فى صِقلِّية ، وراحَ المغامرون يتأهَّبُونَ للوثْبة التالية ، فقد كانت تُراوِدُهم فِكرة غزو إيطاليا ؛ فما يفصلُ بينهم وبينها إلا مضيق مسينى ، وما كان ذلك المَضيقُ ليحولَ بين أصحابِ الآمالِ العريضة ، وغزو إيطاليا .

الحلقة الرابعة

العرب فى أوربا

القصص الدينى

عبد الرحمن الداخل

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

١

ماتَ الحَكمُ ، فانتَهزَ عمُّه الفُرصةَ ليعاوِدَ بطلبِ الإمارة ، فثار على عبدِ الرحمن ، الذى تولَّى الأمرَ بعهدٍ من أبيه ، وأطلقَ الفِتنةَ فى الأندلس . فوجدَ الفرنسيُّونَ أن يغتنمُوا هذه السَّانحة ، ليزحَفُوا إلى كتلُونيا وأرَغون ؛ فسارتْ جيوشُهم تُحرق وتُدمِّر ، بينا عبدُ الرَّحمنِ فى شُغْلٍ بتسكينِ الثَّورة ، التى يُحاوِلُ أن يُشعِلَها عمُّ أبيه .

وثارت مدينةُ مارَدة على عبدِ الرَّحمنِ ، فكتب إليهم الإمبراطور ، لُويسُ بنُ شارلْمان ، يُحرِّضُهم

على الثَّبات ، حتى يخفَّ لنَجْدَتِهم . وعقَدَ مؤتَمرًا عامًّا فى إكسلاشابِل ، حضرَه أمراءُ البِلادِ المجاورةِ لإسبانيا ، وأعلن عزمَه على غَزوِ الأَندلُس .

كان فى إكسْلاشابِل قائدٌ قُوطِيّ ، كان قد انضمَّ إلى الإمبراطور ، فلمَّا سمِعَ بعزْمِه على غزوِ الأندلُس ، انسلَّ خِفيةً ، وانطلَقَ إلى كتالُونيا وأرَغُون ، يثيرُ الأهالِى على الإمبراطورِ القادمِ للغزوِ والقِتال ، واستولَى على مدينةِ أشُونَة ، واجتاحَ البِلادَ التى كان الفرنْسيُّونَ يحتلُّونَها ، ثمَّ أرسلَ يستَنجِدُ أميرَ قُرطُبة .

أبطأ الأميرُ عبد الرَّحمنِ فى إرسالِ المددِ إليه ، فذهبَ القائِدُ القُوطِيُّ بنفسِه إلى قُرطبة ، يحُثُّ الأميرَ على الإسراعِ فى التَّعبئَةِ والنَّجدة . فسَرَّحَ

عبدُ الرَّحمنِ معه جيشًا ؛ فراح الجيشُ ينطلِقُ حثيثا ، بينما كـانَ جيـشُ الفَرنسِيِّينَ يسـيرُ هَونـا ، فوصَـلَ الجيشُ الإِسلاميُّ إلى برشلُونة وجيرونَة واجتاحَهُما .

وانطلَقَ عبدُ الرَّحمنِ إلى مـارِدَة ، التى طلبتْ عَونَ الفَرنسيِّين ، وضيَّقَ عليها الحِصـارَ ثـلاثَ سنوات ، حتّى خرَّت ساجِدةً تحتَ أقدامِه .

٢

كـان الإمبراطورُ لويسُ الحليـم ، ملِكُ فرنسـا ، سيِّءَ الإدارة ، ضعيف الإرادة ، فقسـمَ مملكتَه بين أولادِه الثلاثة ، وسلَّم إلى كلٍّ حِصَّتَه . ثم جاءَه ولدٌ رابع ، فأرادَ أن يُعيدَ القِسمة ، ليُعطِيَ لولَدِه الرَّابع نصيبا ، فثارَ أبناؤُه الثلاثـةُ عليـه ، وخلعُوه ؛ ولكنْ

سَرعانَ ما عـادَ غلى عرشِه ، بعدَ أن فقدَ هَيبتَه وسَطْوَتَه .

رأى عبدُ الرَّحمن القلاقِلَ التى تُعانِيها فرنسا ، والقِتالَ الدائِرَ بينَ لويسَ وأبنائِه ، فانطَلَقَتْ جيوشُ عبدِ الرَّحمنِ تجتاحُ البلادَ الواقِعةَ تحتَ الاحتلالِ الفَرنسيّ ، فى جبال البيرانيه ، وسار أسطولُ المسلمينَ من تَركُونَة ، يعاوِنُه أسطولٌ آخرُ انطلقَ من جَزيرَتَى مَيُورقَة ويابسة ، وهاجَمَ المسلمونَ مرسِيليا ، ونزلُوا فى نواحِيها ، واستولَوا على ضواحيها ، وساقُوا جميعَ الرِّجال أسرى .

وكان فى أحدِ الأديرةِ راهباتٌ يرقُبنَ تقدُّمَ المسلمينَ فى وجَلٍ وخَوف ، وكُنَّ يخشَينَ اعتداءَ الغُزاةِ عليهِنَّ ، وتلطِيخَهُنَّ بالعار ، فرأت أُوزيبيا ،

رئيسةُ دَيرِ الرَّاهبات ، أن يُشَوِّهْنَ خِلْقَتَهنَّ ، حتى يُصبِحنَ دَميماتٍ ينفِرُ منهنَّ الغزاة ، وقد فعلْنَ ما رأتْ رئيسةُ الدَّير ، ومنذُ ذلكَ الوقت صارتْ رئيسةُ ديْرِ الرَّاهباتِ قِدِّيسة ، وأُطلِقَ عليها سانت أوزيبيا .

٣

وماتَ الإمبراطورُ لويسُ سنة ٨٤٠ ، فوقعَ الخلافُ بينَ أولادِه ، واغْتَنَمَ عبدُ الرَّحمنِ هذه الفُرصة ، فأرسلَ المسلمينَ لغزْوِ فرنسا ، فدخَلُوا من مصبِّ نهرِ الرُّون ، وعاثُوا فى مدينةِ آرلَ ونواحِيها . وبعثَ العساكِرَ بقيادةِ موسى بن موسى ، عامِلِ تُطيلَة ، فراحُوا يتقَدَّمونَ حتى بلغُوا أرضَ برطانية . والتقَى المسلمونَ بالفَرنسِيِّين ، فلم يستطِع

الفَرنسيُّونَ صَبرا ، فانهَزَمُوا ، وعادَ موسى بالغنائِمِ والأسلاب .

وساءَتِ الأحوالُ فى فرنسا ، واجتاحتْها الحُروبُ الدَّاخليَّة ، وتقاسَمَ جنوبِيَّ فرنسا ثلاثةُ ملوك : الإمبراطور لوثر ، والملك شارْلُ الأصلَع ، والملكُ الشابُّ بيبين ، ابنُ بينَ الذى كانَ ملِكًا على أكتيانيا . فترك عبدُ الرَّحمنِ أعداءَه يتقاتَلُون ، وراحَ يوطِّد مُلكَ الأندُلس ، فاتَّخذَ القُصورَ والمُتنزهات ، وجلبَ إليها المياهَ من الجبال ، وأقامَ الجسورَ ، وبنى الجوامِع ، وراح يزيدُ فى جامع قُرطُبة ، وسادَ عصرَه الهُدوء ، واحتجبَ عن العامَّة ، وكان يقضِى وقتَه بينَ جوارِيه الحِسان ، فقد كان كثيرَ المَيلِ للنِّساء .

وحفَّ به الشُّعراءُ والمُغَنُّون ، فكانَ أوَّلَ من أحدثَ ذلك بالأندَلُس .

٤

ووَلِعَ عبدُ الرَّحمنِ بجاريَتِه طَرُوب ، وأحبَّها حبًّا شديدا ، فكان يقضِي أوقاتَه معها ، وبلغَ من هُيامِه بها ، أن أعطاها حَلْيًا قِيمَتُه ألفَ دينار ، فقيل له :

ـ إنَّ مثلَ هذا لا ينبَغى أن يَخرُجَ من خِزانةِ الملك .

ـ فقال فى وَجْد :

ـ إنَّ لابِسَه أنفَسُ منه خطرا ، وأرفَعُ قدرا ، وأكرمُ جوهَرا ، وأشرفُ عُنصُرا .

وقد تدلَّه فيها حبًّا ، حتَّى إنَّه كان يترنَّم :

إذا ما بدَتْ لى شمسُ النّهارِ　　طالِعةً ذكّرَتْنى طَروبا

أنا ابنُ المَيامينِ من هاشمٍ　　أشُبُّ حروبًا وأُطفِى حُروبا

وخرجَ غازِيًا يوما ، وطالت غيبتُه ، فاشتدَّ شوقُه ، فراح يكتبُ إليها وهو فى عسكرِه :

عدانِىَ عنك مَزارُ العِدا　　وقودى إليهم سهامًا مُصيبا

فكم قد تخطّيتُ من سبْسَب　　ولاقَيتُ بعدَ حروبٍ دروبا

ألاقى بوجهِى سُمومَ الهَجيـ　　ـرِ إذ كاد منه الحَصى أن يذوبا

٥

وأغضَبها الأميرُ يومًا ، فهجَرَتْه وصَدَّتْ عنه ، وأبتْ أن تأتِيَه ، ولزِمَتْ مقصُورَتها ، فاشتدَّ قَلَقه لهجرِها ، وضاقَ ذرعُه من شوقِها ، وراح يبذُلُ ما فى وُسعِه ليترضَّاها ؛ ولكنّها ظلّت على الصَّدّ ، بعث إليها خُصيانَه ، يلتمسُونَ منها أن ترضَى عن الأمير ، وأن تعودَ إلى الوِصال فأغلَقَتْ بابَها فى وجوهِهِم ، فعادُوا إلى الأمير مطأطئى الرُّءوس .

وقال لهم عبدُ الرَّحمن :

ـ ماذا وراءَكم ؟

قالوا فى صَوتٍ خافت :

- لنْ تخرُجَ طائِعة ، ولو انتهى الأمرُ إلى القَتل .

فأطرقَ الأميرُ بُرهَة ، ثم قال :

- وما العمل ؟

قال أحدُ خُصيانِه .

- اسمَحْ لنا يا مولانا أن نكسِرَ البابَ عليها .

فقال الأميرُ فى غضب :

- إيَّاكم وفِعلَ ذلك .

ووقفَ مُضَرُ الخَصِىّ ، الذى كانت طَروبُ تُبْرِمُ الأمورَ معه ، فلا يردُّ عبدُ الرَّحمنِ شيئا مما تُبرمُه ، صامتًا لا ينبسُ بكلمة ، فالتفتَ عبدُ الرَّحمنِ إليه ، وقال :

- تكلَّم يا مُضَر ، ماذا نفعل ؟

- تَرضَّها يامولاى ، اغمُرها بإحسانِكَ تنسَ إساءَتك .

فأمَرَ عبدُ الرَّحمن خُصيانَه أن يسُدُّوا البابَ عليها من خارجِه ببِدَرِ الدَّراهم ، ففعلوا وبَنوا عليها بالبِدر . وجاء عبدُ الرَّحمنِ حتَّى وقفَ بالباب ، وهتفَ فى وجد :

- افتَحى يا طَروب ، افتحى ولك جميعُ ما سُدَّ به الباب .

وفتحتِ الباب ، فانهارتِ البِدرُ فى بيتها ، فوقفتْ تنظُرُ إلى المالِ المُتَدفِّق إلى حُجرَتِها كالسَّيلِ فى دَهَش ، ثمَّ انطَلَقتْ إلى الأمير ، فأكَبَّت على رِجلِه تُقَبِّلُها .

٦

وطارَ صِيتُ عبدِ الرَّحمن ، حتى بَلغَ بغدادِ ، وسمِعَ زِرياب ، وكان من أعلامِ المُغنِّينَ بالشَّرقِ بجفاوَة عبدِ الرَّحمنِ بالشُّعراء والمُغَنِّين ، فقرَّرَ الرَّحيلَ إلى الأندَلُس .

كان زرياب أسودَ اللّون ، فصيحَ اللِّسان ، شاعرًا مطبوعا ، وأخذَ الغِناءَ عن المَوصِليّ ، وبرز فيه ، حتى خَشِيَ على نفسِه عاقبةَ هذا التّفوُّق ، لمنزِلةِ المَوصِليِّ من الخليفةِ الرَّشيد ، فانسلَّ إلى الأندَلُس ، وقدِمَ على عبد الرَّحمن سنةَ ستٍّ ومِائَتين هجرِّية ، فأكرَمَه عبدُ الرَّحمن ، وأحسَنَ وِفادَته ، وغمَرَه بفَيضِ إنعامِه .

وذاعَ اسمُ زِرياب فى الأندَلُس ، وصارُوا يُحاكونَه حتى فى مَلبَسِه ، وينقُلونَ أخبارَه ، وكان يجرِى فى الغِناء مجرى المَوصِليّ فى العراق ، وصارَ عُمدَةَ المُغنِّين ، وراحَ يتَفَنَّنُ فى الأصوات . وقد ألهمَتْه البيئةُ الجديدةُ الغنيَّةُ بروعةِ الطّبيعةِ وجمالِها روائعَ الألحان ، ورقَّقَتْ طَبعَه ، فنهَضَ بصناعةِ الغناء فى الأندلُس ، واخترَعَ للموسِيقَى نظامًا خاصًّا جديدا ، وأضافَ إلى العُودِ وَترًا خامسا ، وكان قبلَه على أربَعةِ أوتار ، ووَضعَ طُرُقًا للغِناء ، أصبَحتْ عِلمًا خاصًّا اشتهَرَتْ به الأندلُس ، وتدَفَّقَتِ الأموالُ عليه ، حتى قُدِّرَ دخلُه كلَّ عام بنحوِ أربعةِ آلافِ دينار .

٧

كانَ التّنافُس شديدًا بينَ الخُلفاءِ العبَّاسِيِّينَ وأمراءِ الأندَلُس ، فكانَ مُلوكُ أوربَّا يجدونَ في هذا التّنافُس متنفَّسًا لهم . فإذا شَدَّ أمراءُ الأندَلُسِ عليهِم ، عقدُوا المُعاهَداتِ والمَواثِيقَ مع خُلَفاءِ بغداد ، وإذا قاتَلَهم الخُلفاءُ ، مالُوا إلى أمَراءِ الأندلُس ، فكانَ ملوكُ أوربَّا يقْوونَ بذلك ، على حينَ تتشتَّتُ كلِمةُ المسلمين .

وفي سنة ٢١٧ ضَيَّقَ المسلمونَ الخِناقَ على القُسطَنطِينيَّة ، فكتبَ ملكُها توْفيل إلى المأمون : « وقد رأيتُ أن أتقَدَّمَ إليكَ بالمَوعِظة التي يُثبِّتُ اللّهُ بها عليكَ الحُجَّةَ من الدُّعاءِ لكَ ولمن معكَ إلى الوَحدانِيَّة ، والشَّريعَةِ الحَنيفِيَّة ، فإن أبَيتَ ففِديَةٌ توجبُ ذِمَّة ، وتُثبتُ نظرة ، وإن تَركْتَ ذلك ، ففي يقينِ المُعايَنةِ لنعوتِنا ما يُغنِي من الإبلاغِ في القَول ، والإغراقِ في الصِّفة ، والسَّلامُ على من اتَّبَعَ الهُدَى » .

ومات المأمون ، ووقعت حروبٌ تَشيبُ من هولِها الوُلدانُ بينَ المعتصِم وتَوفيلَ ملكِ الرُّوم . فرأى تَوفيلُ أن يستَفِيدَ من الجَفْوَةِ بينَ بَغداد وقُرطُبة ، فبعثَ إلى الأميرِ عبدِ الرَّحمنِ بهدِيَّة ، يطلبُ مُواصَلَته ، ويُرَغِّبُه في مُلكِ سَلَفِه بالمَشرق ، ذلكَ المُلكِ الذي استولَى عليه العبَّاسيُّون . وما كان تَوفِيلُ يفعلُ ذلك حبًّا في عبد الرَّحمن والأمويِّين ، بل بُغضًا في العَبَّاسِيِّين ، الذين كانوا يستَلُّونَ مُلكَه ، ويطوونَه تحتَ قَدَمَيه .

وكافأَه عبدُ الرَّحمنِ على الهَدِيَّة ، وبعثَ إليه يَحيى

الغَزال ، من كِبارِ أهلِ الدَّولة ، وكان مشـهورًا فـى الشِّعرِ والحِكمة ، فراحَ يُقَرِّبُ بينَ مَلكِ القُسطنطينيَّةِ وعبدِ الرحمن نِكايَةً فى خُلفاءِ بنى العَبَّاس ، فشـاعَتِ الفُرقَةُ بـين المُسـلمين ، وراح مُلـوكُ أوربَّا يـترقَّبُونَ فرصَتهم ليضرِبوا خُلفاءَ بغداد وأمراءَ قُرطبة معا .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

العرب في إيطاليا

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

راحَ أمراءُ الأندَلُسِ يبنونَ الأساطيلَ البَحريَّة ، فى مَراسِى الأندَلُس ، وبنى أمراءُ إفريقِيَّةَ أساطِيلَهم فى تونُسَ وسُوسَة . فصارت جزائِر ميورقَةَ ويابِسةَ وسَردانيَةَ عُرضَةً لغَزَواتِ المسلمين ، فكانوا يغزُونَها فى غُدُوِّهم ورواحهم ، ويأخذونَ الغَنائِمَ والسَّبْى ، ثمَّ يقفِلونَ إلى قواعِدهم عائدين .

واكتسلحَ المسلمونَ جزيرةَ كورسيكا (قُرشُقَة) ، وكان بيينُ بنُ شارلمانَ ملكًا على إيطاليا ، فأرسلَ أسطولا لُمطارَدَتِهم ، فلمَّا شعرَ المسلمونَ بدُنُوِّ أسطولِ العَدُوّ ، انسحبُوا ، فطمِعَ فيهم كونتُ

جنوَة ، وتعَقَّبَهم بأسطُولِه ، فثبَتُوا لـه حتّى هزَمُوه ، وانطَلَقُوا إلى جنوَة ، واشتدَّ القِتال ، فانتصرَ المسلمون ، وخَلَّوا جنوَة ، وأصابُوا مَغانِمَ كثيرة ، واستَولَوا على كثيرٍ من الأسرَى ، ثمَّ عادُوا إلى الأندَلُس ، يبيعونَ الأسرَى فى أسواقِها ، وكان بينَ الأسرَى ستُّونَ راهِبا ، فكَّهم شارلمانُ من الأسرِ ، بفِديَةٍ أدَّاها عنهم .

وهاجَمَ المسلمونَ كورسيكا كَرَّةً أخرى ، ونزَلوا بها ، وخَيَّموا فى الجِهةِ الشَّرقِيَّة ، بين أطلالِ مدينةِ آلِيريه ، ودارتْ معاركُ رهيبةٌ بينَهم وبين الفَرنسيِّين ، اضطُرَّ المُسلمونَ بعدَها إلى مغادرةِ الجزيرة .

وصارت كورسيكا هَدَفَهم ، فسُرعانَ ما عادَ العَربُ إلى الهجوم عليها ، فأسَرُوا وغَنِمُوا ، وبينما

هم راجعون أكمنَ لهم كُونتُ أمبورياس ، بقُربِ مدينةِ برينيان ، قُوَّةً بحريَّة ، غَنِمَتْ منهم ثمانيةَ مراكب ، كان فيها أكثرُ من خَمسِ مائةِ أسير ، فراحَ المسلمونَ ينتَقِمونَ لذلك فاجتاحُوا سواحِلَ نِيس وبُروفَنْس وسيفيته فكشيا بالقُربِ من روما .

٢

صارتْ صِقِلّيةُ منذُ وقَعتْ في أيدِي المُسلمين ، قاعدةً لكثيرٍ من الغَزَواتِ التي يشُنُّها الأغالِبة ، حُكّامُ شَمالِ إفريقِيَّة ، على الثُّغُورِ والشَّواطِيء الإيطاليَّة ، وفي سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢م) اختلَفَ أميرانِ من اللُّومبارد ، على إمارة بنْفونتوم ، جنوبيِّ إيطاليا ، فاستنصَرَ أحدُهما بأميرِ صِقِلّيَةَ الفضلِ ابن جَعفَر ، فبعثَ إلى كلابِرْيا بحملةٍ قَويَّة ، فما لبِثتْ

أن استَولَت على ثغر بارى ، واستقَرَّت به ، وأقامت فيه قاعدةً قويَّة ، وفرضَتِ الجزيَةَ على مُعظَم مدُنِ كلابرْيا .

واندَفَعَت قُوَّةٌ بحريَّةٌ أخرى من صِقِلّيةَ إلى شاطيء إيطاليا الغربى ، فاجتاحَتْ ثُغُورَه ، ونهبَت فوندى ، ورسَت أمامَ مصبِّ نهرِ التَّيْبَر ، الذى تَقَع عليهِ رُوما ، وانطَلَقَ المسلمونَ حتى بلغُوا روما ، ونَهبُوا كَنيسَتَى القِدِّيسِ بُطرُس والقِدِّيس بُولُس ، وكانت فى خارج روما ، وأُهرِعَت جيوشُ الإمبراطورِ لويس الثَّانى ، للدِّفاع عن روما ، مَعقِلِ المَسِيحيَّة ، ومَقَرِّ البابا .

وانسحَبَ المسلمون ، وارتَدُّوا عن حاضِرةِ العالَمِ فى ذلك الحِين ، ليُضيِّقُوا الخِناقَ على جاتيا ،

واضطُرَّ البابا لِيُونُ الرَّابـع ، إلى تحصِـينِ ضاحِيـةِ الفاتيكـان ، وإدخـالِ كَنيسَـتَى القِدِّيسَـيْن بُطـرُسَ وبولُسَ فى المدينة .

واستولَى المسلمونَ على ثَغْرِ تارِنتُو ، وثَغرِ رَغـوسَ مـن ثغـورِ الأدرياتِيكِ الشَّرقيَّة ، وتوالـت حَمـلاتُ الأساطيلِ الإسلاميَّة ، حتّى اضطُرَّ سـكّانُ الثُّغـورِ أن يُقيمُـوا القِـلاعَ والحُصـونَ علـى طـولِ الشَّـاطىء ، لِيَحمُوا بلادَهم من هُجومِ المسلمينَ المفاجِىء ، الذى كان يُشيعُ الرُّعب ، ويُلقِى الرَّهبةَ فى القُلوب .

٣

كان محمدُ بـنُ الأغلَـب ؛ أمـيرُ إفريقِيَّـة ، يتحـامَى سواحِلَ مملكةِ شارلمان ، حُرمةً للعهدِ الذى كان بـينَ هـارونِ الرشـيد والإمـبراطور ، ولكـن عندمـا مـاتَ

الرَّشيد ، ووقعتِ الحربُ بينَ ولَدَيه الأمينِ والمأمون ، تحرَّرَ ابـنُ الأغلَـبِ مـن ذلـكَ العَهـد ، فراحَـتِ الأساطِيلُ تهاجمُ سواحِلَ فَرنسـا وإيطاليـا ، وينقَـضُّ القراصِنةُ على السُّفُنِ التى تسيرُ بين فرنسا وإيطاليـا ، ورأى شارلمانُ أن الخَطـرَ يـزداد ببـلادِه ، فـأمرَ ببنـاء القِلاعِ والحُصـونِ علـى السَّـواحل ، وعنـدَ مصـابِّ الأنهـار ، وراحَ يُنشِـىءُ الأسـاطيلَ ، لـيرُدَّ عادِيَـةَ القُرصـانِ والأسـاطيلِ الإسـلاميَّة ، التـى أقضَّـتْ مضاجِعَ سُكّان الثُّغُور .

وصارَ الاستيلاءُ على رُوما أمنِيَةَ الحُكّامِ المسلمين ، ونشِطَ محمَّدُ بنُ أحمـدَ بـنِ الأغلَـب ، أمـيرُ إفريقِيَّـة ، وخَفاجَـةُ بـنُ سُـفيانَ أمـيرُ صِقِلِّيَـةَ ، لِغَـزوِ رومـا ، فاجتمَعَ الأسطولُ المَغربىُّ وأسطولُ صِقِلِّيَة ، وانطلق

البَحَّارةُ المسلمونَ إلى الشَّاطىء الإيطالىّ ، ورَسَتِ المَراكِبُ عندَ مَصَبِّ التِّبْرْ ، على قَيدِ عَشرةِ أميالٍ من روما ،

وهَبَّ البابا لِيُونُ الرَّابعُ ، ليدفَعَ عُدوانَ المسلمينَ عن المدينةِ المُقَدَّسة ، مَعقِلَ المَسيحِيَّةِ الحَصين ، فاستنجدَ بالأساطيلِ المسيحيَّة ، فإذا بها تَهُبُّ لِنُصْرَتِه ، يقُودُها فَتًى شُجاعٌ يُقالُ له قَيصَرُون ، والتقَى الأسطُولان ، الإسلامىُّ والمَسيحىّ ، ونَشِبَ القِتال ، وقَفَزَ الرِّجالُ إلى الرِّجال ، وسالت الدِّماءُ واختلَطَ التكبيرُ بالصَّيحات ، وصارتْ مياه « أوسِيَا » : ثَغْرِ روما مَيدانًا لمعركةٍ بحريَّةٍ هائلة .

وصَفَرَتِ الرِّياح ، واكفَهَرَّ الجوّ ، وهبَّتْ عاصِفةٌ عاتية ، فارتدَّ أسطولُ قَيصَرُونَ إلى السَّاحل ،

وارتَطَمتْ سُفُنُ المسلمينَ بعضُها ببعض ، فغرِقَ بعضُها ، ولكنَّ هذه الخَسارة لم تفُتَّ فى عَضُدِ المُسلمين ، فحاصَرُوا المدينة وأشاعو الاضطِرابَ بينَ جَنباتِها .

ومات البابا لِيُون الرَّابع ، واستولَى يوحَنَّا الثَّامِنُ على الكُرسىِّ البابَوِى ، فرأى أن يُفاوِضَ المسلمينَ فى الجَلاء ، على أن يدَفَعَ لهم جزيَةً سَنَويَّة ، قدرُها خمسةٌ وعشرونَ ألف مِثقالٍ من الفِضَّة ، وقَبِلَ المُسلمونَ ذلك ، ورفعُوا الحِصارَ عن المدينة ، فقد كان هَمُّ الأمراءِ الغنائِمَ والأسلاب ، بعدَ أن انقَضَى ذلكَ العَصرُ الإسلامىّ ، الذى كان هَمُّ الأمراءِ فيه الجِهادَ فى سبيلِ الله ، ورفْعَ كلمتِه ، ونشرَ دِينِه .

٤

وتولّى إمارةَ الأندُلسِ العبَّاسُ بنُ الفَضل ، فسارَ إلى إيطاليا ، وفتحَ حُصونًا كثيرة ، ثمَّ غزا كاستُروفانِي « قصريانة » ووقَعَ في يدِه رجُلٌ من أهلِ المدينة ، دلَّه على أماكنَ من سُورِها ، فدخلَ منها ووضَعَ السَّيفَ في أهلِها من الرُّوم ، ففتحُوا الأبواب ، وتَدفَّقَ المسلمونَ منتَصِرين ، واستولَى على غنائِمَ تفُوقُ الحَصر ، وتجلُّ عن الوَصف .

وأرسَلَ ملكُ القُسطنطينيَّةِ ثلاثَ مائَةِ شلندى ملأَى بالعساكِر ، فوصلَت إلى سِيراكُوزا سرقُوسَة) ، فأسرَعَ العبَّاسُ للقِتال ، فهزَمَ أسطولَ القُسطنطينيَّة ، وغَنِمَ مِائَةَ شَلَندِيّ ، وما كادَ العبَّاسُ يفرُغُ من قِتالِه حتّى نكَثَ كثيرٌ من قِلاعِ صِقلِّيَة ، فخرجَ العباسُ إلى الثّائرين ، واقتَتلَ مع الرُّومِ قتالا رهيبا ، ودارتِ الدَّائِرةُ على الرُّوم ، فانسحَبُوا إلى سيراكُوزا .

وسارَ العبَّاسُ في أثَرِ المُنهَزِمينَ إلى سيراكُوزا ، وقبْلَ المعرَكةِ الفاصِلة ، اعتَلَّ ومات ، ودُفِنَ هُناك ، فنَبَشَ الرُّومُ قَبرَه ، وأحْرَقُوا جَسَدَه .

لم يقْدِرُوا عليه حيًّا ، فاقْتَصُّوا منه ميِّتا !

٥

ركِبَ عِشرُونَ ملاّحًا عربيًّا مَركَبًا خفيفا ، وغادَروا سواحِلَ الأندَلُس ، في طريقِهم إلى بُروفنس ، وهبَّتِ الرِّياح ، وهاجَتِ العَواصِف ، فألْقَتْ بالمركَبِ في خليج غرِيمُو ، فصَعِدَ الملاّحونَ

العربُ إلى البَرِّ ، ولم يرَهُم أحد ، وكانَ حَولَ هذا الخَليجِ أجَمَةٌ لا يجرؤُ إنسانٌ أن يَختَرِقَها ، لِتَشابُكِ أغصَانِها ، وكان فى شَمالِ الخليج سلسلةُ جبال ، بعضُها فوق بعض ، إذا اعتلى إنسانٌ قِمَّتَها أشرفَ على قسمٍ كبيرٍ من بُروفَنس السُّفلَى .

راحَ الملاَّحونَ العربُ يتلفَّتون ، فرأَوا قريةً قريبة ، فأغارُوا عليها ، وذَبَحُوا أهلَها ، ثم راحُوا يتقَدَّمُون حتّى بلغُوا القِممَ التى تُشرِفُ من جهةٍ على البحر ، وتتطلَّعُ إلى جبالِ الألب ، وتلفَّتُوا حولَهم ، فأيْقَنُوا أنَّهم فى مكانٍ حَصين ، يستطيعونَ أن يستقِرُّوا به .

وأرسلوا إلى إسبانيا وإفريقيَّة ، يطلبون من إخوانهم أن يخفُّوا إليهم ، وسَرعانَ ما ملأَ العربُ تلكَ النَّاحِية ، وأقامُوا فيها الحُصونَ والقِلاع ،

وراحوا يشُنُّونَ الغارةَ منها على البلادِ المجاوِرة ؛ وكان حِصنُ فرِكْسيناتوم أمنعَ تلكَ الحُصون ، فقدْ كانَ يتحكَّمُ فى الطَّريق الوحيدِ من الخليج إلى الشَّمال ، وقد أطلَقَ العربُ على هذه المِنطَقة (جبلَ القِلال) .

كان أمراءُ الإفرنجِ فى شِقاقٍ ونِزاع ، فلمَّا انتهى العربُ من تحصِينِ المِنطَقة التى نزلُوا فيها ، وصاروا قُوَّةً يُحشَى بأسُها ، صارَ أمراءُ البلادِ يستَعِينُونَ بهم فى قِتالِ بعضِهم بعضا ، وازداد العربُ قوةً ومَنَعة ، فعدّوا أنفُسَهم سادةَ تلكَ المناطق ، فانتَشَرُوا فى السَّفْواى ودالفِينتيُو وفاليزْيا وليغُوريا ، حتى بلغُوا جنوَة .

وراحَ العربُ يتقَدَّمُونَ صَوبَ جبالِ الألب

ويتسَلَّقُونَها ، حتى وقَفُوا في أعلاها ، واحتَلُّوا جميعَ مَضايِقِ جبالِ الألب ، وقطعُوا المواصَلاتِ بين فرنسا وإيطاليا ، وما كان أحدٌ ليَجرُؤَ على العبورِ إلاّ بإذنٍ منهم .

وكان الحُجَّاجُ يخرُجُونَ من فرنسا وإسبانيا وإنجلترا قاصِدِينَ روما ، وكانوا يمُرُّونَ بمعابِرِ جبالِ الألب ، فلمَّا وَضَعَ العَربُ أيدِيَهم على تلكَ المعابِرِ ، راحُوا يُحَصِّلونَ من الحُجَّاجِ رسمَ عبور .

٦

وشرعَ العرَبُ يُهاجِمونَ سويسرا وبيمونْت من جبالِ الألْب ، ووقَعَ الرُّعبُ في قلوبِ النَّاس ، فكانَ الأغنِياءُ منهم يفِرُّونَ إلى الشَّمال ، يحمِلونَ نفائِسَهم وأموالَهم ، فِرارًا من العربِ الذينَ راحُوا

يكتَسِحُونَ البلاد ؛ وحَنِقَ الكونتُ هوغ ملكُ بُروفَنْس ، وأعلَنَ عزْمَه على طَرْدِ المسلمينَ من البِلاد .

كان حِصنُ فركسنيتْ معقِلًا للعرب ، يشنُّونَ منه الغاراتِ على داخلِ البِلاد ، فعَقَدَ هوغُ العَزمَ على الانقِضاضِ على ذلك الحِصن . ولَمّا كان مُصاهِرًا لإمبراطورِ القُسطنطينيَّة ، فقد أرسَلَ إليه ، يطلبُ منه أن يُرسِلَ إليه أسطُولَه ، ليُعاوِنَه في قتالِ المسلمين .

وزَحَفَ هوغُ على حِصنِ فركسنيت بجيشٍ جَرَّارٍ من البَرِّ ، وجاءَ أسطُولُ القُسطنطينيَّةَ من البحر ، وكان يملِكُ نَفّاطات ، يُقالُ لها « النّارُ الإغريقِيَّة » وكانت النارُ الإغريقِيَّةُ تُستَعمَلُ في أثناءِ الالتحام ، وتُطلَقُ من أنابيبَ طويلَةٍ من النُّحاس ، رُكِّبت على

مِضخّاتٍ توضَعُ فى مُقَدِّمةِ السُّفن ، تقذِفُ وابلا من النّيرانِ السَّائِلةِ المضُطرِبة .

وأطلقَ الأسطولُ الرُّومانىُّ نارَه من سُفُنِه ، فأحرقَ مراكبَ المُسلمين ، وتمكّنَ جيشُ هُوغٍ من الحِصن ، والتجأ هُوغ ، إلى الجِبال المُجاوِرة ، ولكن جاءَ الخبرُ إلى هوغ ، وهو منهَمكٌ فى حربِه ، أنَّ بيرانجه ، الذى كان يُنازِعُه مملكةَ إيطاليا ، وكان قد فَرَّ إلى ألمانيا ، قد عادَ إلى الدَّولةِ ثانية ، فنسى هُوغُ خطرَ العرب وأسرعَ إلى مُهَادَنَتِهم ، على أن يَقطَعُوا الطَّريقَ فى مَعبَرِ سان برنار ، وسائِرِ معابِرِ الألب على بيرانجه .

وَتوطَّدَتْ أقدامُ العربِ فى المِنطَقة ، فراحُوا يتزوَّجُونَ من أعرقِ البُيوت ، وأجملِ النِّساء ، وأخذَ أمراءُ النّواحِى يَستعينُونَ بهم على أعدائِهم ، كلّما لاح الخطر .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

عبد الرحمن الناصر

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

اضطربت الأمورُ فى الأندَلُس وراح الثُّوَّارُ يُعلِنونَ العِصيانَ فى كلِّ مكان ، وصارَتِ الأندَلُسُ ميدانًا لكلِّ طامِعٍ من الوُلاة ، بالاستقلالِ بما تحتَ يدِه من الأقاليمِ والبلاد ، وكانَ عُمَرُ بنُ حَفصُونَ أوّلَ من ثارَ على أمراءِ الأندَلُس ، أيّامَ الأميرِ محمَّدِ ابنِ عبدِ الرَّحمن الأوسط . وقد انضمَّ إليه كثيرٌ من الجند ، وابتَنى قلعة ، واستَولَى على غَربِ الأندَلُس .

وفى أثناء اندِلاعِ لهيبِ هذه الفِتن ، تولَّى عبدُ الرَّحمنِ النّاصرِ الأندلس .

وكان عبدُ الرَّحمنِ شابًّا يتطَلّعُ إلى المَجد ، مُولَعًا بالكِفاح ، فما إن ماتَ عبدُ اللّه بنُ محمَّدِ

ابنِ عبدِ الرَّحمن ، أميرُ الأندلس ، حتّى تولّى عبدُ الرَّحمنِ حَفِيدُه الأمرَ ، وأعمامُه وأعمامُ أبيهِ حاضرون ؛ ولَعلّهم لم ينازِعُوه الأمر ، لأنَّ الفِتنَةَ كانت قد طبَّقَتْ آفاقَ الأندَلُس ، والخِلافُ فاش فى كل ناحيةٍ منها ، وقد لاحَ أنَّ مُلكَ بنى أمَيَّةَ فى الأندَلس ، يلفظُ آخِرَ أنفاسِه .

وعَزَمَ عبدُ الرَّحمنِ على أن يُعيدَ الهَيبَةَ إلى أمراءِ الأندَلس ، وإن اقتَضَى الأمرُ أن يفتتِحَها مدينةً مدينة . فَعَبَّأ الجيوش ، وبَعثَ عمَّه المُظَفَّرَ إلى ابنِ حَفصُونَ الثّائِر ، الذى تحالَفَ مع حَنشُو غرسيه مَلِكِ نابار ، وأوردُونَةَ ملكِ لِيون ، ومقاتلة الفرنسِيِّين .

والتقى جيشُ عبدِ الرَّحمنِ بجيوشِ ابنِ حَفصُونَ وحُلفائِه ، فانتَصرتْ جيوشُ عبدِ الرَّحمن ، وقطَعَتْ جبالُ البيرانِيه ، واكتَسَحَت جانبًا عظيمًا من غَشقُونِية ، وراحتْ تقرَعُ أبوابَ طلوزَة ،

واستَمرَّتْ فى قِتالِها المُظَفَّرِ حتى ماتَ ابنُ حَفصُونَ فى حِصارِه .

٢

وكان أحمَدُ بنُ إسحاقَ وزيرًا لعبدِ الرَّحمن ، وقد غَضِبَ عبدُ الرَّحمنِ عليه ، فقتَلَه ، فثارَ أخوهُ أمَيَّةُ ابنُ إسحاق ، بمدينةِ شَنْترِين ، والتجأ إلى رُودْمير ملكِ الجَلالِقَة ، فجمَعَ عبدُ الرَّحمنِ جيوشَه وانطلَقَ فى أزيَدَ من مائةِ ألفٍ من النّاس ، إلى مدينةِ سَمُّورَة ، عاصِمةِ الجَلالِقَة .

كانت سَمُّورَة مدينة حَصِينة ، عليها سَبعةُ أسوار من أعجَبِ البُنيان ، وبينَ الأسوارِ حوائِطُ قصِيرةٌ ، وخَنادِقُ ومِياهٌ واسعة ، فهجَمَ عبدُ الرَّحمنِ بجُيُوشِهِ على المدينة ، وافتتحَ منها سُورَين ، وعَبَرُوا الخَندَق ،

وإذا بجُيوشِ الجلالِقةِ تنقَضُّ عليهم ، وتُعمِلُ سيوفَها فيهم ، فقُتلَ من المسلمينَ خمسونَ ألفا .

رأى أمَيَّةُ بنُ إسحاقَ إخوانَه يسقُطونَ صَرعَى ، فاستيقَظَ ضَميرُه ، وقرَّر رودميرُ أن ينطَلِقَ خلفَ المسلمينَ المُنهَزمين ، ليقضِيَ عليهم ، فدنا منه إسحاق ، وخَوَّفَه الكَمِين ، ورغَّبَه فيما كان فى عسكَرِ المسلمينَ من الأموالِ والعُدَّةِ والخزائِن ، فهُرِعَ جَيشُ رودميرَ إلى الغَنائِم ، فتَمَّ للنّاجِينَ من المسلمينَ الانسحابُ فى سلام .

وتَخَلَّصَ أميَّةُ بنُ إسحاقَ من رودمير ، وذهبَ إلى عبدِ الرَّحمن ، فقبلَه أحسنَ قَبول . وجَهَّزَ عبدُ الرَّحمنِ بعد هذه الوقْعَةِ عساكِرَ مع عِدَّةٍ من قُوّادِه إلى الجَلالِقة ، فسارَتِ الجُيوشُ تطلُبُ ثأرَ الذينَ قُتِلوا عندَ الخَندَق . ودارت بينَ المسلمينِ والجَلالِقةِ معارِكُ رهِيبة ، هلكَ فيها من الجلالِقةِ ضِعْفُ ما قُتلَ من المسلمينَ فى الوقعةِ الأولى .

وافتتحَ عبدُ الرَّحمنِ الأندلُسَ مدينةً بعدَ مَدينة ، وقتلَ حُماتَها ، واستَذَلَّ رجالَها ، وهدَمَ مَعاقِلَها ، حتى دانت له الأندَلُسُ جميعا .

٣

رأى عبدُ الرَّحمنِ استِبدادَ مَوالِي التُّركِ على بني العَبَّاس ، وبلغَه أنَّ الخَليفةَ العبَّاسيَّ المُقتَدِرَ قد قَتَلَه مَولاهُ مُؤنِس ، في ثَورَةٍ جامحةٍ اكتَسَحَتْ بغداد ، فَتَيَقَّنَ أنَّ أمرَ خُلفاءِ بني العبَّاسِ قد هانَ ، وأنَّه أحقُّ بالخِلافَةِ منهم ، فتسَمَّى بأميرِ المؤمنين ، وتلقَّبَ بألقابِ الخِلافة ؛ فأعادَ إلى الأندلُس عزَّها ، وأوصَلَها إلى أعلى ذُرا المَجد ، وحَفِظَ للخِلافةِ هَيبَتَها ووقارَها ، بعدَ أن ذَلَّت في آخرِ أيَّامِ خُلفاءِ بني العَبَّاس .

وتغَلَّبَ الألمانُ في ذلكَ الوقتِ على المجار ، فتنفَّستْ سويسرَةُ نسيمَ الحُرِّيَّة ، ولكنَّ البُروفانسَ

والدُّوفينَ وجانبًا من جبالِ الألب ، وبقِيتْ تحتَ حُكمِ العرب . وصارَ « أوتُون » ملكُ جرمانية ، أعظمَ ملوكِ أوربَّا ، فراحَ يتقَرَّبُ من عبدِ الرَّحمنِ النَّاصِر ، ويبعثُ إليهِ الوُفودَ تَوَدُّدا .

وبلغَتْ قُرطُبَةُ في عهدِ عبد الرَّحمنِ شَأوًا عظيمًا في المجد ، وانتشرتْ فيها العلوم ، والمعارف ، والصَّنائِع ، والفنون ، والسِّياسة ، حتَّى أدهَشَت أوروبَّا بعظَمتِها ، وحتَّى صارَ عبدُ الرَّحمنِ قِبلَةَ ملوكِ العَصر ؛ فراحَ البابا يُراسِلُه ، وبسطَ إمبراطورُ القُسطنطِينيَّة ، وأمراءُ أسبانيا ، وملوكُ فرنسا ، وألمانيا وبلادِ الصَّقالِبة ، أيدِي الخُضوعِ له ، وصارَ شرفًا عظيمًا لهم ، أن يَمُدَّ الخَليفةُ يدَه لسُفرائِهم ليُقبِّلوها .

وأرسلَ قُسطنطين ، صاحبُ قسطنطينيَّة ، إلى عبدِ الرَّحمنِ رُسُلَه ، يحملونَ إليه هَديَّة ، فتأهَّبَ النَّاصِرُ لاستقبالِهم ، فركِبَتِ العساكِرُ بالسِّلاحِ في أكملِ

عُدَّة ، وزُيِّنَ قَصْرُ قُرطُبَـةَ بـأنواعِ الزِّينـة ، وأصنـافِ السُّتُور ؛ ولَمّا اقتربَ الرُّسـلُ من قُرطُبـة ، خـرجَ إلى لقائِهم القُوَّادُ فى العَـدَدِ والعُدَّةِ والتَّعبِئـة ، فتلقَّوهـم قائدًا بعدَ قائد ، ورحلَ النَّاصِرُ من قصرِ الزَّهـراءِ إلى قصرِ قُرطبة ، لدخولِ وفُودِ الرُّومِ عليه ، فقعَـدَ فـى بَهوِ المَجلِس ، قُعودًا رائِعًا نبيلا ، وقعدَ على يمينِه ولىُّ العَهدِ من بنيه : الحَكَم ثمَّ عبدُ الله ، ثم عبدُ العزيز ، ثمَّ الأصبَغ ، ثم مَروان ؛ وقعَدَ عن يسارِه المُنذِر ، ثم عبـدُ الجَبَّار ، ثـم سُليمان . وحضَـرَ الـوزراءُ علـى مَراتِبهـم يمينـا وشِـمالا ، ووقـفَ الحُجَّـابُ مـن أهلِ الخِدمَةِ من أبناءِ الوزراءِ والموالى ، وقدْ فُـرِشَ صَحـنُ الـدَّار بـأبدَعِ البُسـط ، وأجمَـلِ الطَّنـافِس ، وظُلِّلـتْ أبوابُ الدَّارِ وحَنَاياها بظُلَلِ الدِّيباجِ ورفيعِ السُّتُور ، ودخلَ الرُّسـلُ فهـالَهم مـا رأوا ، وقرَّبـوا حتّـى أدَّوا رسـالَتهم ، وكـان الكِتـابُ فـى رَقٍّ مصبـوغٍ لونـا

سَـماويًّا مكتـوب بـالذَّهبِ بـالخَطِّ الإغريقِـىّ ، وفـى داخِـلِ الكتـابِ مُدْرَجَـةٌ مصبوغَـةٌ أيضًـا ، مكتوبَـةٌ بفضة ، فيها وَصْفُ هَدِيَّته التى أرسَلَ بها وعدَدُهـا ، وعلى الكِتـابِ طـابَعُ ذهـب ، وزنُـه أربعـةُ مثـاقيل ، على الوجهِ الواحِدِ منه صورةُ المسيح ، وعلى الآخَـرِ صورةُ قسطنطينَ المَلِك ، وصورة ولده .

وأمـرَ عبـدُ الرَّحمـنِ الأعـلامَ أن يخطُبُـوا فـى ذلـكَ المَحفـل ، ويُعَظِّمـوا مـن أمـرِ الإسـلامِ والخِلافـة ، ويشـكروا نِعمَـةَ اللّـهِ على ظهـورِ دينِـه وإعـزازِه ، فاستَعدُّوا لذلك .

قامَ محمَّدُ بنُ عبدِ البَرّ ، صنيعَةُ ولِىِّ العَهـدِ الحكَـم ليَخطُـب ، وكـانَ يدَّعِـى مـن القُـدرةِ علـى تـأليفِ الكلامِ ما ليسَ فى وُسـعِ غَيرِه ، وحـاوَلَ أن يصِـفَ ما رأى ، فهالَه وبَهَرَه هولُ المَقـام ، وأبَّـهةُ الخِلافَـة ، فلم يهتَـدِ إلى لفظَـة ، بـل غُشِـىَ عليـه ، وسـقَطَ إلى الأرض .

٤

وقيلَ لأبِى علىٍّ القَالِىّ ، صاحِبِ الأمالى والنّوادِر ، وهو حينئذٍ ضَيفُ الخليفةِ الوافِدُ عليه من العراق ، وأميرُ الكلام ، وبحرُ اللُّغة :

ـ قم فارفَعْ هذا الوَهْى .

فقام أبو علىٍّ القالىّ ، وقال :

ـ الحمدُ للّه ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمدٍ ﷺ ...

ثمَّ انقطَعَ القولُ بالقَالىّ ، فوقفَ ساكِتًا مُفكّرًا ، لا ناسيًا ولا متذكِّرا ، وراحَ عبدُ الرَّحمن يتلفّتُ إلى الحَكمِ ولِىِّ عهدِه ، ولاحَتِ الحَيرةُ فى وَجهِ الحكم ، وكادَ زِمامُ الأمرِ يُفلِت ، فقد وجَمَ العُلماءُ ، والتصَقَتْ ألسِنَتُهم بحلوقهم ، وإذا بعالِم ينهض ، ويبدأ من المكانِ الذى انتهى إليه أبو علىّ ، واستمرَّ

يتدَفّق فى قولِه حتى قال :

ـ ألم تكنْ الدِّماءُ مسفُوكةً فحقَنهَا ؟ والسُّبُلُ مَخُوفَةً فأمَّنَها ؟ والأموالُ مُنتَهبَةً فأحرزَها وحَصَّنَها ؟ ألم تكُنِ البلادُ خَرابًا فعمَّرَها ؟ وثغورَ المسلمينَ مُهْتَضَمةً فحماها ونصَرَها ؟ فاذْكُروا آلاءَ اللّه عليكُم بخلافَتِه ، وتلافِيَهُ جمعَ كلِمَتِكم بعدَ افتِراقها بإمامَتِه ، حتى أذهَبَ اللّه عنكم غيظكم ، وشَفى صدُورَكم ، وصِرتُم يدًا على عَدُوِّكم ، بعد أن كان بأسُكم بينكم .

وظَلَّ المُنذِرُ فى تَدَفُّقِه كأنّه الجَدولُ الرَّقْراق ، والنّاصِرُ يُصيخُ السَّمعَ إليه ، مُعجَبًا بَبلاغَتِه . وانتهى المحفَل ، فأقبَلَ الناصرُ على ابنِه الحكَم ، يسأله :

ـ مَن هذا الخطيب ؟

ـ هذا مُنذِرُ بنُ سعيدٍ البَلُّوطىّ .

فقال النّاصر :

ـ واللّه لقد أحسنَ ما شاء ، ولَئِن أخَّرنِيَ اللّهُ بعدُ لأرفَعَنَّ من ذِكره ، فضَعْ يدَكَ يا حَكَمُ عليه واستخلِصْه ، وذكِّرنِي بشأنِه ، فما للصَّنِيعَةِ مَذهَبٌ عنه .

وخرجَ النَّاسُ يتحدَّثونَ عن رباطَةِ جأشِ المُنذِر ، وثباتِ جَنانِه ، وبلاغةِ لسانِه ، وَولاّه عبدُ الرَّحمنِ قضاءَ الجماعة .

٥

وبعثَ أوتونُ ملِكُ الألمانِ رُسُلَه إلى عبدِ الرَّحمنِ النَّاصِرِ ، وقدِ اختارَ راهِبًا من دَيرِ غورزِ يُقال له جان ، لتضَلُّعِه في علمِ اللاَّهُوت ، ليكونَ ضِمْنَ سُفَرائِه . سارَ الرَّاهِبُ جانُ ماشِيًا على قَدَميه إلى « فيين » على نهرِ الرُّون ، ومنها ركِبَ في البحر إلى برشلونة ، التي كانت تابعةً لفرنسا ، وانتقل منها إلى طُرطوشة ، وكانت أوَّل مدينة تخصُّ النَّاصر . فلمَّا بلغَ سفراءُ ملكِ الفرنجة طُرطُوشَة ، وأَذِنَ لهم عامِلُهَا بالمَسِيرِ في قُرطبة ، انطلقُوا في البلاد ، وصاروا يَنزِلُونَ ضيُوفًا على أهالي الأندَلُس . فأكرمُوا وِفَادَتَهم ، ممَّا جُبِلَ عليه العربُ من كرم ، فبلغُوا قُرطبة ، دون أن يتكلَّفُوا دِرهما واحدا .

وعَلِمَ النّاصِرُ بوصولِ وفدِ ملكِ الفِرنجة ، وبأنَّ الرّاهبَ جان فى الوفدِ الرّسمى ، وأنّه ما جاءَ إلاّ لإثارةِ جدَل دينىّ ، فبعثَ النّاصِر إليه :

ـ إنّه لا يليقُ أن يدخلَ ملِكان عظيمان ، كالنّاصِرِ والإمبراطورِ أوتون ، فى جَدَل دينىّ .

فلم يقبَلِ الرّاهبُ ذلك الرّأى ، فما تجشّمَ الصّعابَ إلاّ ليُعلِنَ رأيَه الدّينىّ . وركِبَ الرّاهِبُ رأسَه ، فجاءَه مُطرانُ قُرطبةَ ينصَحُهُ بتَرْكِ هذا العِناد ، فثارَ جان فيه ، وقال له :

ـ كفاكم ذُلاّ ، لقد رَضِيتُم بختانِ أولادِكم ، وامتَنعتُم عن أكلِ الخِنزيرِ لإرضاء العرب ، فاذهب عنّى فلن أسمَعْ لك .

وعلِمَ النّاصِرُ بعنادِ الرّاهب ، وتشبُّثِه بإثارةِ الجَدَلِ الدّينىّ ، فبعثَ إليه :

ـ كنتُ قد بعثتُ أحدِ الأساقِفةِ سفيرًا عنى ،

فأنظَرَهُ أوتونُ ثلاثَ سنوات ، لذلكَ أُنظِرُ سفيرَ أوتون تِسعَ سنوات ، فأنا أكبرُ من أوتونَ ثلاثَ مرّات .

ومشت سِفاراتٌ بينَ عبدِ الرّحمنِ النّاصرِ وأوتون ، انتهَت بأنْ أذِنَ النّاصِرُ للرّاهِبِ جان بمقابَلتِه ، فتقَدَّمَ الرّاهب ، وقد فُرِشَتْ أمامَه مداخلُ القَصْرِ بالبُسطِ والدِّيباج ، فما زالَ يتقَدَّمُ إلى أن وصلَ إلى البَهوِ الذى فيه الخليفة ، فوجَدَ الناصرَ جالسًا على سريرِ الخِلافَة ، فلمَّا وَصلَ الرّاهبُ إلى مَجلِسِه ، قدَّمَ عبدُ الرَّحمنِ إليه باطِنَ يده ، تمييزًا له عن غيرِهِ ، فَقَبَّلَها الرّاهب ، ثم أُمِرَ له بالجُلوس .

وتحدَّثَ الرّاهِب ، فراحَ يتوسَّطُ لدى الخَليفةِ لِوضْعِ حدٍّ لغاراتِ العربِ فى فرنسا وإيطاليا ، وأن تكُفَّ المُستَعمَرةُ العربيَّةُ فى جبالِ الألب ، عن شنِّ الغارةِ على البِلادِ المُجاورة ، فوعَدَه النّاصِرُ خيرا .

ومات النّاصِرُ ، وقدْ خلّفَ فى بيوتِ الأموال خمسَةَ آلافِ ألفِ ثلاثَ مرّات ، وقد وُجدَ بخطِّ النّاصِرِ أنَّ أيّامَ السُّرورِ التى صَفَتْ له دونَ تكديرٍ ، يومُ كذا من شهرِ كذا من سنةِ كذا ، ويومُ كذا من كذا ، وعُدَّتْ تلكَ الأيّامُ فكانت أربعةَ عشرَ يوما .

أربعةَ عشرَ يومًا هى كلُّ أيّامِ السُّرور فى حياةِ خليفةٍ ضُرِبَ به المَثَلُ فى الارتِقاءِ فى الدُّنيا ، وقد ملَكَ خمسينَ سنة ، وسبعَةَ أشهُرٍ ، وثلاثةَ أيّام .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الحكم بن الناصر

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

ماتَ النّاصِر ، فاعتلَى الحَكَمُ المُسْتَنْصِرُ باللّه سريرَ المُلك ، ثانِيَ يومِ وفاة أبيه ، وبعثَ الكتبَ إلى البلادِ بتمامِ الأمرِ له ، ودعا النّاسَ إلى بيعَتِه ، وأوّلُ ما أخذَ البَيعةَ على صَقالِبةِ قَصرِه ، وتكفّلُوا بأخذِها على من وراءَهم وتحتَ أيديهم من طبقَتِهم .

وكَمَلَت بَيعَةُ أهلِ قصرِه ، وأمَرَ عظيمَ دولَتِه جعفَرَ بنَ عُثمانَ المُصحَفىّ ، بالإسراعِ إليه بأخيه أبى مَروانَ عُبيدِ اللّه المُتخَلّف ، ليُبايعَه على الخِلافة ، وأرسلَ عَظيمًا آخرَ للإتْيانِ بشَقيقِه الثّانى . ونفّذَ غيرَهما من وجوهِ الرِّجالِ فى الخيل ، لإتيانِ غيرِهما من الإخوة ، وكانوا يومئذٍ ثمانية ، فوافَى جميعُهم

الزَّهراءَ فى اللّيل .

وفى الصَّباح ، قعَدَ المُستنصِرُ باللّه على سريرِ المُلك ، فى البَهو الأوسط ، من الأبهاء المُذْهَبةِ القِبلِيَّة ، التى فى السَّطحِ المُمَرَّد ؛ فَدَخَلَ إخوَتُه عليه ، فكانوا أوّلَ المُبايعين ؛ وأنصَتُوا لصحيفةِ البَيعة ، والتَزمُوا الأَيمانَ المنصوصة ، لكلِّ ما انعَقَدَ فيها ، ثمَّ بايَعَ بعدَهم الوُزراء ، وأولادُهم وإخوَتُهم ، ثم أصحابُ الشُّرطة ، وطبقاتُ أهلِ الخِدمة ؛ وقَعَدَ الإخوَةُ والوزراءُ والوُجوهُ عن يمينِه وشِمالِه .

واصطَفَّ فى المجلِسِ أكابرُ الفِتيان يمينًا وشِمالا ، إلى آخرِ البَهو ، كلٌّ منهم على قَدْرِه فى المنزِلة ، عليهمُ الظّهائِرُ البيض ، شِعارُ الحُزنِ فى الأندلُس ، فقد أُعلِنَ الحِدادُ لموتِ عبدِ الرّحمنِ النّاصِر ، أعظمِ من حكَمَ الأندلُس .

اصطفَّ الفِتيانُ الصَّقالِبةُ الخُصيْان ، وقد لَبسُوا البَياض ، بأيدِيهمُ السُّيوف ، يتَّصِلُ بهم مَن دُونَهم من طبقاتِ الفِتيانِ الصَّقالِبة ؛ ثمَّ تَلاهُمُ الرُّماةُ متنكِّبِينَ قِسِيَّهم وجِعابَهم ؛ ثمَّ وَصَلَت صُفوفُ هؤلاء الخُصيانِ الصقالِبة ، وصفوفُ العبيدِ الفُحول ، شاكية فى الأسلِحةِ الرَّائقة ، والعُدَّةِ الكامِلة ؛ وقامَتِ التَّعبِئَةُ فى دارِ الجُند : العبيدُ عليهم الجَواشِنُ والأقبِيةُ البِيض ، وعلى رُءوسِهمُ البَيضاتُ الصَّقْلَبِيَّة ، وبأيدِيهم التِّراس الملوَّنة ، والأسلحة المُزيَّنة .

وعلى بابِ السُّدَّةِ الأعظم ، البوَّابونَ وأعوانُهم ؛ ومن خارجِ بابِ السُّدَّةِ فُرسانُ العَبيد ، إلى بابِ الأقباء ، واتَّصلَ بهم فُرسانُ الحَشم ، وطبقاتُ الجُندِ والعَبيدِ والرُّماة ، موكِبًا إثرَ موكِب ، إلى بابِ المَدينةِ

الشَّارعِ إلى الصَّحَراء .

وتمَّتِ البيعةُ للحكَم ، فَأُذِنَ للناسِ بالانصراف ، إلاَّ الإخوةَ والوزراءَ وأهلَ الخِدمة ، فإنَّهم مكَثُوا بقصرِ الزَّهراء ، ليحتَمِلوا جَسَدَ النَّاصِر ، إلى قصرِ قُرطُبة ، ليَقبُروهُ فى تُربَةِ الخُلفاء .

٢

ماتَ النَّاصِر ، فطَمِعَ الجَلالِقَةُ فى الثُّغور ، فغزاهُمُ الحَكَمُ بنفسِه ، وفَتحَ سَنْتَ استيبانِى عَنوة ، واستَباحَها . ثم عادَ إلى قُرطُبة ، وبعثَ قائِدَه ومَولاهُ غالبًا النَّاصِرىّ ، إلى بلادِ جلِّيقِيَّة . فانطلَقَتِ الجُيوشُ الإسلاميَّةُ إلى مدينةِ سالِم ، الواقِعةِ على رافدٍ من روافِدِ نهرِ طرطُوشَة . وعلِمَ الجَلالِقةُ بخروجِ غالِب ، فجمَعُوا له الجُموعَ ، وسارُوا للقائِه ، وما إن التقَى

الجَمعان ، حتّى انهزَمَ الجلالِقة ، ونصَرَ اللّهُ غالِبًا نصرًا مُؤزَّرا .

رأى أُردُون ، المُتملِّكُ على طوائِفَ من الأُمم الجلالِقة ، والمُنازِعُ لابنِ عَمِّه حنسو (شانجه) ، الذى ارتبطَ بمعاهَدةٍ مع النّاصر ، نصرَ غالب ، وبلَغه اعتزامُ الحَكَمِ على غزْوِ بِلاده ، فقرَّرَ المَسيرَ إلى بابِ الحَكَم ، غيرَ طالِبِ إذن ، ولا مُستَظهِرٍ بعهد .

خرجَ أُردونُ فى عِشرِينَ رجُلا من وجوهِ أصحابه ، وقابَلَ غالبًا ، والتمَسَ منه أن يذهَبَ به إلى الحَكمِ مَولاه ، فسارَ غالبٌ وأُردونُ وأصحابُه إلى قُرطبة ، وبلغَ الحَكمَ مسيرُهم نحوَه ، فأرسَلَ كتيبَةً من الحَشَم ، لتِلْقَى غالِبًا النّاصِرىّ .

ونزلَ أُردونُ وأصحابُه قُرطُبة ؛ وفى ثانِى يومِ نزولِهم ، أرسلَ إليهمُ الحكَمُ جيشًا عظيما كامِلَ

التّعبئة ، تحرَّكَ بهم إلى القَصر ، فلمَّا بلغَ أُردونُ باب السُّدَّة ، وباب الجنان ، سأل عن مكانِ قبرِ النّاصِرِ ، فأشيرَ إلى ما يُوازى موضِعَه من داخِلِ القَصْرِ من الرَّوضة ، فخلَعَ قَلَنْسُوَته ، وخَضَعَ نحوَ مكانِ القَبرِ ودعا ، ثمَّ رَدَّ قلنسُوته إلى رأسه .

بقى أُردونُ يومَ الخميسِ والجُمعةِ ينتظِرُ الإذنَ له بالمُثولِ بين يدى الحاكِم ، وفى يومِ السَّبت عُبِّىءَ الجيش ، وأُقيمَ التّرتيب ، لاستقبالِ أُردون ، فقعَدَ المُستَنصِرُ باللّه على سرير المُلك ، فى المجلِس الشَّرقىّ من مجالِسِ السَّطح ؛ وقعَدَ الإخوةُ وبنوهم والوزراء ؛ وجىءَ بأُردونَ وقد لَبِسَ ثوبًا دِيباجيًّا روميًّا أبيض ، وعلى رأسِه قَلَنْسُوةٌ روميَّةٌ ، منظومةٌ بجوهر ، وقدْ حَفَّته جماعَةٌ من نصارَى وجوهِ الذِّمَّةِ بالأندَلُس ، يؤنِسُونَه ويُبَصِّرُونَه ، فيهم ولِيدُ بن حَيزُون ، قاضى

النَّصارَى بقُرطُبة ، وعبيدُ اللّه بنُ قاسم ، مُطرانُ طُليطُلة ، وراحوا يتقَدَّمونَ على جيادِهم .

دخلَ أُردونُ بينَ صَفّى الجُند ، يُقَلِّبُ الطَّرفَ فى نَظْمِ الصُّفوف ، ويُجيلُ الفِكرَ فى كَثْرَتِها ، فَراعَه ما رأى . وصلَ إلى بابِ الأقباء ، أوَّل بابِ قصرِ الزَّهراء ، فترَجَّلَ الجَميع . وتقَدَّمَ المَلِكُ أُردونُ على جَوادِه ، حتّى انتهى إلى بابِ السُّدَّة ، ثمَّ سارَ على جوادِه ، فلمَّا وَصَلَ إلى البَهوِ الأوسطِ من الأبهاءِ القِبلِيَّة ، التى بدارِ الجُند ، نزَلَ على كُرسىٍّ مرتفِع ، مكسُوِّ الأوصالِ بالفِضَّة ، حيثُ نزَلَ قَبلَه عدُوُّهُ ومُناوِئُه حَنسُو (شانجه) ، الوافِدُ على النّاصر ، يُعاهِدُه ويطلُبُ حِمايَتَه ونصرَه .

٣

وخرجَ الإذنُ لأُردونَ المَلِكِ من الحَكَمِ المُستنصرِ باللّه ، بالدُّخولِ عليه ؛ فتقَدَّمَ يمشِى ، وأصحابُه يَتبَعُونَه ، إلى أن وصلَ إلى السَّطْح ، فلمَّا قابَلَ المجلسَ الشَّرقىّ الذى فيه الحَكم ، وقَفَ وكشفَ رأسَه ، وخلَعَ بُرْنُسَه ، وبَقِىَ حاسِرا ، إعظامًا لما بانَ له من الدُّنُوِّ إلى السَّرير . واستُنهِضَ ، فمضى بينَ الصَّفَّينِ المُرَتَّبَين فى ساحَةِ السَّطح ، إلى أن قَطَعَ السَّطح ، وانتهى إلى بابِ البَهو .

وقابَلَ السَّرير ، فخرَّ ساجِدًا سُوَيعَة ، ثمَّ نَهَضَ خَطوات وعادَ إلى السُّجود ، ووالَى ذلكَ مِرارًا ، إلى أن قَدِمَ بينَ يدى الخَليفة ، ومالَ إلى يدِه ، فناوَلَه

إيَّاها ، وكرَّ راجعًا مُتقَهقِرًا على عقِبَيه ، إلى وِسادِ دِيباج مُثْقَل بالذَّهب ، جُعِلَ له هُناك ، وَوُضِعَ على قَدرِ عشرةِ أذرُع من السَّرير .

جلسَ أُردونُ على الوِساد ، والبَهْرُ قَد علاه ؛ ووصَلَ وليدُ بنُ حَيزون ، قاضِي النَّصارَى بقُرطُبة ، فكانَ التَّرجُمانَ عن الملِك أُردُونَ ذلك اليوم ، فأطرقَ الخَليفةُ الحَكمُ عن تكليمِ أردون وقتًا كَيما يهدأ ، ثمَّ قال الحكَم :

ـ ليَسُرَّكَ إقبالُك ، ويُغبطكَ تأمِيلُك ، فلدينا لك عن حُسنِ رأينا ، ورَحبِ قَبُولِنا ، فَوقَ ما قَد طلَبْتَه .

فلمَّا تُرجِمَ له كلامُه إيَّاه ، تطلَّقَ وجه أُردون ، وقبَّلَ البِساط ، وقال :

ـ أنا عبدُ أمير المؤمنين ، فحيثُ وَضَعَني من فَضلِه ، وعوَّضَني من خِدمَتِه ، رجوتُ أن أتقدَّمَ فيه

بنيَّةٍ صادِقة ، ونصيحةٍ خالِصة .

فقال له الخليفة :

ـ أنتَ عندَنا بمحَلٍّ من يستَحِقُّ حُسنَ رأيِنا ، وسينالُكَ من تقديمِنا لك ، وتفضِيلِنا إيَّاك على أهلِ مِلَّتِك ، ما يُغبطُك ، وتتعرَّفُ به فضلَ جُنوحِك إلينا ، واستظلالِكَ بظلِّ سُلطانِنا .

فعادَ أُردونُ إلى السُّجود ، وابتهَلَ داعيًا وقال :

ـ إنَّ حنْسو « شانجة » ابنَ عمِّي ، تقدَّمَ إلى الخليفةِ الماضى مُستَجِيرًا به منِّي ، فكانَ من إعزازِه إيَّاه ، ما يكونُ من مِثلِه من أعاظِمِ المُلوك ، وأكارِمِ الخُلفاء ، لمن قَصدَهم وأمَّلَهم ، وكان قَصدَهُ قَصْدَ مُضطَرّ ، قد كرِهَتْه رعِيَّتُه ، وأنكَرَت سِيرَتَه ، واختارتْني لمكانِه ، من غير سعيٍ منِّي ـ علِمَ اللّه ذلك ـ ولا دعاءٍ إليه . فخلَعتْه وأخرجَتْه عن ملكِه ،

مضطرًّا مُضطهَدا ، فأنعمَ عليه ـ رحِمَه اللّه ـ بأن صرَفَه إلى مُلكِه ، وقوَّى سُلطانَه ، وأعزَّ نصرَه ، ومعَ ذلك فلمْ يقُم بفرضِ النِّعمَة التى أُسدِيَتْ إليه ، وقصَّرَ فى أداءِ المفروضِ عليه ، وحقِّه وحقِّ مولاى أمير المؤمنينَ من بعدِه .

وظلَّ أُردون يتودَّد ، ويُزكِّى نفسَه ، ويلتَمِسُ رضا الحَكَم ، حتّى وَعَدَه الخليفةُ بالنصر ، فكرَّرَ أُردُونُ الخُضوع ، وأسهَبَ فى الشُّكر ، وقامَ بالانصرافِ مُقَهْقِرًا ، لا يُوَلِّى الخليفةَ ظهرَه .

٤

وبعثَ مِلِكا بَرشَلُونة وطرَّكونة ، يسألانِ تَجدِيدَ الصُّلح ، وإقرارَهُما على ما كانا عليه ؛ وبَعثا بهَديَّة ، وهى عشرونَ صَبِيًّا من الخُصيانِ الصَّقالِبة ،

وعشرونَ قِنطارًا من صوفِ السَّمُّور ، وخمسةُ قناطِيرَ من القصدِير ، ومائَتا سيفٍ إفرنجيَّة . فتقبَّلَ الحَكَمُ الهَديَّة ، وعَقَدَ لهم على أن يهدِمُوا الحصونَ التى تضُرُّ بالثُّغور .

وتمَّ الصُّلحُ بينَ الحكَم وملوكِ الفِرنج ، فساءَ ذلك أصحابَ الجِهاد ، وأخذَ قُوَّادُه ووزراؤه يحُثُّونَه على نقْضِ الصُّلْح ، فالتفتَ إليهم ، وقال :

« وأوفُوا بالعَهدِ ، إنَّ العَهدَ كانَ مَسئُولا » .

وعَكَفَ الحَكَمُ على خِزانةِ كتبه ، يقرأ ما شاءَ له شغفُه بالعُلوم ، وكان ذا غرام بالكتب ، حتّى آثرَها على لذّاتِ المُلوك ، فجمعَ من الكتب أربعةَ آلافِ مُجلَّد ، وكان يستجلِبُ المُصنَّفاتِ من الأقالِيمِ والنَّواحِي ، باذلا فيها ما أمكنَ من الأموال ، حتى ضاقَتْ عنها خزائِنُه .

واصطفى الحَكَمُ جعفَرَ بنَ عثمانَ المُصحَفِيّ ، فاستَوزَرَه ، فكانَ أذُنَه التي يسمَعُ بها ، وعينَه التي يرى بها . واستفحلَ أمرُ المُصحَفِيّ ، فصارَ الحاكمَ الناهيَ في الدولة ، يُصَرِّفُ أُمورها ، ويسوسُ رعيَّتها ، والحَكَمُ غارقٌ في كُتُبه ، فقد مارَسَ الحُكمَ في زمانِ أبيه ، صدرَ ولايَتِه ، فزَهدَ فيه .

وأحبَّ الخليفةُ جاريَته صَبيحة (صُبْح) ، وكانت حَسنةَ الصَّوت ، فكانَ يُمضِي السَّاعاتِ يُصْغِي إلى صوتِها الحَنون ، يتجاوَبُ في أرجاءِ قصرِ الزَّهراءِ بقُرطُبة . ووضَعَتْ له هِشامًا وليَّ عهدِه ، فرفَعَها من جاريةٍ جاءَت من البَشْكَنْس إلى أميرَةِ قُرطبة[1] ، وأُمِّ وَلِيِّ العَهد ، وصارتْ تُدِيرُ أمورَ الدَّولةِ هي والمُصحَفِيّ .

(١) اقرأ أميرة قرطبة للمؤلف .

٥

ومَرِضَ الحَكَمُ ، ولَزِمَ فِراشَه ، وكانَ حِصْنُ فركَنْسِيت في قَلبِ فرنسا ، قد وقَعَ في أيدي العَرب ، من أكثرِ من ثمانِينَ سنة ، وكان مركزَ جميعِ العربِ المنتَشرينَ في فرنسا وشَماليِّ إيطاليا وفي سويسرة ، وقد رأى غليومُ كُونت بروفَنْس ، أنَّ الفُرصةَ سانحةٌ لطردِ العربِ من فَرنسا ، فاستَنفَرَ أهالِي بروفَنْس ، ودوفيني السُّفلَى ، ونيس ، لقتالِ العرب ، فلبّوا نداءَه ، واجتَمَعَ له جيشٌ جرَّار ، انطلَقَ إلى فَركنْسِيت ، معقِلِ العربِ الحَصين .

وعَلِمَ العربُ أن أهالي البِلاد ضَيَّقُوا عليهم من كل جانب ، فنزلُوا من جبالهم وساروا إلى « دارجنمان » ، ودارت معركةٌ رهيبةٌ بينَ العربِ

وجيوشِ غليوم فى « تورتور » ، انهزَمَ فيها العرب ، فثارَ الأهالى عليهم ، وراحُوا يقتَفُون أثَرَهم ، ويقتُلونَ كلَّ مَن يقَعُ فى أيديهم .

وفرَّ بعضُ النَّاجينَ من المسلمينَ إلى الأندلس ، وركِبَ بعضُهم البحر ، وذهبُوا إلى سَردينية ، وكانت فى يدِ المُعِزِّ لدِينِ اللّه الفاطِمىّ ؛ وكانَ المعِزُّ قابضًا على زِمامِ الجزيرة ، قبل أن يتحرَّكَ لفتحِ مصر .

وماتَ الخليفةُ الحكَم ، وقد تركَ ابنَه هِشامًا ولمَّا يبلُغِ الحُلُم : فتقلَّدَ الأمورَ المنصورُ بنُ أبى عامِر ، وكانَ آيةً باهِرَةً فى البَسالَة والإقدام ، وحُسنِ التَّدبير . فعزَمَ على أن يُعِيدَ للإسلامِ رَونَقَه الأوَّل ، وأن يَبُثَّ الغاراتِ فى أطرافِ بلادِ الفِرنجة ، وأن يحمِلَ الرَّايةَ الإسلامِيَّةَ إلى بلادٍ لم تخفُقْ فيها قبلَ تقلُّدِه لأمورِ الأندلُس .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الأميرة صبح

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

كانت السَّيدةُ صُبح ، من نِساء البشْكَنْس ، تلك المِنطَقةِ الواقِعةِ في شَمالِ أسبانيا ، بالقُربِ من جبال البيرانية ؛ وقد وقَعَتْ في السَّبى ، يومَ غزا العربُ تلك المِنطقةَ واجتاحُوها ، ولما كانت شابَّةً رائعةَ الجمال ، حُملَت إلى قصرِ الحَكَم بقُرطبة . وفى ذات يوم ، بينما الحَكمُ يجولُ في قصرِ الزَّهراء ، إذ مَسَّ أذنيه صوتُها الآسِر ؛ فانطَلَقَ إليها ؛ وجلسَ يُصغِي إلى النَّغمِ الحُلو المُطرب ؛ وما غادَرها حتى تركت في نفسِه أثرًا طيِّبًا . فكانَ كلَّما تعِبَ من أمورِ مُلكِه ، هُرِعَ إليها ، ليجدَ عندَها الرَّاحةَ والدَّعة والسَّلام .

ووضَعتْ له ولَدا ، فارتفعَتْ مكانَتُها عندَه ، وصارت أميرةً لقُرطُبة . ولم يجدْ في ذلك غضاضَة ،

فقد كثُرَ زواجُ الأُمراءِ والعُظماء ، بل عامَّةِ الشَّعب ، من أسبانيَّات ، بل كان الدَّمُ الأسبانِيّ يجرى في عُروقه ، فقد تزوَّجَ جَدُّه بماريَّةَ الأسبانِيَّة ، ورُزقَ منها والِدَه العَظيم ، عبد الرَّحمنِ النَّاصِر ، الذى كان أعظَمَ ملوكِ الأندلُس بلا مِراء .

واشتركتْ صُبحُ في إدارةِ شُئُون البلاد ، فكانت تجتَمِعُ كلَّ يومٍ بالمُصحَفِيّ ، رئيسِ الوُزراء ، تُصْدِرُ الأوامِرَ ، وتُشرِفُ على تحريرِ الكُتبِ إلى العُمَّال والقُوَّادِ والقُضاة . وفَطَنَ الحَكَمُ إلى ما تَبذُله صُبحُ من جَهدٍ في تصريفِ أمورِ الدَّولة ، فأمَرَ بأن يُعلِنَ القَصرُ عن حاجتِه إلى كاتبٍ للأميرة ، يُعاوِنُها في عملِها .

٢

تعلَّمَ محَمَّدُ بنُ أبى عامِر في جامِعةِ قُرطبة ، ولَّما أتَمَّ دِراستَه ، فتحَ حانُوتًا تُجاهَ القَصر ، يُحرِّرُ للنّاسِ

شَكاواهُم ، ويُنَمِّقُ لهم مظالِمَهم . وفى ذاتِ يـوم ؛ وفَـدَ إليـه بعـضُ صِحابـه من طُـلاَّبِ جامِعةِ قُرطبـة ، فخـرجَ معهم إلى مُتَنَزَّهٍ من المُتنزَّهات ، وشَرَدَ خيالُه ، فسألَه أحدُ أصحابِه عمَّا يَشغلُ بالَه ، فقال ابنُ أبى عامر :

ـــ سـأكونُ حـاكمَ هـذه الدَّولـةِ يومًـا مـا ؛ تَمَنَّـوا علىّ ، وليَختَرْ كلُّ واحدٍ منكمْ خُطَّة ، أولِيهِ إيَّاها إذا أُفضِىَ إلىَّ الأمر .

فقال أحدُهم :

ـ أتمنَّى أن تُوَلِّيَنى القَضاءَ بجهتى كُورةِ رَيَّـة ، فإنَّـه يُعجبُنـى هـذا التِّـينُ الـذى يجىءُ منهـا ، وأحِــبُّ أن أشتَفِىَ من أكلِه .

وقالَ ابنُ عَسقَلاجَة ، وكان ابنَ عَمِّه :

ـــ إنِّـــى أوثِـرُ قُرطبــةَ ذاتَ القُصــورِ العجيبــة ، والمساجدِ الفَخمة ، زينــةَ المُدن ، وعَروسَ البـلاد ، وأقصى ما أتَمنّاه أن أكونَ حاكِمًا لها .

وقال صديقُه الثالث :

ـ أتمنى إذا أفضِىَ إليكَ الأمر ، أن يُطافَ بى قُرطُبـةَ كلِّها على حِمـار ، ووجهى إلى الذَّنـب ، وأنـا مَطلِىٌّ بالعَسَل ؛ ليجتَمِعَ الذُّبابُ علىَّ والنَّحل ، وليكـن هـذا أوَّلَ ما تستفتِحُ به عهدَك ، إذا حكمتَ الأندَلُس .

وأسَرَّها ابنُ أبى عامر فى نفسه .

٣

وفَدَ إلى قَصرِ الزَّهراءِ كثيرٌ مـن كُتَّـابِ الأندَلُـس ، ليختارَ الخليفةُ من بينِهم كاتبًـا للأميرة ، وتقدَّمَ محمـدُ ابنُ أبى عامر ، وهو يرجُو أن ينـالَ الوظيفـة ؛ إنَّـه إذا دخلَ القصـر ، عـرفَ كيـفَ يُحقِّقُ أطماعَـه الواسِعةَ العَريضة .

وأُذِنَ لابـنِ أبـى عـامر بـالدُّخول ، فسـارَ واجِـفَ القَلب . ورأى الحَكَمَ فى صـدْرِ القاعـة ، وإلى يمينِـه

جَعفَرٌ المُصحَفِيُّ حاجِبُ الدَّولة ، فانحَنى حتى كادت جَبهَتُه تَلمُسُ الأرض ، ثمَّ اعتَدَلَ ووقف بعيدا . ثم أُشِيرَ إليه أن يتقدَّم ، فتقدَّمَ فى ثِقة ، وجلسَ أمامَ الخليفةِ وحاجبه .

ووقعَ اختيارُ الخليفةِ على ابنِ أبى عامرٍ ؛ وجاءَتِ السَّيدةُ صبْح ، فأقَرَّتِ اختيارَ الخليفة ، فقد كانت شَخصِيَّةُ ابن أبى عامر قوِيَّةً آسِرة ، تستريحُ إليها النُّفوس ، وتنجَذِبُ إليها القلوبُ والأبصار .

وأصبحَ ابنُ أبى عامِر كاتبَ الأميرة ، فراحتْ صُبح ، والمُصحَفِيُّ حاجبُ الدَّولة ، وابنُ أبى عامر كاتبُها ، يجتمعونَ كلَّ يوم فى جَناحِ الأميرة . كانت صُبحُ وحاجِبُ الدَّولةِ يتدارسانِ فى شؤون المُلك ، وابنُ أبى عامِر ينتظِرُ أوامِرَ الأميرة ، ليُحرِّرَ كُتُبَها إلى العُمَّالِ والقُوَّادِ والقُضاة .

وراحَتْ صُبحُ تَرعاه ، أمَّا المُصحَفِيُّ فما كان يهتَمُّ بذلكَ الشَّابِّ الألْمَعِيّ ، بل كان ينظُرُ إليه نظرَتَه إلى خادِمٍ عادىّ ، من خُدَّامِ القَصر . وكانَ يُعامِلُه أحيانًا فى غِلظَة ، وقد أوغَرَ صدرَ الشَّابِّ على المُصحَفِيّ ، أنه كان إذا ذهبَ إلى داره لعمل من الأعمال ، يترُكُهُ فى دِهليزِ بيتِه السَّاعات ؛ فكانَ ذلكَ يزيدُ فى حِقْدِ ابنِ أبى عامِر على الحاجبِ البَربَرىّ ، الذى عاوَنَه حظُّه ليكونَ رئيسًا للوُزراء ، يتحكَّمُ فى أقدارِ النّاس .

٤

ارتفعَ قَدرُ ابن أبى عامِر فى القصر ، بفضلِ رِعايَةِ الأميرة ، فأصبَحَ منافسًا خطيرًا لولَدَىْ المُصحَفِىّ : محمدٍ وعُثمان . وراحَ ابنُ أبى عامر يتودَّدُ إلى كلِّ مَن فى القصر . ورأى أنَّ الخَصِيَّين : فائقًا وجُؤذَرا ،

اللَّذين يحكُمـان على ألفِ مملوكٍ من الصَّقالبـةِ ممن يعمَلُـونَ بـالقصر ، يكرَهـان المُصحَفِـىّ ، فـأرادَ أن يكسـبَهما إلى جانِبـه ، فـراحَ يُلاطِفُهمـا ويُغرِقهُمـا بالهَدايا .

وراحَ الحَكَمُ يرقُـبُ الشَّابَّ وهـو فى حَيرةٍ من أمرِه ، وقدْ أفصَحَ عن حَيرَته بقوله للمُصحَفِىّ :

ـ واللّه لا أدرى يا جعفَر أأعُدُّه من المُخلصينَ لنا ، أم أعُدُّه ساحِرًا مُحتالا ؟

فلـم ينبـسْ المُصحفـىّ بكَلِمـة ، خشِـىَ أن يفضَـحَ نفسَه ، ويُعلِنَ عن بُغضِه للشَّاب ، فـلا يكسِـبَ مـن ذلك إلاَّ عَداوَةَ الأميرة .

وراحَ ابنُ أبى عامِر ، بفضْلِ رِعايَةِ الأميرة ، يرقَـى سُلَّمَ المَجدِ سريعا . فصارَ ناظِرًا لخزينـةِ الدَّولـة ، ثـمَّ عُيِّنَ للنَّظَرِ فى أمانةِ دارِ السَّكَّة ، وصارَ صديقًا حميمًا للوزراء . وفكَّـرَ فـى أن يُهـدِىَ إلى الأميرةِ هَديـةً

جليلـة ، اعترافًا بفضلِهـا ، فجلَـبَ أمهَـرَ الصُّنَّـاع ، وعهدَ إليهم بصنعِ تُحفةٍ فَريدة ، تَفوقُ روائِعَ قصـرِ الزَّهـراء . فراحُـوا يصنَعـونَ مـن الفِضَّـة نَموذجًـا صَغِيرا ، لقصر من قصورِ الأندَلُسِ الرَّائِعة ، فـأبدَعُوا ما شاءَ لهم الإبداع ، فجاءَ النَّمُوذَجُ آيـةً مـن آيـاتِ الفنِّ والجَمال .

وحُمِلَت الهَدِيَّةُ النَّفيسَةُ من دارِ ابنِ أبى عـامر إلى قصرِ الزَّهراء ، فاصطَفَّ النَّاسُ علـى جـانِبَى الطَّريـق لرؤيَةِ التُّحفَةِ النَّادِرةِ المِثال .

٥

أصابَ الحَكَمَ فالِج ، فلَزِمَ فِراشَه ، فراحَتْ صُبـحُ تُفكِّرُ فى حالِها إذا ماتَ زوجُها ، فرأت أنَّ عليها أن تغـادِرَ قصـرَ الزَّهـراء ، للخليفـةِ الجديـد ، بعـدَ أن

اعتادَت أن تجمعَ فى يدِها السُّلطان . فعزمَت على أن تُغرِىَ الحَكم بنقلِ الخِلافةِ إلى ابنِها هشام . فإذا قَبل ، كانَ معنى ذلك إبقاءَ نفوذِها ، وإدارةَ شئونِ الأندَلُس من وراء ستار .

ودخلَتْ على الخليفةِ وهو مُمَدَّدٌ فى فراشِه ، وراحتْ تُواسيه ، فقال لها فيما قال :

ـ إنَّ ما تكهَّنَ به ذلك الكاهِنُ يَرِنُّ فى أذُنِى آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهار . إنَّ صوتَه يهتِفُ بى ، ويصيحُ دوامًا : « لا يزالُ مُلكُ بنى أميَّةَ بالأندلُسِ فى إقبال ودَوام ، ما توارَثَهُ الأبناءُ عنِ الآباء ؛ فإذا انتقلَ إلىَ الإخوة ، وتوارثوه فيما بينهم ، أدبَرَ وانصرَمَ » .

ورأتْ صُبْحُ الفُرصَةَ سانِحة ، لتلتمِسَ من زَوجِها نقلَ الخِلافَةِ إلى ابنِها الذى لم يبلُغْ الحُلُم ، فقالت :

ـ خُذِ البيعَةَ لابنِكَ هِشام .

ـ سَيُحجِمُ الشَّعبُ عن مُبايَعَتِه ، وسَيُقاوِمُ أخى المُغِيرةُ تلكَ البَيعةَ .

وظَلَّتْ تُحَسِّنُ له نقلَ الخِلافَةِ إلى ابنِه ، حتَّى لا يزولَ مُلكُ بنى أميَّةَ من الأندَلُس ، كما زالَ من الشَّرق ، حتى قَبِلَ نقلَ الخِلافَةِ إلى هِشام .

ولم تَنسَ صُبحُ ابنَ أبى عامِر فى تلكَ اللَّحظة ، فقالت :

ـ لو كان صاحِبُ الشُّرطةِ من خُلَصائِنا الأوفياء ، لأمِنَّا سُلوكَ النَّاس . ماذا يا مَولاىَ لو جعلنا ابنَ أبى عامِر صاحبَ الشُّرطةِ فى البلاد ؟

ووافَقَ الحَكَم ، وصارَ ابنُ أبى عامر صاحِبَ الشُّرطة .

٦

وراحَتِ الدَّسائِسُ تُحاكُ فى قَصرِ الزَّهراء ، فأخذَ فائقٌ وجُؤذَرٌ يُفكِّرانِ فيما يفعلانِه إذا ماتَ الحَكَم .

كانا صاحِبَى نُفوذٍ فى القصر ، فتحتَ أيدِيهما ألْفٌ من الصَّقالِبة العبيد ، الذينَ لا يعصُونَ لهما أمرا ؛ وكانا يمقُتان المُصحَفِىّ ، لِصَلَفِه وبُخلِه الشَّديد ، وقد استمالَهما المَغيرةُ أخو الحكَم بهداياه ، فأصبَحَ لهما الضِّياعُ الواسعة . فرأيا أن يُنادِيا بالمُغيرةِ خليفةً على الأندلُس ، بعدَ موتِ الحكَم ، لأنَّهما إذا فعَلا ذلك ، كان لهما الفضلُ على الخليفة ، فيُمكِّنَ لهما فى الدَّولة ، ويقوى نفوذُهما . وفى توليةِ المُغيرةِ قضاءٌ على المُصحَفِىّ ، الذى يمقتانِه أشدَّ المَقت .

وتَدَفَّقَ وجُوهُ القَومِ وأعيانُ الدَّولةِ على الحَكَمِ الرَّاقِدِ فى فراشِه ، ووقَفَ بالقربِ من فِراشِ الخَليفةِ المريضِ : المُصحَفِىُّ حاجبُ الدَّولة ، وخلفَه ابنُ أبى عامِر وكيلُ هِشام ولِىِّ العهد ، ووقَفتْ صُبْحُ خلفَ سِتار ، ترصُدُ ما يجرى فى مكان الاجتماع ؛ فما جاءَ هؤلاءِ جميعا إلاَّ بتدبيرِها ، لِيُبايِعوا ابنَها هِشامًا خليفةً ، بعدَ مَوتِ أبيه .

وتمَّتِ البَيعَة ، ولم تَنسَ صُبحُ ابنَ أبى عامِر ، فقد صارَ المُفَتِّشَ العامَّ للقصر .

٧

وماتَ الحَكَم ، فقالت صبحٌ لفائِق وجُؤذَر :

ـ ينبَغِى ألاَّ يعلَمَ أحدٌ بموتِ الخليفة .

وفطنا إلى أنَّها تُدبِّرُ أمرَ المُناداةِ بابنِها خليفةً على الأندلُس ، قبلَ أن تُعلِنَ خبرَ وفاةِ أبيه ، فغادَراها ، والتفتَ جُؤذَرٌ إلى فائق ، وقال :

ـ ينبَغِى أن نُحضِرَ جعْفَرَ بنَ عُثمانَ المُصحفِى ، ونضرِبَ عُنُقَه ، فبذلِكَ يتمُّ أمرُنا .

ـ لعلَّه لا يُخالِفُنا فيما نُريده .

ولمحا المُصحَفِىَّ مُقبلا ، فأسرعا إليه ، وقالا :

ــ مـاتَ مولانـا السَّـاعة ، وإنَّ هِشـامًا لا زالَ غُلاما ، وقـد رأينـا أن نُقَلِّـدَ الخِلافَـةَ أميرًا أكبرَ منـه سِنًّا ، وأنضجَ تجربة ، وقد وقعَ اختيارُنا على المُغيرة .

رأى المُصحَفِيُّ من الحِكمةِ أن يُسايرَهما ، فقال :

ـ هذا هو الرأى ، والأمرُ أمرُكما ، وأنا وغيرى فيه تَبَعٌ لكما ، فاعزِما على ما أردتُما ، وأنا أسيرُ إلى الباب ، فأضبِطه بنفسى ، وأُنفِذُ أمرَكما إلىَّ بما شئتما .

وخفَّ ابنُ أبى عامر إلى حيث كانتِ الأميرة ، وانطلقَا فى القصر حتّى وجدا المُصحَفِى ، فقال لهما :

ــ لقـدْ نكثَ الصَّقالِبةُ بَيعةَ هِشام ، وإنَّ فائِقًا وجؤذَرًا يُريدانِ أن يُقلِّدا الخِلافَةَ المُغيرة .

فقالت السَّيدةُ صُبح :

ـ ينبَغِى قتل المغيرة ، قبلَ أن يبلُغَه موتُ أخيه .

وبعثَت صبحُ ابنَ أبى عامرٍ فى مائَةِ غُلامٍ من

غِلمانِ الحكَمِ إلى المُغيرة ، فدخلَ ابنُ أبى عامر عليه ، وأخبرَه بموتِ أخيه ، وبنَقضِ الصَّقالِبةِ بيعَتَهم ، وفَطَنَ المُغيرَةُ إلى أنَّ ابنَ أبى عامِرٍ ما جاءَ إلاَّ لقتلِه ، فقال :

ـ إنِّى سامِعٌ مُطيع ، موفٍ ببيعَتِى ، فتوثَّقُوا منِّى كيف شئتُم ، لن تَجْنُوا شيئًا إذا أهْرَقْتُم دمى ..

أناشِدُكَ اللّه يا محمَّدُ فى دَمِى ، وألْتَمِسُ منك أن تُراجِعَهُم فى أمرى ، فما أظهَرْتُ خِلافًا ، ولا شَقَقْتُ عصا الجماعة . إنِّى سامِعٌ مُطِيع .

وأثَّرَ توسُّلُ الأميرِ فى نفسِ ابنِ أبى عامِر ، فقال له :

ــ سأراجِعُهم فى أمرِك .

وراحَ يكتُبُ إلى الأميرةِ والمُصحَفِىّ ، يصِفُ لهما جُنوحَ المُغيرةِ إلى المُسالَمة ، ويسألُهما الرَّأىَ . فلم

يقبَلا شَفاعَةَ ابنِ أبى عامر ، وأمَرا بقَتلِ المُغِيرة ، فدخلَ الجُندُ عليه وقتَلوه .

وأصبحَ هِشام ، الصَّبىُّ الذى لم يبْلُغ الحُلُم ، أميرَ المؤمنين ، وصارَ أمرُ الأندَلُسِ فى يدِ صُبح ، أميرةِ قُرطُبة ، وبدأ نَجمُ ابنِ أبى عامرٍ فى الشُّروق[١] .

---

(١) اقرأ حوادث هذه الحقبة بتوسع فى قصة « أميرة قرطبة » للمؤلف .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

المنصور

ابن أبي عامر

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

رأى ابنُ أبى عامرٍ تغلْغُل نُفوذِ الصَّقالِبةِ فى القَصر ، وخَطَرَهم الدَّاهم ، فعزَمَ على أن يستأصِلَهم . كان فائقٌ وجُؤذَرٌ الخَصِيَّانِ رئيسَى حَرسِ الحريم ، وصاحِبَى نُفوذٍ كبيرٍ فى القصر ، وكانا زعيمَى الصَّقالبة ، فلو أنَّه قَضى عليهما ، لقَضى على قُوَّةٍ تُهدِّد سلطانَه ، واستحواذَه على السُّلطةِ والسلطان .

وذهب فائقٌ إلى بَيَّاسة ، وقابَل أميرَها دُرِّى ، لِيُؤلِّبه على الدَّولة ، وعَلِمَ ابنُ أبى عامرٍ بذلك ، فذهبَ إلى المُصحَفِىّ رئيسِ الوزراء ، وراحَ يُحرِّضُه عليه ، ولكنَّ المُصحَفِىَّ لم يستطعْ إعلانَ عَداوَتِه

للخَصِيَّين ، خَشيَةَ ثورةِ الصَّقالِبة ، بل راحَ يُضَيِّقُ عليهما .

وتضايَقَ فائِقٌ وجؤذَرٌ من وطأةِ المُراقَبة ، ولَمَّا كانَ جؤذَرٌ يتمتَّعُ بنفوذٍ كبيرٍ فى القصر ، وكان الخليفةُ هِشامٌ لا يستغنى عنه ، فقد رأى الصَّقالِبةُ أن يُقدِّمَ جؤذَرٌ استِقالَتَه ، فإذا رفَضَ الخليفةُ قَبولَها ، وهذا هو المُتَوقَّع ، فسَتُتاحُ له الفُرصةُ لإملاءِ شُروطِه .

وكتبَ جُؤذَرٌ استقالَته ، ورفعها إلى هِشام ، وعلِمَ ابنُ أبى عامر بذلك فسُرَّ ، فقد جاءَتِ الفُرصةُ للتَّخلُّصِ من الصَّقالبة . دخَلَ على الأميرةِ صُبح ، أمِّ الخليفةِ التى كانت سببَ نِعمَتِه ، وأقنَعَها بقَبولِ الاستقالة ، فقَبِلَ الخليفةُ « هِشام » الذى كان أُلعُوبَةً فى يدِ أمِّه وابنِ أبى عامِر ، استقالَةَ جُؤذَر ، فكان ذلك إيذانًا بزوالِ سلطةِ الصَّقالبةِ فى القصر .

٢

تقدَّمَتْ راياتُ الفِرنـج ، وأوغَلَـت فـى التَّقَـدُّم ، حتّى أصبحتْ تُرى من حُصونِ قُرطُبة ، وبعثتْ قلعةٌ من القِلاعِ تطلبُ من العاصِمةِ العَون ، فأرسلَ إليهـا المُصحَفِـيُّ حـاجِبُ الدَّولـة ، أن تقطَـعَ سـدَّ النَّهـر ، لتحجُزَ العَدُوَّ عنها .

وعزمَ ابـنُ أبـى عـامِرٍ أن يخـرجَ للجهـادِ بنفسِـه ، وعُقِدَ مجلسُ الوزراء ، وقـامَ ابـنُ أبـى عـامرٍ يقـول بضـرورةِ الجهـاد ، فوافَـقَ الـوُزراءُ علـى ذلـك ، وعُرِضتْ قيادةُ الجُيوشِ على ابنِ أبى عـامر ، فوافـقَ على تَقَلُّدِها ، وقال :

ـ لا بـأس ، علـى أن أختـارَ مـن يخـرُجُ معـى مـن

الرِّجال ، وأتَجَهَّزَ بمائةِ ألفِ دينار .

فصاحَ صائح : « هذا كثير » .

فقال ابنُ أبى عامرٍ فى تحدّ :

ـ خُذْ ضِعفَها وامضِ لها ، وليَحسُنْ غَناؤُك .

فسكَتَ المُعترِض ، ولم ينبس بكلِمة .

وتجهَّـزَتِ الجُيـوش ، وخـرجَ ابـنُ أبى عـامِرٍ علـى رأسها ، لقتالِ الإفرنج ، الذينَ أطمَعَهُم فى الأندَلُسِيِّينَ استِنامَتُهم ، وتخـاذُلُ حُكّـامِهم ، وأشـعَلَ منظَرُ الجُنـدِ الخارجينَ للجهادِ نارَ الحَماسَةِ فى الصُّدور ، فـارتفعَتِ الهتافات ، وترقرَقتِ الدُّموعُ فى العُيون .

وانطَلَقَ ابنُ أبى عامِر ، وقد ثارتْ فى عُروقِه دماءُ أجـدادِه الفُرسـانِ الصَّنـادِيد ، الذيـنَ أبلَـوا أحسَـنَ البَلاءِ فى فتحِ البِلاد ، مع طارِقِ بنِ زِياد .

٣

عادَ ابنُ أبى عامِرٍ من غَزوتِه مُنتَصِرا ، يسوقُ أمامَه الأسرَى ، فخرَجَتْ قُرطُبَةُ لاستِقبالِه ، فقد أعادَ نصرُه الثِّقَةَ إلى النُّفوس ، وشَجَّعَه نصرُه أن يُفكِّرَ فى التَّخلُّصِ من المُصحَفِىّ ، ولكن كان ذلك صعبَ المَنال ، ما دامَ محمدٌ المُصحَفِىُّ يحكُمُ قُرطبة ، وأبناؤُه وأصهارُه منبَثُّونَ فى المَناصِبِ الهامَّة . فقَرَّ قرارُه على أن يُقلِّمَ أظفارَ المُصحَفِىّ ، قبلَ أن يضرِبَ ضَربَتَه .

كان يعلمُ أن غالبا قائدَ الجيوش ، عدوُّ المُصحفِىّ اللَّدود ، فراحَ يتقَرَّبُ من غالب ، وقد ساعَدَه خُروجُه للقتالِ على أن يكونَ بالقُربِ من غالِب ، فصارَ تنفِيذُ ما يجولُ بفكرِه أمرًا ميسورا .

انتصَرَ ابنُ أبى عامرٍ فى غَزوَتِه الثانية ، ووقف غالبٌ يودِّعُه فى عَودَتِه ، ويقولُ له : سيظهَرُ لكَ بهذا الفَتح اسمٌ عظيم ، وذكرٌ جليل ، وسَيَشغَلُهم السُّرورُ به عن الخَوضِ فيما تُحدِثُه من قِصَّة ، فإيَّاكَ أن تُغادِرَ قصرَ الخليفة ، حتى تعزِلَ ابنَ جعفرٍ عن المدينة ، وتتقلَّدها دونَه .

وفعلَ ابنُ أبى عامرٍ ما اتَّفقَ عليه مع غالب ، فقدْ عَزَلَ الخليفةُ محمدَ بنَ المُصحَفِىّ عن إمارةِ قُرطُبة ، وولَّى إمارَتَها ابنَ أبى عامِر ، وكانَ للأميرةِ صُبحٍ الفضلُ فى ذلك .

أهَمَّ المُصْحَفِىَّ عزْلُ ابنِه ، وفكَّرَ فى ابنِ أبى عامر ، فهالَه أمرُه ، وبدا له مُنافِسًا خطيرا ، ففكَّرَ فى تدعِيمِ مركَزِه ، بالتَّقرُّبِ من غالِب ، وتكوينِ

جَبهَةٍ قَويَّـةٍ منهمـا . تقِـفُ فى وجـهِ أطمـاعِ ابـنِ أبـى عامِرٍ . فقرَّرَ أن يخطُبَ أسماءَ بنتَ غالِب ، لابنِه عُثمان .

واجتَمعَ المُصحَفِيُّ وأبناؤهُ بغـالِب ، وكُتِـبَ العَقـدُ وحُدِّدَ يومُ الزّفاف ، وعلِـمَ ابـنُ أبـى عـامِرٍ بذلـك ، فتيقّنَ أن هذه المُصاهَرة لو تَمّت ، لتعَـذّرَ عليـه تنفيـذُ مآرِبه ، فكتَبَ إلى غالِبٍ يعرِضُ عليه فسخَ الخِطبـة ، وأن يُزَوِّجَـه مـن أسمـاء ، فقبِـلَ غـالِب ، ولم يـتردَّدْ لحظة ، وكانتِ الصَّفعَةَ الثَّانِيَةَ التـى وجَّهها ابـنُ أبـى عامرٍ إلى المُصحَفِىّ .

٤

هانَ أمرُ المُصحفِىّ ، حتَّى إنَّ ابنَ أبى عامرٍ نجح فى إثارةِ الأميرةِ صُبحٍ عليـه ، حتـى صـدَرَ الأمـرُ بإقالـةِ

جعفَـرٍ المُصحفِـىّ ، وبـالقَبضِ عليـه وعلـى أبنائِـه وأصهـارِه . فبعـثَ ابـنُ أبـى عـامرٍ بـالجُندِ إليهـم ، وأمرهُم أن يَحبِسوا المُصحَفِيَّ فى المُطبَق بالزَّهراء .

واستفحَلَ أمرُ ابـن أبـى عـامر ، فـرأى أن يسـلُبَ هِشامًا السُّلطَة ، وهو الخليفةُ الضَّعيفُ المَشغُولُ عـن ملكِه بعباداتِه ، فوكلَ بأبوابِ قصرِ الزَّهراء ، رجـالا من أنصارِه ، يمنعونَ الوصُولَ إلى الخليفـةِ إلاَّ بإذنِـه ، وحَصَّنَ القَصْرَ بسورٍ ضخم ، وحفَرَ حولَـه خَندَقـا ، فأصبَحَ الوُصولُ إلى الخَليفةِ أمرًا عَسيرا .

وحَنِقَـتِ الأمـيرةُ صُبـح ، وزادَ فـى حَنَقِهـا أنهـا أصبحت لا تستطيعُ أن تفعلَ شيئا ، فانتصاراتُه علـى الإفرِنـج حبَّبَـتِ الشَّعبَ فيـه ، وجعلَـت منـه رجـلاً خطيرا .

ورأت أنَّها أساءَت إلى ابنِها يومَ نحَّتْه عن الحُكم ، وجعلَته ينغَمِرُ في عباداتِه ، فأرادت أن تمحُوَ أثرَ ذلك . فعَزمَتْ على أن تنفُخَ في ابنِها روحَ الثَّورةِ والتَّمرُّدِ على ابنِ أبي عامر ، ولكن هَيهات ! فقد شبَّ هِشامٌ خائرا ضَعِيفا ، لا يقوَى على الصُّمودِ أمامَ الأقوِياء .

٥

بدأ ابنُ أبي عامر بترتيب أمورِ الوِلاياتِ الإفريقِيَّة ، وأدخلَ في الطَّاعةِ جميعَ أهلِها ، وجَنَّدَ منهم الجُيوشَ الجَرَّارة ، واستنفَرَ أهلَ الأندلُس ، وراحَ يَحُضُّهم على القِتال ، ويَشُنُّ الغاراتِ في الصَّيف ، فما كان رجالُ إفريقِيَّة ، يتحمَّلونَ بردَ الأصقاعِ الشَّماليَّة .

وبثَّ الغاراتِ في أطرافِ البلاد ، حتى أوقَعَ

الذُعرَ فيها جميعا ، وعادتِ النَّصرانيَّةُ على شفا خَطَرٍ عظيم . فقد راحت خُيولُ ابن أبي عامرٍ تجوسُ أماكنَ لم يخفُق فيها علمٌ إسلاميٌّ من قبل ، وسقطتْ مدينةُ سانت ياقُبَ من جليقِيَّة ، وهي أقدس معهد مسيحِيٍّ في أسبانيا ، في أيدي المسلمين .

لم يطمَعْ أحدٌ من ملوكِ الإسلام في قصدِها ، ولا الوصولِ إليها ، لصعوبةِ مَدخَلِها وخُشونَةِ مكانِها ، وبُعدِ شُقّتِها ، فخرجَ المنصورُ إليها من قرطبةَ غازيًا بالصائِفة ، سنةَ سَبعٍ وثمانينَ وثلاثِمائة ، وهي غَزوتُه الثامنةُ والأربعون .

كان ابنُ أبي عامرٍ قد أنشأ أسطولاً كبيرا بساحِلِ غربِ الأندلُس ، جهَّزَهُ برجالِه البحريِّين ، وصُنوفِ المُترجِّلين ، وحملَ فيه الأقواتَ والأطعمةَ والعُدَّةَ والأسلحة . وانطلقَ الأسطولُ إلى نهرِ دوبرة ،

فدخـلَ فـى النّهـر ، وأراد المنصـورُ أن يعـبُرَ إلى الأرض ، فجعلَ من الأسطولِ جسرًا بقربِ الحِصن ، ووجَّهَ ابنُ أبى عامرٍ ما كان فيه من المِيرةِ إلى الجُنـد ، وسارَ يُريدُ سانت ياقُب ، فقطَعَ أرضًا واسِعة ، وعبرَ عِدَّةَ أنهار ، حتى إذا وصلَ إلى جبلٍ شـامخ ، شـديدِ الوُعُـورَة ، لا مَسلَكَ فيـه ولا طريـق ، قـدَّمَ الفَعَلـةَ بالحديد ، لتوسِعةِ شِعابه وتسهيلِ مسالِكه .

وعَـبرَ العَسكَرُ الجبـل ، وانبسـطَ المسـلمونَ فـى سهولٍ عريضة ، وظلُّوا يتقدَّمونَ حتى انتهى العَسكرُ إلى جبلِ مَراسيَة ، المُتّصِلِ من أكثرِ جِهاتِـه بـالبحرِ المُحيط ، ثم نزلَ المسلمونَ على مدينةِ سانت ياقُب ، فوجدوهـا خاليـة مـن أهلِهـا ، فـأخذوا غَنائِمَهـا ، وهَدَمـوا مصانِعَها ، وأسـوارَها ، وأخـذُوا أجـراسَ الكنيسةِ الكُبرى ، وأجبَرَ ابنُ أبى عامرٍ الأسبانَ على

حَمْلِها على ظُهورِهم ، من سـانت يـاقُبْ إلى قُرطُبـة ، مسافَةَ ثمانِ مِائة كيلومتر ، وقد صنـعَ منها قنـادِيل ، عُلِّقَتْ بجامع قُرطبةَ العظيم .

٦

تمَّ لابنِ أبى عامرٍ الاستقلالُ بـالمُلك ، والاستبدادُ بـالأمر ، وبنـى لنفسِـه مدينـةَ الزَّاهِـرة ، ونقَـلَ إليهـا خزائِنَ الأموالِ والأسلِحة ، وقعدَ على سَريرِ المُلك ، وأمـرَ أن يُحيَّـا بتحيَّـةِ المُلوك ، وتَسـمَّى بالحـاجبِ المنصـور ، ونفـذتِ الكتـبُ والمُخاطَبـاتُ والأوامـرُ باسمِه ، وأمـرَ بالدُّعـاءِ لـه على المنابِرِ باسمِـه ، عقِبَ الدُّعاءِ للخليفة ؛ ومَحـا رسـمَ الخِلافةِ بالجُملـة ، ولم يبقَ لهِشامٍ المُؤيَّدِ من رسومِ الخلافةِ أكثرَ من الدُّعاءِ له

على المنابر ، وكَتْبِ اسمِه فى السَّكَّة ، وأُغفِلَ ديوانُـه مما سِوى ذلك .

وصارَ المنصورُ يسهَرُ لتنامَ رَعِيَّته ، وفى ذات ليلـةٍ دخلَ عليه مولاه ، بعدَ أن طالَ سهرُه وقال له :

ـ قد أفرطَ مَولانـا فـى السَّهَر ، وبَدَنُـه يحتـاجُ إلى أكثَرَ من هذا النَّوم ، وهو أعلمُ بما يُحرِّكُه عدمُ النَّوم من عِلَّةِ العَصب .

فقال المنصور :

ـ المَلِكُ لا ينامُ إلا إذا نامَتِ الرَّعِيَّة .

٧

كادَ الأمَلُ ينقَطِع من بقاءِ النَّصرانِيَّةِ فـى إسـبانيا ، فقد غزا المنصورُ سِتًّا وخمسِـينَ غَـزوة ، لم تُنكَّسْ له

فيها راية ، ولا انهزمَ لـه فيها جيـش . ورأى مُلوكُ النَّصارى هذا الخَطرَ الدَّاهِم ، فاتَّحدَ أصحـابُ لِيونَ ونابارَ وقَشتالَة ، وسائِرِ المُقاطَعاتِ المَسيحيَّة ، ونبَذوا كـلَّ مـا كـان بينَهـم مـن خِـلاف ، وسـاروا عُصبـةً واحِدة . وتسلَّحَ الأساقِفةُ والقِسِّيسُون ، وسارُوا فى مُقَدِّمـةِ الجُيـوش ، واجتمعَتْ جُيـوشٌ جَـرَّارةٌ مـن المسيحيِّين ، على حدودِ قَشتالَة القديمة .

وجَمَعَ المنصورُ جيوشَه ، وخرجَ يحملُ أكفانَه ، التى كان يحملُها معه كلما خرجَ للجهاد ، والصُّرَّةَ الكبـيرة التى جمعَها الخَدمُ مِمَّا علِقَ بوجهِه وثيابِـه مـن الغُبـارِ فـى غَزَواتِه المُظَفَّرة ، التى نَيَّفَت على الخمسين .

والتقَـى الجَيشـان ، وسـالتِ الدِّمـاء ، وانتصَـرَ المنصور . ولكنَّه أحـسَّ المَـرضَ يـدِبُّ فـى أوصالِـه ، واشـتدَّ مَرَضُـه ، حتـى لم يسـتطِع أن يعتَلِـيَ صَهـوَةَ

جوادِه ، فصُنِعَ له سَريرٌ من خشب ، رقَدَ فيه ، وحُمِلَ على أعناقِ الرِّجال .

وقفِلَ الجيشُ عائِدًا يبغى الوُصولَ إلى قُرطبة ، ولكنْ وَطأةُ المَرضِ اشتدَّتْ على المنصورِ قبلَ أن يبلُغَها ، فأنزَلُوه مدينةَ سالِم . وفكَّرَ فى أمرِ قُرطبة ، فأهَمَّهُ أمرُها ، فبعثَ إلى ابنِه عبدِ الملِك ، يستَدعِيه ويُوصِيه بها .

ودخلَ ابنُه عليه ، وارتَمى على صدرِه وأخذَ يبكِي ، فقال له المنصورُ فى صوتٍ ضعيف :

ـ هذا أوَّلُ الإخفاق .

ومات المنصور ، فأقبَلتِ الفِتَن يَجُرُّ بعضُها بعضا .

ولادة وابن زيدون

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

كانت الأندَلُسُ تموجُ بالفِتَنِ والاضطِراب ، وكان كلُّ زعيمٍ يحاولُ أن يستبدَّ بإقليمِه ، والخليفةُ المُستَكفِى فى قَصرِ قُرطبة ، لا هَمَّ له إلاَّ الأكلُ والشرابُ ومجالَسةُ الحِسان ؛ فقد كان نَهِمًا ، ساقِطَ الهِمَّة ، أسيرَ الشَّهوَة ، عاهِرَ الخَلوة .

وتدلَّه حبًّا بجاريَتِه « سَكْرَى » الموروريَّة ، فاستبدَّتْ به ، وأغرَقَتْهُ فى لذّاته ، حتّى لاحَ أنَّ أيَّامَ الأُمويِّينَ فى الأندلُسِ أوشَكت أن تُصبحَ ذِكرَى .

كانت قُرطُبة مَقْصِدَ طُلاَّبِ العِلم من مُسلمينَ ومسيحيِّين ، وكانت جامعتُها مَنارةً للغرب ، ينبعِثُ منها نورُ العِرفان ، بينما كان قصرُ المُستكفِى مَقصِدَ طُلاَّبِ اللَّهو ، والرؤساءِ المَجبولينَ على الجَهالَة ،

العاكِفِينَ على الشَّراب ، الهائِمينَ فى بحورِ المُتعة .

وأنجَبَتْ « سَكرَى » ولاَّدَة ، فأحضَرَ لها المُستكفِى المُعلِّمين . وشَبَّتْ ولاّدَةُ فى قصرٍ تجرى فيه الخمرُ أنهارا ، ويرِنُّ فى أرجائِه أصواتُ المُطربينَ والجوارِى المُغَنِّيات ، وتطوفُ بجوانِبه أبياتُ الشِّعرِ الماجِنِ الرَّقيق ، فتفتَّحتْ مَواهِبُها ، وراحت تترَنَّمُ بالشِّعرِ فى طَلاقَةٍ وتحرُّر .

وفى سنة ١٠٢٥م مات المُستكفِى ، فازدادت ولاَّدَةُ تحرُّرا ، وأصبحَ مجلِسُها بقُرطُبَةَ مُتنَدًى لأحرارِ المِصر ، وفِناؤها مَلعبًا لجيادِ النَّظمِ والنّثر ، يعشُو أهلُ الأدبِ إلى ضوءِ غُرَّتِها ، ويتهالَكُ أفرادُ الشُّعراءِ والكُتَّابِ على حَلاوَةِ عِشرَتِها ، إلى سهولةِ حجابِها .

صارتْ وَلاَّدةُ مَقصِدَ شعراءِ الأندلُس ، ومَبعَثَ السِّحرِ فى مجلِسِها ؛ فقد كانت بَيضاءَ البَشرَة ، شقراءَ الشَّعر ، إذا لَعِبَت على الآلاتِ الموسيقيَّة ، لعِبَت بعقولِ فُحولِ الشُّعراء ، الذين كانوا يتقاطَرُون

على مُنتداها طامِعين . فقد كانت تُجاهِرُ بلذّاتِها ، حتى إنّها كَتبت على أحد عاتِقى ثوبِها :

أنا والله أصْلُحُ للمَعالِى
وأمشِى مِشْيَتِى وأتِيهُ تيها

وكتبتْ على الآخر :

وأمكنُ عاشِقِى من صَحنِ خدّى
وأُعطِى قُبلَتِى من يشتَهِيها

٢

كان ابنُ زَيدونَ فتًى مُرهَفَ الحِسّ ، شبَّ فى بيئةٍ غنيَّة ، أتاحتْ له منذُ طُفُولَتِه الاتّصالَ بالشُّعراء والأُدباء ، وغِشيانَ مجالِسِ الأدبِ والفُنون . وقد هَفَتْ نفسُه ليلةً إلى مُنتَدى وَلّادة ، الذى ذاعَ صِيتُه فى قُرطُبة ، فانطَلَقَ إلى هُناك ، ليُشارِكَ شُعراءَ قُرطُبة

سهرتَهم ، ويُشنِّفَ أذنَيهِ بموسِيقَى ولاّدَةَ الأخّاذَة ، التى ذاعَ أمرُها بين عُشّاق الطّرب والشبابِ الأرِستُقْراطِىِّ الذى كان يعيشُ فى بَذَخٍ ما بعدَه بذخ .

دخلَ ابنُ زَيدُونَ قصْرَ ولاّدَة ، فإذا بولاّدة تستقبلُ ضيُوفَها ؛ سافِرةَ الوَجه ، مُتطلِّقةَ المُحيَّا ، باسِمةَ الثّغرِ . وتَقدّمَ ابنُ زَيدُونَ يُصافِحُها ، فإذا بقلْبه يخفُقُ فى شِدَّةٍ بين جنبَيْه ، وإذا ببصَرِه يتتبَّعُها ، وإذا بفِكْرِه يشرُد ، وإذا به يهيمُ فى عوالِمَ رحيبةٍ من الخيال .

وجلستْ ولاّدةُ بين أدباءِ الأندَلُسِ وشعرائِها ، ودارتِ الكئُوس ، ولعِبَتِ الخمرُ بالعُقول ، وحَنَتْ ولاّدةُ على آلتِها الموسِيقِيَّة ، فإذا بها تعبَثُ بالأفئِدة ، وتَسبى العُقول . وظلَّ ابنُ زَيدونَ فى تطَلُّعِه الوَلهان ، والتقتْ عَيناهُ بعينيها أكثرَ من مرَّة ، فرفَّتْ على

شفَتَيها بَسمة ، كان لها فى قلبه وقْعُ السِّهام .

وظلّ ابنُ زَيدونَ يتردَّدُ على مجلِسِ وَلّادة ، والعُيونُ تتكلّم ، والقلبُ يخفِق ؛ وفكّرَ ابنُ زَيدونَ في أن يكشِفَ لها عن حُبِّه ، وإذا برُقعَةٍ تندَسُّ فى يدِه ، فيَفُضُّها ويقرأ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظّلامُ زيارَتِي
فإنّي رأيتُ اللّيلَ أكْتَمُ للسِرّ
وبِى منكَ ما لو كان بالبَدرِ ما بدا
وباللّيل ما أدْجَى ، وبالنّجمِ لم يَسْرِ

واضطربَ نَفسُ ابنِ زَيدون ، ورفَعَ عينيه إلى ولّادة ، فإذا بوجْهِها يُشرِقُ بابتسامةٍ رقيقة ، أنزَلَت على قلبِ ابن زيدنَ بردًا وسلاما .

فلمّا طَوَى النّهارُ كافُورَه(1) ، ونشَرَ اللّيلُ عَنبرَه ، أقْبَلَتْ بقَدِّ القَضِيب ، وردْفٍ كالكثيب ، وقد

(1) هذا وصف ابن زيدون لأول لقاء .

أطبَقَتْ نرجِسَ المُقَل ، على وَرْدٍ كالخَجل ، فمالا إلى رَوضٍ مُدَبَّج ، وظِلٍّ سَجْسَج ، قد قامَتْ راياتُ أشجارِه ، وفاضَتْ سَلاسِلُ أنهاره ، ودُرٌّ كالطلِّ منثور ، وجَيبُ الرَّاحِ مَزرُور ؛ فلمّا شبّا نارَها ، وأدركَتْ فيهما ثارَها ، باحَ كلٌّ منهُما بحبِّه ، وشكا أليمَ ما بقَلْبِه ، وباتا بليلةٍ يجنِيانِ أقحُوانَ الثُّغور ، فلمّا انفصَلَ عنها صباحا ، أنشد :

ودَّعَ الصَّبرَ محبٌّ وَدَّعَكْ
ذائعٌ من سِرِّهِ ما استَودَعَكْ
يقرع السِّنَّ على أن لم يَكُنْ
زادَ فى تِلكَ الخُطَى إذ شَيَّعكْ
يا أخا البَدْرِ سَناءً وسَنًى
حفِظَ اللّهُ زَمانًا أطلَعَكْ
إن يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فلكَمْ
بِتُّ أشْكُو قِصَرَ اللّيلِ مَعَكْ

٣

ومرَّتِ الأيـَّامُ ، وابـنُ زَيـدونَ وولاَّدةُ يَعُبَّـان مـن كأسِ الغرام ، ويتنقّلانِ في رِياضِ قرطبـةَ كفراشَـتَين طَلِيقَتَين ، يُرَدِّدانَ في جَنَباتِ الطَّبيعةِ الشَّـابَّةِ الحالِمـةِ ترانِيمَ الشِّعر . وفي ذات ليلـة ـــ جلسـا فـي مجلـس ولاَّدة ـ وقد اجتمَعَ إليها الشُّعراء ـ فأنشَدَتْ ولاَّدةُ في ابنِ زَيدون :

سقَى اللّه أرضًا قدْ غَدَتْ لك مَنزِلا
بكلِّ سَكُوبٍ هاطِلِ الوَبْلِ مُغْـدِق

لم يُظهِرِ ابـنُ زيـدونَ إعجابَـه بـالبَيت ، ولم يكتَـفِ بالسُّكوت ، بل راحَ ينقُـده ، مُدَّعِيًـا بـأنَّ فيـه دعـاءً على المحبوبِ لا دُعـاءً لـه . وأحسَّتْ ولاَّدةُ إهانَـة ، وجُرِحتْ كَرامتُهـا ، فسـكتتْ علـى مَضَض ، لعـلَّ

ابـنَ زَيـدونَ يفطُـنُ إلى إسـاءَتِه ، ويعمـلُ علـى أن يترضَّاها .

وجلسَتْ عُتبة ؛ مغَنِّيةُ ولاَّدةَ تُرسِلُ النَّغم ، فـأظهَرَ ابـنُ زيـدونَ إعجابَـه ، وطلـب منهـا أن تُعِيـدَ صَوتًـا غَنَّتْه ، وراحتْ عُتبَةُ تُلَبِّـي رَغبَـةَ ابـن زيـدون ، وفـي عَينَيها لَمعة ، وفـي وجهِهـا فَرحـة ، وعلـى شَـفَتَيها بَسمة .

رأتْ ولاَّدَة ذلك ، فاستشعَرَتْ مَهانـة ، وضايَقَهـا ما يفعلُه حبيبُها ، فما كانت تظنُّ أن يوجِّهَ إطراءً إلى غيرِهـا فـي حَضْرَتِهـا ، فعَزَمـتْ علـى أن تُلَقِّـنَ ابـنَ زيدونَ درسًا قاسيا . فمـا إن انفَـضَّ عِقـدُ المجلِـس ، حتّى أرسَلتْ إليه :

لو كنتَ تُنصِفُ في الهَوَى ما بينَنا
لـم تهـوَ جَـارِيَتِي ولمْ تتخيَّـر

وتركْـتَ غُصْنًـا مثمِـرًا بجمالِه
وجَنَحْـتَ للغُصْنِ الـذى لمْ يُثْمِرِ
ولقــدْ عَلِمْتُ بأنّنِى بدْرُ السَّمـا
لكـنْ دُهِيتُ لِشِقْـوتِى بالمُشْتَرى

٤

صَدَّتْ ولاَّدةُ عن ابنِ زيـدون ، فـراحَ يستحلِفُها ويبعثُ إليها أنينَه ونجواه ؛ ولكنّها أغلَقَت قلبها دُونَه ، وسَرعانَ ما وجدَتْ عاشِقًا جديدا ، لا يَنقُدُ أشعارَها ولا يتودَّدُ إلى جاريَتِها ؛ عاشِقًا مشغُولاً عن الشِّعر ، بتدبيرِ شئونِ الوزارة . فقد مرَّتْ بأبى عامرِ ابنِ عَبدُوسَ وزيرِ الدَّولة ، وأمامَ دارِه بِركةٌ دائِمـة ، تتولَّدُ عن كَثرةِ الأمطار ، فنظَرَتْ إليه وهَتَفتْ :

ـ أبا عامرٍ .

أنتَ الخَصِيبُ وهذه مصرُ فتدفَّقـا فكِلاكُما بَحْر

وانسلَّتْ فى دلال ، وأبو عامرٍ ينظُرُ إليها فى دَهَشٍ وإعجاب ، لا ينبسُ بكلمـة ، وإن كـان قلبُه أخذَ يَخفِقُ فى حنان . وما لبثَ أن تبعها كالمأخوذ ، حتى غابت فى قصرِها ، وهو شاردُ اللُّبِّ ، يستشعِرُ نَشوَةً تنبَثِقُ فى أعماقِه ، وخَدَرًا لذيذًا يسرى فى رُوحِه .

وتوطَّدَت بينَهما الأسباب ، فراحا يشرَبان كُئُوسَ الصَّبابَة والغرام ، وبلغَ ابـنَ زَيدونَ نبأُ حُبٍّ ولاَّدةَ الجديد ، فرعـتْ نـارُ الغَيرةِ فى صَدرِه ، وأخذَتْ تنهَش قلبه ، فكتبَ إلى ولاَّدةَ يبُثُّها لواعِجَ نفسِه ، ويلتَمِسُ منها أن تَصفَح ، وأن تنسى مـا كـان ، وأن تعودَ إلى الوِصال ، ولكنَّ ولاَّدةَ التى نشأتْ مُدَلَّلة ، لا تعـرفُ إلا إجابَـةَ رغباتِهـا ، رأت فـى إذلالِ ابنِ زيدونَ انتقامًا لكبريائِهـا ، فلجَّـت فى الخِصام . فلم يجدْ ابـنُ زيـدونَ أمامَـه إلا أن يلجأَ إلى غريمِـه ،

يستعطِفُه تارة ، ويُنذِرُه تارةً أخرى ، ولكنَّ ابنَ عَبدوسَ لم يأبَه بوعِيدِه ، ولم يستَمِعْ إلى توسُّلاتِه .

وكتبَ ابنُ زَيدونَ إلى ابنِ عَبدوس ، رسالةً على لسانِ ولاّدة ، كلُّها سُخريةٌ وزِرايةٌ بابنِ عَبدوس ، وقرأت ولاّدَة الرسالة ، فازدادَ غضبُها على ابن زيدون ، وهجتْه هِجاءً مُرًّا ، فلم يطْوِ حُبَّه ، بل استمرَّ في هجومه على غريمِه الوزير الخطير .

٥

ضَاقَ ابنُ عَبدُوسَ ذَرعًا برسائِلِ ابنِ زيدون ، وبتعريضهِ به ، والسُّخريةِ منه ، وفكَّرَ في أن يتخلَّصَ منه ، فاتَّهمَه بأنَّه يُحاوِلُ القِيامَ بثورةٍ على السُّلطان ، فقُبِضَ عليه واقتِيدَ إلى قاضِي قُرطُبة .

كان ابنُ زيدونَ قد استخفَّ بزعماء عَصرِه ، وكان كثيرَ النَّقْدِ لهم ، حتى باتَ مُبغَضًا منهم .

وكان قاضي قُرطُبَةَ « أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ أحمدَ » مِمَّن أغضبَهم ، فما إن وقَفَ بينَ يديه ، حتَّى أمرَ بسجنِه .

أحسَّ ابن زيدونَ بتعْسٍ في سِجنِه ، فراحَ يستعطِفُ الوَزيرَ أبا الحزمِ بنَ جَهْور ، ويلتمسُ منه العَفو . ولكنَّ أبا الحَزمِ لم يُعِرْهُ أذُنًا مُصغِيَة ، فيظَلَّ يبعَثُ إليه بقصائِدِه ورسائِلِه ، ويُرسِلُ إلى أصدِقائِه ، ليُكلِّمُوا أبا الحَزْمِ لإطلاقِ سَراحِه . وأخيرًا يئِسَ من التَوسلِّ والرَّجاء ، فعزَمَ على الفِرار .

وفي ليلة عِيدِ الأضحَى ، فرَّ من سِجْنِه ، وانطَلَقَ إلى إشبيلِيَّة . وكانَ أوَّلَ ما فَعلَه أن بعثَ إلى ولاّدَةَ قصيدةً يصِفُ فيها حالَه ، لأنَّ أوارَ حُبِّه لها لم يَخْبُ :

أضحَى التَّنائِي بديلا من تدانِينا
وناب عن طيبِ لُقيانا تجافِينا
هلاَّ وقد حانَ صبحُ البَين صبَّحَنا
حَينٌ ، فقامَ بنا للحَينِ ناعينا

إنَّ الزمانَ الذى ما زالَ يُضحِكنا
أُنسًا بِقُربِهِمُ ، قد عادَ يُبكينا

٦

ونَجَحَ أبو الوَليدِ بنُ جَهور فى أن يُرقِّقَ قلبَ أبيه على ابنِ زيدون ، فصَدَرَ العَفو عنه ، وأصبحَ الأمرُ فى يدِ أبى الوَليدِ بعدَ مَوتِ أبيه ، فقَلَّدَ ابنَ زَيدونَ الوَزارة ، ولكنَّ ذلكَ كلَّه لم يُنسِه حُبَّه لولاَّدة ، فراحَ يجوبُ الأندلُس كالغريب ، يبكى حبَّه الضَّائع ، ويئن من جوى قلبه .

نزَلَ قُرطُبة ، وذهبَ إلى إشبيلِيَّة ، واتَّجهَ إلى قصرِ المُعتَضِدِ بنِ عَبَّاد . ولَمَّا بلغَ المُعتضِدَ نبأُ قُدومِ ابنِ زَيدونَ عليه ، خرجَ فى وزرائِه لاستقبالِه ، وخلعَ عليهِ الخِلع ، وجعلَه وزيرَه ، ولكنَّ ذلكَ

المَجدَ كلَّه لم يُنسِه حبَّه ، ولم يُذهِبْ المَرارةَ التى كان يُحسُّها كلما فكَّرَ فى ولاَّدة .

وماتَ المُعتَضِد ، وخَلَفَه المُعتَمِدُ بنُ عَبَّاد ، فازدادَ ابنُ زَيدونَ فى بلاطِه رِفعَة ، وراحَ يقضِى اللَّيالىَ فى شُربٍ وسَمَر ، يُصغى إلى القِيتان ، ويُطلِقُ الضَّحكات ، ولكنَّ قلبَه كان يَدمى ، فقد صارتْ ضَحكاتُه أنينا ، وبَسماتُه ألَما .

وطَفِقَ ابنُ زَيدونَ يشربُ الخمر ، لعلَّه ينسَى آلامَ رُوحِه ، وتقدَّمَتْ به السِّن ؛ وبينما كان المُعتمِد فى قُرطبة ، ثارَ اليَهودُ فى إشبيليَّة ، فبعثَه المُعتَمِدُ لِيُخمِدَ تلكَ الثورة ، فانطلقَ واهِنَ الجسم ، شارِدَ اللُّبِّ ، تتخايَلُ له ولاَّدةُ أينما يصرِفُ البَصر .

وبلغَ إشبيلِيَّة ، وقدْ ثَقُلَ عليه المرض ، فراحَ يذكُر أيَّامَ الوِصال ، فتبسطُ أساريرُه ، ثم لا يلبَثُ أن يتذكَّرَ الهِجران ، فيَئِنُّ ويتوجَّع ، ويُنشِد :

هل تذكــرونَ غريبًا عادَه شَجَنُ
من ذِكرِكُم وجفا أجفانَه الوَسَنُ
يُخفِي لواعِجَه والشَّوقُ يفضَحُه
فقد تســاوَى لديْهِ السِّرُّ والعَلَنُ
يا وَيْلَتنــاهُ أيَبْقَى فى جَــوانِحِــهِ
فُــؤادُه وهوَ بالأطلالِ مُرْتَهــنُ

وراحَ يلفـظُ أنفاسَــه ، فكــان اســمُ ولاّدةَ بنــتَ المُستَكفِي ، التى لوَّعَتْه بهجْرِها ، آخِرَ ما نَطَقَ به .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

الجاهلية الثانية

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الجاهلية الثانية

١

نشأتِ الفُروسيَّة وازدهرتْ فى الأندلس ؛ وكان الفَارسُ يتحلّى بالتّقوَى ، والشّجاعة ، ورِقّةَ الخِلال ، والقُوَّة ، وقرضِ الشّعر ، والفَصاحة ، والبَراعةِ فى رُكوبِ الخيل ، واللَّعبِ بالسَّيفِ والرُّمحِ والقَوس ؛ وقد بلغتْ أوجَ عظَمتِها ، فى أيامِ المنصور بن أبى عامر . وقد أخذت أوربة نظام الفروسية ، الذى كان طابَعَ العصور الوسطى ، عن العرب ؛ وصارتِ الأندلُس فى عهد المنصور كعبة ، يقصِدُها فُرسانُ النّصارى ليُبارزوا فُرسانَ المُسلمين .

كانتِ السَّيِّداتُ يَحضُرنَ هذه المبارزات ، فكان يشيع فى هذه الحفلاتِ المْختلِطةِ الرِّقَّةُ والطَّراوة ، وإن كان مَيدااُنها ساحةً للدَّم والأهوال .

ومات المنصور ، وفرسان المسلمينَ فى عودتهم من غزوتِهم الموفّقَة ، وعلَمُ الإسلامِ خفّاق ؛ فقامَ بالأمرِ بعدَه ابنُه عبدُ الملكِ المُظفَّر ، فجرى على سَنَنِ أبيه ، فى الحَجْر على الخليفةِ هِشام ، وفى غزو أطرافِ الأندلس ، ليستتبَّ الأمرُ للمسلمين .

ومرَّتْ سبعُ سنواتٍ كانت أعيادًا على الأندلُس ، مات بعدَها عبدُ الملك وكانت تُسَّمى بالسّابع ، تشبيها بسابع العَروس .

وقامَ بالأمرِ بعدَه أخوه عبدُ الرَّحمن ، وكانت أمُّه بنتَ حنسو (سانكو) ملكِ نافارْيا ، وقد تزوَّجَها المنصورُ بعد أن غزا بلادَها ؛ فشبَّ عبدُ الرَّحمنِ جريئًا على الدِّين ، ميَّالاً إلى اللّهو والعَبث ، حتّى أُطلِقَ عليه سانكو الصَّغير .

واستقلَّ عبدُ الرَّحمنِ بالمُلكِ دونَ الخليفةِ المُؤيَّد ، وطلبَ من هِشَامٍ أن يوليهُ عهدَه ، فأجابَه وأحضَر

لذلك الملأ من أهلِ الشُّورى ، وأهلِ الحلِّ والعَقْد ، فكانَ يومًا مشهودا .

٢

خرج عبدُ الرَّحمنِ يغزو فى الصَّيفِ فى بلادِ الْجَلالقة ، مُتشبِّها بأبيهِ وأخيه . وفى أثناء اشتغالِه بالحرب ، اجتمعَ الأَمويُّونَ والقُرَشيُّون فى قُرطبة ، وراحوا يتشاوَرون فى أمرهم ، فنقموا على عبدِ الرَّحمنِ ما فعل ، وأسِفوا من خُروجِ الأمرِ من المُضَريَّةِ إلى اليَمنيَّة ، وعقَدوا العزمَ على أن يثوروا على عبدِ الرَّحمن .

ووثبوا بصاحب الشُّرطة فقتلوه ، وخلعو هشامًا الخليفة ، الَّذى قضتْ على شخصيَّته أمُّه صُبح ، يومَ فكَّرتْ فى أن تُدير سياسةَ الأندلُسِ من وراء سِتار ؛ وبايعوا محمَّدَ بنَ أبى هِشامِ بنِ عبدِ الجبَّارِ ابنِ أميرِ

المؤمنينَ النّاصر ، ولقّبوه المهدىَّ باللّه .

وطارَ الخبرُ إلى عبدِ الرَّحمنِ وهو فى غزوتِه ، فانفضَّ عنه النَّاس ، ولم يبقَ معه إلاَّ بعضُ جندِه ، ووجوهُ البربَر ، فانطلقوا إلى قرطبة .

وعندَ أرباضِ المدينةِ ، انسلَّ الْجُندُ ووجوهُ البرْبَر ، ولم يبقَ إلاّ عبدُ الرَّحمن وحدَه ، فقُتلَ واحتُزَّ رأسُه ، وحُمِل إلى المَهدىّ ، وبقتلِ عبدِ الرَّحمن ، ذهبتْ دولةُ العامريِّين .

ولحِق رؤساءُ البَرْبَرِ وزُناتَةَ بالمَهدِىّ ، الخليفةِ الجديد ، ولكنَّ الأَمويّينَ لم ينسَوْا لهم أنّهم ظاهروا المنصورَ وأبناءَه ، فأُبغضوهم ، وراحوا يُؤَلِّبونَ النّاس عليهم ، حتّى إنَّ العامةَ هجموا على دورهم ، ونهبوا ما بها .

وشكَوْا أمرَهم إلى المهدىّ ، فلم تنفعْ شكواهم ، فعقدوا العزمَ على خَلْع المهدىّ .

اجتمع رؤساءُ البربرِ وزَناتَةَ بهِشامِ بنِ سُليمان ،

ابن أميرِ المؤمنينَ النّاصر ، وبايَعوه خليفةً للمُسلمين .
وقبل أن تتمَّ مُؤامرتُهم ذاعَ خَبرُها ، فهجم عليهم النّاسُ وأجْلَوْهم عن قرطبة ، وقبضوا على هِشام وأخيه أبي بكر ، وأحضروهُما بين يدَى المَهدىّ ، فضربَ أعناقَهما .

٣

فرَّ سليمانُ ابنُ أخيهِما ، واجتمَعَ بالبَربَر خارجَ قُرطبة ، فبايَعوه ولقَّبوه المُستعينَ باللّه ، وانطلقوا به إلى طُليطُلَة ، واستعانوا ابنَ أذفُونشْ ، فأسرَعَ بالانضمامِ إليهم ، لا حُبًّا فيهم ، بل لأنَّه وجَد الفُرصةَ سانحةً للتّخلُّصِ من العربِ جميعا .
انضمَّ جيشُ أذفُونشَ إلى جيشِ البَربَر ، وسارتِ الجُيوشُ إلى قُرطُبة ، والتحمَتْ بجيوشِ المهدىّ ، ودارتْ معركةٌ رهِيبةٌ بين المسلمينَ والمسلمين ، سقَطَ فيها قتلى عِشرونَ ألفًا من زهرةِ شبابِ الأندَلُس ، وانهزَمَ المهدىّ ، ودخَلَ المُستَعِينُ قُرطبة ، سنةَ أربَع مائةٍ من هجرةِ الرَّسول .
وذهب المهدىُّ إلى طليطلة ، واستعان بابنِ أذفونش ، استعانَ بعدوِّه الذى حاربَه مع المستعين ،

فزَحف معه إلى قُرطبة ، وهزموا المستعين والبربرَ وأصحابَهم ، ودخلَ المهدىُّ قُرطبة ، وملكَها ثانية .

وتَفرَّقَ المُستَعينُ والبَربرُ فى الأرض ، ينهَبونَ ولا يُبقُونَ على أحد ، ثمَّ ارتَحلُوا إلى الجزيرةِ الخضراء ، فخرجَ المهدىُّ وحليفُه ابنُ أذفُونشَ لقتالِهم ، فكرُّوا عليهم وانهزَمَ المهدىُّ وابنُ أذفونش ومن معهما من المسلمينَ والنّصارَى ، ودخلَ المستَعينُ قرطبةَ ثانية .

ورأى المستعينُ أن يقضىَ على هذه الفِتنةِ المُندَلِعة ، التى تُهَدِّدُ بقاءَ الإسلامِ فى الأندلس ، فأخرجَ هشاما ، الخليفةَ القديم ، الذى حَجَرَ عليه المنصور ؛ وبايعَ له ، وقام بأمرِ حِجابَتِه .

وقَتَلَ أهلُ القَصرِ المهدىّ ، وصار هِشامٌ أميرَ المؤمنين . ولكنَّ المستَعِينَ لم يُصبِح حاجبَه ورئيسَ وُزرائِه ، بل قامَ واضِحٌ العُمَرىُّ بحِجابَتِه .

ورأى المُستَعينُ أنَّ الأمرَ قد أفلَتَ من يدِه ، فبعثَ

إلى ابنِ أذفونش ، يطلب منه عَونَه فى قِتالِ هِشام وحاجبِه واضح العُمَرى . وأرادَ هِشامٌ أن ينقُضَ تدبيرَ المستَعين ، فأرسَلَ إلى ابنِ أذفُونشَ يطلبُ منه أن يكفَّ عن مُناصرةِ المُستَعين ، على أن يُسلِّم إليه حصونَ قشتالة وقِلاعَها ، التى كان المنصورُ قد افتتحَها من بلاده . ووافَقَ ابنُ أذفونش ، وخرجَ المسلمونَ من حُصُونِهم وقِلاعِهم ، طائِعينَ مختارين .

وعلِمَ المستَعينُ بذلك ، فأسرَعَ إلى البربرِ أعداءِ الأَمويِّين ، وقَلَبَهم على هِشام ؛ فخرجَ جيشٌ منهم إلى قرطبة ، ودخلُوها عَنوةً ونَهبُوها ؛ وتولّى البَربَرُ الأعمال ، واستقلُّوا بالبلاد .

٤

قُتِلَ هِشامٌ سِرًّا ، وظَنَّ المستَعِينُ أن قَدِ استَحْكَمَ أمرُه ؛ ولكنَّ البَربرَ والعَبيدَ استولَوا على البِلاد ،

فتولّى باديسُ بنُ حَبُّوسَ أمرَ غَرناطَة ، والبرزالِيُّ أمرَ قَرمُونَة ، واليَفْرَنيُّ أمرَ رُنْدَة ، وخَزْدونُ في شَريشٍ ، وافترقَ شملُ الجماعةِ بالأندلس ، وصارَ المُلكُ طوائِفَ في آخَرينَ من أهلِ الدَّولة ، مثلِ ابنِ عِبادٍ بأشبيلية ، وابنِ الأفْطَسِ ببَطَلْيُوس ، وابنِ ذي النُّون بطُليطُلة ، وابنِ عامر ببلنْسِيَة ، وابنِ هُودٍ بسَرْقُسطَة ، ومُجاهِدِ العامريِّ بدانية والجزائر .

وفَقَدَ عربُ الأندَلُسِ حَماسةَ جدودِهم ، التي كانتِ الدَّافعَ الأوَّلَ للجِهاد ، ولم يَعُد عربُ الأندَلُسِ يُهدِّدُونَ فَرنسا ، بل استكانُوا وصارُوا غَرَضًا لغاراتِ أورُبَّة ، التي أصبَحَت كلُّها تَدينُ بالدِّينِ المسيحيّ .

لقدِ انغمسَ عربُ الأندَلُسِ في المَلذَّات ، حتّى صَغُرَت أحلامهم ونَقُصَت عُقُولُهم ، وصارتْ نفوسُهم وضيعة ، وبعُدوا من البأسِ والفُروسيَّةِ والبَسالَةِ ولقاءِ الرِّجال ، ومِراسِ الأنجادِ والأبطال .

وصار أهلُ فرنسا يشُنُّونَ الغاراتِ على سواحلِ أسبانيا الإسلاميَّة ، ويَختَطِفونَ مَراكِبَهم من كلِّ جهةٍ ولا غِياثَ لهم ولا ناصر ، فالمِلك فيهم حقيرٌ ذليل ، والعالِمُ لا هَمَّ له إلاَّ جمعُ المال ، يسرق ولا يشبع ، والتَّاجر فاجر ، والرَّعِيَّة استكانت للذُّلِّ والهَوان .

٥

ورِثَ ملوكُ الطَّوائِفِ مُلكَ بنى أُميَّة ، وشادُوا دُوَلَهم الصَّغيرةَ فى المدن والثُّغور الأندَلُسيَّة ، وراح كلٌّ منهم يكيدُ للآخَرِ ويُحارِبُه ، فانقَسَمَ عربُ الأندلُسِ شِيَعًا وطوائِفَ مُتَنابذينَ مُتناحِرين ، وراحَ كلُّ فريقٍ يستعينُ فى حَربِ الفَريقِ الآخرِ بالنّصارَى من أهلِ البلادِ المُحتلَّة ، فكان ذلكَ بدءَ توهينِ الإسلامِ فى الأندَلُس ، وخضدِ شَوكَتِه ، وارتِفاعِ شأن الأسبانِّيين .

واشتدَّ لهيبُ هذه العَداوةِ الطَّائِشَةِ بينَ الإماراتِ الشَّمالية ، التى استقرَّ فيها بنو هُود فيما بين بَلَنسِيَةَ وسَرَقُسطَة . كان المقتدِرُ بن هُود ، أميرُ سَرَقُسطَة ، لا همَّ له إلاَّ سحقُ أخيه المُظَفَّر ، أميرِ لارِدَة ، فاستعانَ على حربِه بالنَّفاريِّين (البشكنس) حتى

ظَفِرَ به أخيرًا وسَجَنَه .

وتُوفِّىَ المقتدرُ بعدَ أن قسَمَ مُلكَهُ الصَّغيرَ بين ولدَيه ، فَخَصَّ المؤتمنَ بسرَقُسطَةَ وأعمالِها ، وأخاهُ المنذِرَ بدانيَةَ وطَرطُوشَةَ ولارِدَة . ودبَّ الخِلافُ بين الأَخوَين ، واندَلَعَ لهيبُ الحربِ الأهلِيَّةِ بينَ المسلمين ، فاستعانَ المنذِرُ بسانكو ملكِ أرجون ، وكونتِ برشلونة ؛ وخرجَ نفرٌ من أنصارِ المظفَّر بنِ هُودٍ على المؤتمن ، نُصرةً لأميرهم ؛ واستنجَدَ المظفَّر فى سجنِه بملِكِ قَشتالة ، فأرسَلَ جيوشَه لقتالِ المؤتمن ؛ ولكنَّ المظفَّر مات فى سجنِه ، فنامتِ الفِتنة إلى حِين .

وكانت بلنسِيَةُ فريسةَ الاضطرابِ والفَوضَى ، فاستولَى عليها حفيدُ المنصور ، ثمَّ خَلَفَه ابنُه المظفَّر ولكنَّ صِهْرَه المأمونَ بنَ ذى النُّون ، صاحبَ طُلَيطُلَةَ ، خلعَهُ وأسَرَه ، وضمَّ بَلنسِيَةَ إلى أعمالِ طُليطُلة .

وكان القادِرُ الذى جاء عقِبَ وفاةِ المأمون ، ضعيفا ، فخرجَ عليه حاكمُ بَلَنسِيةَ أبو بكر ابنُ عبدِ العزيز ، حفيدُ المنصور ، واستقلَّ بحكمِها ، واحتمى بأذفُونْش (ألفونسو السادس) ، وتعهَّدَ له بجزْيَةٍ سنويَّة ، ولكنَّ أذفونشَ لم يقبل هذه الجِزية ، لأنَّ القادِرَ اشترى منه بَلَنسِيَةَ بمالٍ وفير .

وراحَ أذفُونْشُ يستنزِفُ أموالَ القادِر ، حتى عجزَ عن إمدادِه بما يطلب منه ، فأرسَلَ له جيشًا حاصره فى طُلَيطُلة . ولمّا كان القادِرُ خائِرَ العزيمة ، خاوِىَ الخزينة ، فقد نزلَ على شروطِ أذفونْشَ مُضطرًّا ، فَسلَّمه طُليطُلة ، على أن يفتتِحَ له أذفونْشُ بَلَنسِيَة ، ويُسلِمَهُ مَقالِيدَها .

ودخلَ أذفُونْشُ طُليطُلة ، وبدخولِه إليها ذهبتْ دولة ذى النُّون ، وانهارَ حِصنٌ من حصونِ الإِسلام فى الأندلُس .

٦

تلفَّتَ حفيدُ المنصور ، صاحِبُ بَلَنسِيَة ، عن عضُدٍ يحتمى به ، فلم يجد غيرَ المؤتمن ، صاحبِ سَرَقُسْطَة ، فراحَ يتقرَّبُ إليه ، ويُرسِلُ الرُّسل ، وكانت له ابنةٌ جميلة ، فسعى حتّى زوَّجَها من المُستعينِ بنِ المؤتمن ، وكانت حفلاتُ الزِّفافِ آيةً فى الرَّوعةِ والبَذَخ .

ومات حفيدُ المنصور ، فدبَّ الخِلافُ بين ولَدَيه ، ورأى القادرُ بنُ ذى النُّون الفُرصةَ مواتِيةً لتحقيقِ أمنيَتِه ، فَزَحَفَ إلى بَلَنسِيَة ، يؤيِّدُه فى زحفِه جيشُ أذفُونْش ، وخَشِيَ أهلَ بَلَنْسِيَةَ مَغَبَّةَ القتال ، فسلَّموا المدينةَ دونَ حرب ، وعاثَ جنودُ أذفُونشَ فى المدينةِ فسادا ، واشتدَّ الكربُ بالمسلمين .

وكان الأمرُ قد استَتَبَّ فى المغرِبِ ليوسُفَ ابنِ تاشَفِين ، أميرِ المُرابِطين ، فعزَمَ أن يسيرَ إلى

الأندَلُس نُصرةً لأُمَرائِه ، وحِمايةً للإِسلامِ الذى زعزعتِ النُّفرةُ والعداوةُ والبَغضاءُ الواقِعةُ بين الأُمراءِ أركانَه ، وهدَّدتْه بالزَّوال .

كان المُرابِطُونَ يجتمعونَ أوَّلَ أمرِهم برِباط ، بصحراءِ مُرَّاكِش ، يعبُدونَ اللّه ، فاجتَمعَ عليهم أناسٌ كثيرون ، وظهرَ أمرُ المُرابِطين ، واشتَهرُوا بدينِهم وتقشُّفِهم ، فأرسَلَ مسلمو الأندَلُسِ إلى أميرِهم يوسفَ يستصرِخونَه ، فخفَّ لنجدَتِهم ، تأييدًا للإِسلام ، وتوطِيدًا لدعائِمه .

وعَبَرَ يوسُفُ بنُ تاشَفِينَ إلى الأندَلُس ، فخفَّ أذفُونْشُ للقائِه فى جموع لا تُحصَى من جنودِه ، والتقتْ جيوشُ يوسُفَ وجيوشُ أذفونشَ فى الزَّلاَّقة ، فانهزَمَ جيشُ أذفونْش ، وانتصرَ جيشُ يوسف ، وانتعشَ ملوكُ الطَّوائِف إلى حين .

القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

شقاق

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

شقاق

١

الفُرقَةُ شائِعةٌ بينَ مسلمِي الأندلُس ، والحربُ دائِرةٌ بين ملوكِ الطَّوائِف . ابنُ عَبَّادٍ مَلك أشبيلِيَّةَ يُعاقِدُ ألفُونسو ملكَ قَشتالة ، على حربِ ابنِ ذى النُّون ، للاستيلاءِ على طُليطُلة . وألفونسو ينتهز فُرصةَ انقِسامِ المسلمين ، ليوسِّعَ رُقْعَةَ مُلكِه ، ويُقوِّى سُلطانه ، على حِسابِ ملوكِ الطَّوائِفِ المُتنازِعين .

وجَمَعَ ألفونسو مَلِكُ قَشتالَةَ جُموعَه ، وانطلقَ إلى طُليطلة ، وحاصَرَها حتّى خَربَت ، وشدَّدَ الحِصارَ عليها حتى اشتدَّ الجوعُ بأهلِها . ولم يَخفَ على عُقلاءِ المسلمينَ أن هذا الانقسامَ سيؤدِّى إلى انهيارِ صَرحِ الإِسلامِ فى الأندلُس ، وأنَّ سُقُوطَ طُليطُلةَ معناهُ بدايةُ النِّهايةِ للمسلمينَ فى أوربَّة . فنهضَ

أبو الوَليدِ قاضى باجَةْ يطوفُ بالولايات ، يدعو إلى الاتِّحادِ ونبذِ الخِلاف ، للإبقاءِ على الأندلُس الإسلاميَّة . ولكن ذَهَبَتْ صيَحاتُه أدراجَ الرِّياح ، فقد أعمَتْ شَهَواتُ المُلوكِ بصائِرَهم ، فلجُّوا فى عَداواتِهم ، وظلَّتِ الحُروبُ الأهليَّةُ حاميةَ الوَطِيس ، والعدُوُّ يتربَّصُ الدَّوائِر بهم جميعا .

ووَقَفَ ملوكُ الطَّوائِفِ جامدين ، يهَدون حِصارَ ألفونسو لطُليطُلة ، دونَ أن يُحرِّكوا ساكِنا . وحُوصِرَت المدينةُ حِصارًا شديدا ، وتُرِكَتْ لمَصيرِها المحتوم ، ورأى مُسلِمو طُليطُلةَ خِذلانَ إخوانِهم لهم ، وأنَّه لا أمَلَ لهم فى الحياةِ إلاَّ بالتَّسليم ، فاتّفقُوا مع ملِكِهم « القادِر » ، على أن يبعثُوا إلى ألفونسَ يطلبونَ الصُّلح .

ومَشى الرُّسُلُ إلى ألفونسو ، فسدَّ أذُنَيه عن رسالَتِهم ، وأبَى أن يُصغِيَ إليهم قبلَ تسليمِ المدينة ،

فأغضبَ ذلك رجالاتِ المسلمينَ المحاصَرين ، وعزَمُوا على أن يُدافِعوا عن مدينتِهم وشَرفِهم ، حتى الرَّمَقِ الأخير . ولكنَّ الغوغاءَ طَلَبُوا التَّسليم ، فما كان لهم هَمٌّ إلا أن يُنقِذُوا أرواحَهم من الهلاك .

وأُرغِمَ رؤساءُ المسلمينَ على إنفاذِ وفدٍ إلى ألفونسو ملكِ قَشتالَة ، يَعرضُ عليه تسليمَ المدينة ، على أن يعِدَ بتأمينِ النّاسِ على أرواحِهم وأموالهم ، والإبقاءِ على حُرِّيةِ الدِّين ؛ فَوَعَدَ ألفُونسو بذلك .

ورحلَ « القادرُ » ملكُ طُليطُلَةَ عنها ، وسُلِّمَتْ المدينةُ لألفونسو ، فطارَ صِيتُه ، وازداد قُوَّة ؛ ولاحَ أنَّ بقاءَ المسلمينَ فى الأندَلُسِ صار مَرهُونًا باتِّحادَ رؤسائِهم ، ولكنَّ المَطامعَ الشَّخصيَّةَ طَمسَتْ قلوبَهم ، فاستمرُّوا فى الشِّقاقِ البَغيض .

وتنمَّرَ ألفونسُو ، وسَفَرَ عن وجهِهِ الحقيقىّ ، فإذا به عَدُوٌّ لكلِّ حاكمٍ مسلم ، لا فَرقَ عِندَه بينَ

ابنِ عَبَّادٍ الذى آزَرَه يومَ أغارَ على المَمالِكِ النَّصرانِيَّةِ الصَّغيرَة ، مثلَ لِيون وجلِّيقِيَّة ونافار ، وبينَ يحيى ابنِ ذى النُّونِ الذى حارَبَه فى طُليطُلة . أرسلَ جنودَه إلى إمارةِ سَرقُسطَة ، فهبَّ مَلِكُها أبو جعفرِ ابنُ هود ، يدافِعُ عنها دفاعَ المُستَميت ، وأرسَلَ إلى ابنِ الأفطَسِ ملكِ بَطَلْيوسَ يدعوهُ إلى تسليمِ بعضِ حصونِهِ ، وطالبَ المُعتَمدَ بنَ عَبَّادٍ ملكَ أشبيلِيَّة ، الذى أعانَه يومَ تولَّى ملكه وهو مَهيضُ الجَناح ، حتى اشتدَّ ساعِدُه ، بتسليمِ بعضِ حُصونِه ، فثارَ ابنُ عَبَّادٍ لذلك ، وراحَ يتأهَّبُ للقتال .

وكتب ابنُ عَبَّادٍ إلى ملوكِ غَرناطَةَ والمَرِيَّة وبطليوسَ يدعوهم للاجتماعِ والتَّشاورُ ، فالتأمَ عِقْدُهم فى أشبيلِيَّة ، وقرَّروا دَعوةَ يوسُفَ بنِ تاشَفين ، أميرِ المُرابطِينَ بالمَغرب ، للّذودِ عن الإسلامِ فى الأندَلُس .

٢

وصلَ رُسُلُ ابنِ عَبَّادٍ إلى يوسُفَ بنِ تاشَفين ، يطلبونَ منه إنقاذَ الإسلامِ من سيطرةِ ملوكِ أسبانيا ، فقبلَ أن يذهَبَ بنفسِه للجهاد ، على أن يُعطِيَه ابنُ عَبَّادٍ ثغرَ الجَزيرة ، حتى يكفُلَ بذلك سَلامةَ طريقِه في الذّهابِ والعودة ، فأجابَه ابنُ عَبَّادٍ إلى ذلك .

وخرجَ يوسُفُ في جيش جرَّار ، يبغِي الجهادَ في سبيلِ اللّه . ولَمّا بلغَ الجزيرةَ استقبَلَهُ ابنُ عَبَّاد ، وسارَ في رُفقَتِه لقتالِ ألفونسُو ، الذى بدا نَجمُه يتألّقُ في سماءِ الأندَلُس .

كان ألفونسو في حربٍ مع ابنِ هود ، أميرِ سَرَقُسطَة ؛ فلمَّا بلغَه عبورُ يوسُف ، تركَ ابنَ هود ، وأهابَ بملوكِ أراجونَ ونافارَ وغيرهما أن يهُبُّوا لمؤازَرَتِه في قِتالِ المسلمين ، فلبُّوا دَعوَتَه ، وتقاطَروا

عليه من كلِّ صوب ، يتصايَحونَ صيحاتِ القِتال .

وخرجَ يوسُفُ من أشبيلِيَّة ، وحولَه جنودُه البَربَرُ وجنودُ المسلمينَ من أهلِ الأندَلُس ، والتقَى الجَمعانِ في سهلِ الزَّلاّقة ، المسيحيُّونَ في ثمانِينَ ألفا ، والمسلمونَ في عشرينَ ألفا ؛ ودارتْ رَحى معركةٍ رهيبة ، معركةٍ أطيحتْ فيها رءوسُ عِشرينَ ألفا ، انتهت بفِرارِ ألفونسو ، وانتصارِ المسلمين ، ولم تكتفِ الجيوشُ الإسلاميَّةُ بهذا النَّصر ، بل تقدَّمَتْ إلى الشَّمال تستردُّ القِلاعَ والحُصون .

وعادَ يوسُفُ بنُ تاشَفينَ إلى أشبيلِيَّةَ منتصرا ، فأعادَ الثِّقَةَ في النُّفوسِ إلى حِين .

انطلَقَ يوسُفُ بنُ تاشَفِينَ في القصرِ وهو مأخوذ : نقوشٌ بديعةٌ تُحيِّرُ الألباب ، وأعمدةٌ رُخامِيَّةٌ هائِلة ، عليها عُقودٌ تحملُ السَّقْفَ الذى غُطِّيَ بالزَّخارِف ، والحِيطانُ على ارتفاعِ مترين قد غُطِّيَتْ بالفُسيفِساءِ الجميلة .

وسارَ إلى قاعَةِ الاستِقبال ، تَحُوطُه الفَخامة ، وجلسَ تحتَ القُبَّةِ الفَخمة ، وقَدْ راحَ ينظُرُ إلى أعمدةِ المَرمَر الرَّائِعة ، التى حملتْ شُرُفاتٍ ثلاثا ، تُطِلُّ على القاعة .

وجلسَ ابنُ عَبَّادٍ إلى جِوارِ يوسُف ، الذى جاءَ من الصَّحراءِ لإنقاذِ الإسلام ، وأظهَرَ له ضُروبًا من الحَفاوةِ والكَرم ، فإذا بالشُّعراءِ يتوافَدونَ يترنَّمونَ بكرمِ ابنِ عَبَّادٍ وشجاعةِ ابنِ تاشَفين ، وإذا بالنُّبَلاء والعُظماءِ يتقاطَرونَ على القَصرِ مُهَنِّئِين ، وإذا بالمَلإ من الناسِ يتصايَحونَ خارِجَ القَصرِ فرحِين ، فقد ثَبَّتَ ابنُ تاشَفينَ أقدامَ الإسلامِ فى الأندَلُس ، بعدَ أن أوشكَتْ ريحُه أن تَذهَب من تلك البلاد .

٣

وعادَ يوسُفُ بنُ تاشَفينَ إلى المغرِب ، ولكنَّ جمالَ الأندَلُس لم يبرحْ ذِهنَه . وإنَّه لَيرى رياضَها

ورياحِينَها وجنَّاتِها وثمارَها وخيرَها الوَفير ، فيشغلُ فِكرَهُ بالاستيلاءِ عليها ، والقَضاءِ على مُلوكِ الطَّوائِفِ الغارِقِينَ فى اللَّهوِ والمُجون ، ليُعيدَ للإسلامِ مجدَه الأوَّل .

إنَّ المُعتَمِدَ بنَ عَبَّاد ، أقوى مُلوكِ الطَّوائِف ، وأكثَرِهم دَهاءً وكِياسَةً وشجاعة ، أطلَقَ للذَّاتِه العِنان ، حتَّى إنَّه يومَ عزَمَ على إرسالِ حظاياهُ من قُرطُبةَ إلى أشبيلِيَّة ، خرجَ معهُنَّ يُشيِّعهُنَّ ، فسايَرَهُنَّ من أوَّلِ اللَّيلِ إلى الصُّبح ، فودَّعهنَّ ورجَعَ ينشُد :

سايرْتُهم واللَّيلُ أُغفِلَ ثوبُه
حتَّى تبدَّى للنَّواظِرِ مُعلَما
فوقفْتُ ثَمَّ مودِّعًا وتسلَّمتْ
منِّى يدُ الإصباحِ تلك الأنجُما

وظلَّ ابنُ تاشَفينَ يفكِّرُ فى أمرِ الأندَلُس ، بعدَ أن تمَّ له الصُّلحُ مع ألفونسو ، وعقدَ معه مُعاهَدةً مُدَّتُها

خمسُ سنين ، تعهَّدَ فيها ألفونسو ألاَّ يتعرَّضَ للمسلمين ، وأن يرفعَ الجزيَةَ التى كان قدْ وضَعها ملوكُ الطَّوائِف . واستولت عليه فكرةُ الاستيلاءِ على الأندلُس ، حتَّى إذا ما اشتكى إليه أهلُ الأندلُسِ من ظُلمِ ملوكِهم ، وارتفاعِ الضرائِبِ التى يضعونَها فوقَ كَواهِلِهم ، جمعَ جُيوشَه لِغَزْوِ الأندلُس ، لِيَضعَ المَظالِمَ عن أهلِها .

وبلغَتْ جيوشُه الجزيرةَ الخَضراء ، فخافَه ملوكُ الطَّوائِف ، وقطعوا المِيرةَ عن جيشِه ، وأرادوا أن يصُدُّوهُ عن البلاد ، فاتَّفقَ ابنُ عَبَّادٍ مع ملوكِ الفرنجةِ على قِتالِه .

وتقَدَّمتْ جُيوشُ ابنِ تاشَفين ، تشقُّ طريقَها نحوَ حواضِرِ الأندلُس ؛ فسقطَتْ إشبيلِيَّة ، ووقعَ ابنُ عَبَّادٍ فى يدِ ابنِ تاشَفين ، فبعثَ به إلى أغماتَ فى مُراكِش ، لِيُمضِيَ بقيَّةَ عمرِه سجينا ، فراشُه

الغَبراء ، وغطاؤه صفحةُ الهواء ، وأنيسُه البُكاء ، وقَرينُه الدَّاء ، وسميرُه كلُّ نَوعٍ من أنواعِ البَلاء .

وقَصَدَ يوسُفُ بَطَلْيوس ، وقَبَضَ على مِلكِها ابنِ الأفطَسِ وقَتَلَه . ودانَت له الأندَلُسُ كلُّها . وأصبَحَتْ فى حَوزَتِه إلاَّ سَرَقُسطَة ، فإنَّها بقِيتْ فى يدِ بنى هُود ، لاعتِصامِهم بألفونسو ، ولِبُعدِها عن القُوَّةِ المُتَدَفِّقَةِ من المغرب .

قضى ابنُ تاشَفينَ مرةً واحدةً على الملوكِ الذينَ كانوا يديرونَ ما فى حَوزَتِهم من بلاد ، إدارةً كادت تُلحِقُ بالإسلامِ البَوار ؛ ووطَّدَ ملكَه فى الأندلُس ، فكانَ ملكًا قَويًّا ، مرهوبَ الجانب ، جدَّدَ الأمَلَ فى بقاءِ الإسلامِ فى أسبانيا ، بعدَ أن أشرفَ على الزَّوال . وقد أمَدَّ يوسُف ، بانتصارِه فى الزَّلاَّقةِ على جيوشِ ألفونسو ، فى عُمرِ الإسلامِ بالأندلُسِ أربعةَ قرون .

٤

مات يوسُف ، واستمرَّتِ الأندَلُسُ في حكمِ المُرابطِين ، الذينَ كانوا خَشِنين ، لا يعرفُونَ أساليبَ السِّياسَة ، وكانوا جامِدين ، بعيدينَ عن التَّسامُحِ الذى ألِفَه أهلُ الأندلُس ، مِمَّن حَكموهُم من المُلوك .

ودَبَّ الشِّقاقُ بينَ أحفادِ ابنِ تاشَفين ، طَمعًا فى المُلك ، ولاحَ أنَّ الأندلُسَ وشيكَةُ الوُقوعِ فى أيدى الأسبان ، الذين كانوا ينتهِزونَ فُرَصَ الشِّقاق بينَ المسلمينَ ، لينتَزعوا من العربِ المُتنازعينَ المَعاقِلَ والحُصون . ولكنْ ثارَ المغربُ على المُرابطينَ فى أواخرِ القرن الخامسِ الهجرىّ ، فسقَطَتْ دَولَتُهم ، وقامَت دولةُ المُوحِّدين ، على يدِ المَهدى بن تُومَرت .

ومات المَهدىُّ بنُ تُومَرت سنة ٥٢٤ هجريَّة ، فاتَّفقَت رِجالاتُ المَغربِ على مُبايَعةِ عبدِ المؤمنِ

ابنِ عليّ ، وكان أكثرَ رجالِ المَهدىِّ عِلمًا وفَضلاً ودَهاء .

سارَ عبدُ المؤمنِ سِيرةً حَميدة ، فأحبَّه النّاس ، وكان أوَّلَ من تَسمَّى فى المغربِ بأمير المؤمنين . بعثَ إلى الأندلُسِ جيشًا من المُوحِّدين ، فتغلَّبَ على غربيَة ، ثمَّ حاصرَ المَرِيَّة ، فاستغاثَ من كان فيها بألفونسو ، فأرسَلَ إليهم حليفه محمَّدَ بنَ مَردَنِّيش ، على رأسِ جيش من النَّصارَى والمَسيحيِّين ، فكسَره عبدُ المؤمن .

وظلَّت جيوشُ عبدِ المؤمنِ فى تقدُّمِها ، تفتحُ الأندلُسَ بلدًا بعدَ آخَر ، حتى مات ، وخَلَفَه ابنُه يوسف ، فاستمرَّ فى جهادِه ، حتى تمَّ له فتحُ الأندَلُس جميعا .

ودخلَ يوسُفُ أشبيليَّة ، وبنى جامِعَها ، وأقامَ جِسرَها ، واستَتَبَّ له الأمر . وعادَ الأسبانُ إلى

حُصونِهم ، يرصُدونَ فُرصَ الضَّعف ، لينقَضُّوا على المسلمين ، ويضربُوا ضَربَتهم القاضِية .

وتولَّى الأمرَ بعدَه ولدُه المنصورُ يعقوب ، فأكملَ جامعَ أشبيليَّة حتى صارَ إحدى عجائِبِ الدُّنيا ، وخرجَ لحربِ ألفونسو ، فاتَّحدَ ملوكُ أوربَّا ، وسارُوا لحربِ المنصور .

والتَقَى الجَمعانِ في الأركوس (الكَرك) ، ودارتْ رحَى معركةٍ رهيبة ، قُتلَ فيها من النَّصارَى أكثرُ من مائةِ ألف ، وغَنِمَ المسلمونَ غنائِمَ هائِلة ، حتَّى إنَّ العربَ كانوا يبيعونَ الأسيرَ بدِرهَم ، والسَّيفَ بنصفِ دِرهم ، والحِمارَ بدِرهم ، والفَرسَ بخمسةِ دراهِم .

وانطَلَقَ المنصورُ يعقُوبُ إلى طُليطُلة ، عاصِمةِ ألفونسو الثَّامن ؛ وحاصرَها ، فأخَذَ الجهدُ بخناقِ أهلِها ، وكادتِ المدينةُ تخِرُّ ساجدةً تحت أقدامِ

الأمير ، ولكنَّ أمَّ ألفونسو وبناتِهِ وحرَمَه خرجوا إلى يعقوب وخَرُّوا ساجدين تحتَ أقدامِ المنصورِ يعقوب ، يتوسَّلونَ ويرجُونَ ويُلحِفونَ في الرَّجاء ، واستغاثُوا به وبمروءَته ، فأكرَمَهُنَّ ، وأعادَهُنَّ إلى مَقَرِّهِنَّ مُعزَّزاتٍ مُكَرَّمات ، ورفَعَ الحِصارَ عن طُليطُلة ، وما دارَ بخَلَدِه أنَّ أبناءَ هؤلاءِ الذينَ أكرَمَهم سيضطهدونَ العَرب الذين كُتِبَ عليهم أن يُشاهِدوا زوالَ المُلكِ العَربيِّ من الأندَلُس ، أشَدَّ اضطهاد .

٥

وماتَ يعقُوبُ المَنصُور ! وفي سنة ٦٠٩ هجريَّة ، انطلَقَ ابنُه عبدُ اللّه محمدُ النَّاصِرُ إلى الأندَلُس ، في ستِّ مائةِ ألفِ مُقاتِل ، ليفتَحَ معاقِلَ أورُبَّة . وبلَغَ البابا خروجُه ، فأعلَنَ الحَربَ المُقَدَّسة ، فإذا بالجُيوشِ النَّصرانِيَّةِ تتدفَّقُ من إيطاليا وفرنسا وألمانيا إلى أسبانيا لِملاقاتِه .

أعجبَ النّاصِرُ بكثرةِ جُيوشِه ، فراحَ يفتِكُ فى سيرِه برجالاتِ الأندَلُس ، فوَزيرُه ابنُ جامِع أشارَ عليه بذلك ، ليخلُوَ له وجهُ الأندَلُس ، دونَ الأمراءِ المُسلمينَ جميعا . ولم يستَشِر رؤساءَ البلادِ وقادَتَها ، بل أهملَ أمرَهُم ، مُغترًّا بالجيشِ الجَرَّارِ الذى يُلقِى الرُّعبَ فى قلوبِ أعدائِه .

وفى سُهُولِ نافار وتولوزا ، على بُعدِ مائة وأربعينَ كيلومترًا من قُرطُبة ، فى ذلكَ المكانِ الذى يُسَمِّيهِ العربُ العِقاب ، لكثرةِ ما كانَ فيه من العقَبات ، التقَتْ جيوشُ أوربَّةَ المُتَّحِدَةُ بجيوشِ النّاصِرِ ، وهزَمَتْها هزيمةً نكراءَ ، كان من أثَرِها تمَزُّقُ جيوشِ المُسلمين ، وسقُوطُ زهرةِ شَبابِهم قتلَى ؛ فلاحَ لكلِّ بصيرٍ أنَّ أيَّامَ العَربِ الأخيرةِ فى الأندَلُسِ قد لاحت ، وأنَّ شمسَهُم أوشكَتْ أن تَغيب .

القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

انتصار الأسبان

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأطيعوا اللّه ورسولَه ، ولا تنازَعوا فتفشَلُوا وتذْهَبَ رِيحُكم ، واصبِرُوا ؛ إنَّ اللّه مع الصَّابِرين ﴾ .

(قرآن كريم)

١

تقَطَّعَتْ أوصَالُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ فى الأندَلُس ، فصارَ كلُّ فارسٍ أبلَى فى جِهادِ الأعداءِ قِبلَةَ أنصارِه ، يُؤَيِّدونَه ويُغرُونَه على أن يستقِلَّ بالأمرِ وحدَه ، وكانَ عُمرُ بنُ يوسُفَ بنِ الأحمرِ من أشهرِ فُرسانِ المسلمين ، فلمَّا دبَّ الضعفُ فى ملوكِ المُوَحِّدين ، وراحَ الزُّعماءُ يعطونَ الحصونَ للأسبان ، ثارَ ابنُ الأحمر ، واستقلَّ بقلعَتِه ، سنةَ تسعٍ وعشرينَ وستِّ مائة هجريَّة .

واشتدَّ ساعِدُ ابنِ الأحمرِ بقرابَتِه من بنى نصر ، وأصهارِه بنى أشقَيْلُولةَ ، وثارَ بأشبيلِيَّةَ أبو مروانٍ الباجِيّ ، ، فصالَحه محمَّدُ بنُ الأحمر ، على أن يُزَوِّجَه

ابنَته ، فأطاعَه ودخل أشبيلِيَّة ، وسُرعانَ ما غَدَرَ بابنِ الباجِيّ وقتله .

وظلَّ ابنُ الأحمرِ يُرسِلُ أعوانَه إلى المدُنِ القَريبة ، لاستمالةِ أهلِها إليه ، وقد نجحَ فى استمالةِ أهلِ غَرناطَةَ إليه ، فدخلَها وابتنى بها حِصْنَ الحَمراء لنزولِه .

كان الأمراءُ يستعِينونَ بملوكِ الأسبان ، لبسطِ نفوذِهم على المُدنِ التى فى حَوزَةِ الأمراءِ المسلمين ، وكان ملوكُ الأسبانِ يُعينونَ أميرًا على أمير ، توهِينًا لأعدائِهم . وقد مدَّ ابنُ الأحمَرِ يدَه إلى طاغِيةِ أسبانيا ليُعاضِدَه ، فانتهَزَ ملكُ أسبانيا هذه الفُرصة ، واستولَى على قُرطُبة ، حاضِرةِ الإسلامِ فى الأندَلُس ، فى سنةِ ثلاثٍ وثلاثينَ وستِ مائة من هجرةِ الرَّسول .

وسارَ طاغِيةُ الأسبانِ وابنُ الأحمرِ إلى إشبيلِيَّةَ سنةَ ستٍّ وأربَعينَ وستِّ مائة ، ودخلَها صُلحا ، ثم مَلكَ مرسية ، ولم يزلْ يقْتطِعُ ممالِكَ المسلمين ، كورة كورة ، وثغرًا ثغرا ، إلى أن ألجأ المسلمينَ إلى سيفِ البَحر ، ما بينَ رُندَةَ من المغرِب ، إلى إلبيرةَ من مشرِقِ الأندَلُس .

واستعادَ العَدُوُّ المَخذولُ منَ المسلمينَ أكثرَ بلادِ الأندَلُسِ وحُصونِها ، ورأى ابنُ الأحمرِ أنَّ الدَّائِرة ستدورُ عليه ، فثابَ إلى رُشدِه ، وثارَ على الطَّاغِية ، وراحَ يعمَلُ على استرجاعِ الحُصون ، ورأى أن يستَعينَ ببنى مَرين ، ملوكِ المَغرِب ، فبعثَ إليهم يلتمِسُ منهم العَون .

وتوافَدَ على الأندَلُسِ الغُزاةُ من بنى مرين ، فدَفَعَ ابنُ الأحمرِ فى نحرِ عَدُوِّهِ ، وفى أثناءِ ذلكَ ماتَ ابنُ

الأحمرِ ، واستولَى أبناؤُه على جميعِ ما فى أيدِى المسلمين .

٢

اشتدَّ ساعِدُ بنى الأحمرِ بغَرناطَة ، ورأى «دون بِطرُه» أن يُنازِلَهم قبلَ أن يَسيحُوا فى الأرض ، لاستِعادَةِ الأراضِى التى خرجَتْ من أيدى المُسلمين ، فانطَلَقَ إلى طُليطُلة ، ودخلَ على البابا ، وسجدَ له وتضَرَّع ، وطلبَ منه استئصالَ ما بَقِىَ من المُسلمينَ بالأندُلس .

وبعثَ البابا إلى ملوكِ أوربَّة يستَفِزُّهم للحربِ المقدَّسَة ، فاستجابَ له خمسةٌ وعشرونَ ملكا ، وأخذُوا الأُهبةَ لطردِ المسلمينَ من أسبانيا .

قَلِقَ الغنىُّ باللّه ابنُ الأحمر ، لَّما بَلَغَه نبأ هذه التَّعبئَة ، وأوجَسَ المسلمونَ بغَرناطة خيفةً من ذلكَ

الاتحاد ، فاستَنجَدُوا بالَمرِينِىّ أبى سعيد ، صاحِبِ فارس ، وأنفَذُوا إليه رُسُلا ، ولكنَّ المَرِينِىَّ لم يَخفَّ لَنجدَتِهم ، فعقَدَ المُسلمونَ فى الأندَلُسِ العَزمَ على أن يُدافِعُوا عن الأرضِ الباقيةِ فى حَوزَتِهم حتّى المَمات .

وأقبلَ « دون بِطرُه » فى جُموعٍ لا تُحصَى ، ووصَلَتِ الأثقالُ والمَجانِيقُ وآلاتُ الحِصارِ والأقواتُ فى المَراكِب ، ووصلَ العَدوُّ إلى غرناطة وامتلأتِ الأرضُ بهم ، وأغارتْ سَرِيَّةٌ من العدُوِّ على سَرِيَّةٍ من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعةٌ من فُرسانِ الأندَلُسِ الرُّماةِ فقطَعوهُم من الجيش ، وثارت دِماءُ العرب الفاتحِينَ فى أحفادِهم ، فانقَضُّوا على السَّرِيَّةِ انقِضاضَ اللُّيوثِ الكَواسِر ، ولم يتركوها إلاّ بعدَ أن

استأصلُوها ، وتركوها كـأمسِ الدَّابر ، وكـانَ هـذا أوَّلَ النَّصر .

وركِبَ قائِدُ المسلمينَ في خمسةِ آلافٍ من أبطالِه الصنَّادِيد ، واندَفعَ نحوَ الفِرنج . فلمَّا شـاهَدَ الفِرنـجُ قِلّتهـم ، عَجِبُـوا مـن إقدامِهـم ، فمـاذا يفعلُـونَ فـى جيـشِ « دُون بِطـرُه » الزَّاخِـر ، الـذى لا يُحصَـى ؟ ودارَتِ المَعركـة ، وإذا بالفِئَـةِ القَليلَـةِ تجـوسُ خِـلالَ جُيوشِ الفِرنـج ، وإذا بالسُّيوفِ العَربيَّـةِ تـأتَلِقُ فـى الهَواء ، ثم تَهوِى لِتَقْطَعَ الرِّقاب ، وتُسيلَ الدِّماء . وإذا بريحِ النَّصر تهبُّ عليهم ، فيزدادونَ عزمًا وقوَّة .

وانقضَتْ ثلاثةُ أيَّامٍ وسيوفُ المسلمينَ تأخُذُ الفِرنجَ من كل جانب ، فانهزَمَ الفِرنْجُ أقبحَ هَزيمـة ، وقتـلَ « دون بطْرُه » ومن معـه مـن المُلـوك . وخـرجَ أهـلُ غَرناطَةَ لجمعِ الأموال ، وأخـذِ الأسـرَى ، فاستَولَوا

على أموالٍ عظيمة ، منها من الذَّهبِ ثلاثةٌ وأربعـونَ قِنطارًا ، ومن السَّبْي سبعَةُ آلافِ نفس ، وكـان مـن جُملَـةِ الأُسـارَى امـرأةُ « دون بطْـرُه » وأولادُه ، فبَذَلَتْ فى نفسِها مدينةَ طَرِيف وجَبلَ الفتح ، وثمانيةَ عشَرَ حِصنا ، فلم يقبَلِ المسلمونَ ذلك .

قُتِلَ المُلوكُ الخمسةُ والعشرونَ جميعُهـم ، واسـتمرَّ البَيعُ فى الأسرَى والأسلابِ والدَّوابِّ سـتَّةَ أشـهُر ، ووردَتِ البَشائِرُ بهذا النَّصرِ العظيمِ إلى سائِر البلاد ، ولكنَّ الإسلامَ لم يستَفِد كثيرًا بهذا النَّصر ، فقد دبَّ الهرَمُ فى الدَّولةِ الأندَلسيَّة ، واستُؤصِلَ الـرأس ، ولم يبقَ إلاَّ الذَّنَب .

٣

وتعاقَبَ مُلوكُ بنى الأحمرِ على غَرناطَة ، حتـى آلَ الأمـرُ إلى أبـى الحَسَنِ بـنِ سـعد ، وكـانَ ضَعيـفَ

الرَّأى، غارقا فى لهوِه وخمرِه ، يترُكُ أمرَ الدَّولةِ ، ليقضىَ وقتَه فى الحريم ، فقد هامَ حُبًّا بحظيَّتِه الأسبانيَّة « ثُريَّا » . وقد ساءَ ذلكَ زوجَتَه الأخرَى السِّيِّدةَ عائِشة ، فراحتْ كلٌّ منهما تَستَعينُ بأعوانِها لكيدِ غريمَتِها ، فكان فى ذلك زلزلَةُ أركانِ دولةِ غَرناطَة ، آخِرِ دَولةٍ إسلاميَّةٍ فى إسبانيا .

كان السُّلطانُ يُقدِّمُ ولدَهُ أبا عَبدِ اللّهِ محمد ، ابن السيِّدةِ ثُريَّا ، على ولَدَيهِ محمدٍ ويوسف . فدبَّ الشِّقاقُ فى الأسرة ، وانتهزَ محمدٌ ويوسُفُ فرصةَ انشغالِ أبيهِما فى لذَّاته ، وفرَّا إلى القَشتالِيِّين .

خرجَ محمدٌ ويوسُفُ مع القَشتالِيِّين لِقتالِ أبيهِما ، فجمَعَ أبو الحَسنِ جُموعَه وقاتَلَهُما ، وانتصَرَ عليهما ، وأرادَ أن يثأرَ من الأسبانِ ، لنُصرتِهم لابنَيهِ

الثَّائِرَينِ عليه ، فبعَثَ ابنَه أبا عبد اللّه لِقتالِهم ، فوقَعَ أبو عبدِ اللّه أسيرًا فى يدِ الأسبان فى بعضِ وقائِعه .

ودبَّتِ الشَّيخُوخَةُ فى أبى الحَسن ، وضَعُفَ عقله ، باسترسالِه فى شَهواتِه ، فصارَ لا يخرُجُ من دارِه ، ولا يهتَمُّ بأمرِ الدَّولة ، فساءَت حالَةُ البِلاد ، وراحَ العَدُوُّ يَنقُصُها من أطرافِها . وأُصيبَ أبو الحَسنِ بالصَّرَعِ ، وفَقَدَ بصرَه ، فتنازَلَ عن المُلكِ لأخيهِ أبى عبدِ اللّه الزُّغل ؛ فوجَدَ الأسبانُ أنَّ الفُرصةَ مُواتِيَةٌ للقضاءِ على المُسلمين ، فأطلَقُوا أبا عبدِ اللّه من أسرِهم لِمُناوأةِ عمِّهِ الزُّغُل .

سارَ أبو عبدِ اللّه مع الأسبانِ لقِتالِ عمِّه ، وفى أثناءِ اندلاعِ لهيبِ الحَربِ بينَ المسلمين ، انتهَزَ فِردِيناندُ الخامِسُ ملكُ قَشتالة ، وإيزابيلاَّ ملكةُ أراجُون ، اللَّذينِ اتَّحدا بزواجِهما ، هذه الفُرصة ،

لِيستَولِيا على مالَقَة ، أمنعِ ثُغُورِ الأندَلُس ، فى أغسطس سنة ١٤٨٧ م .

ورأى عُقَلاءُ المسلمينَ فى الصِّراعِ الدَّائِرِ بينَ أبى عبدِ اللّه وعمِّهِ الزُّغُلِ قضاءً على الإسلامِ فى الأندَلُس ، فعرَضُوا على الزُّغُلِ وابنِ أخيه أن يقتَسِما ما بَقِى فى البِلاد ، حتّى لا يكونَ خِلافُهما سَبَبًا فى النَّكبة . فخرجَ الزُّغُلُ إلى وادِى آش ، واستَولَى أبو عبدِ اللّه حليفُ فِردِيناند على غَرناطَة .

٤

لم يرضَ فِرديناندُ عن هذه الهُدنَة ، التى عُقِدَت بين الزُّغُلِ وابنِ أخِيه ، فراحَ يُرسِلُ إلى الزُّغُلِ مَن يُشعِلُ نارَ الفِتنةِ بينَه وبينَ ابنِ أخيه ، فقد حَقَدَ فرديناندُ

على أبى عبدِ اللّه ، لأنّه رفَضَ أن يُسلِمَه حِصْنَ الحَمراء .

وسارَ الزُّغُلُ مع فِرديناندَ لقتالِ أبى عبدِ اللّهِ حليفِ فرديناندِ بالأمس ، واستولَى الأسبانُ على أغلبِ الحُصونِ القائمةِ حولَ غَرناطَة ، ووجدَ فِرديناندُ أن يتخلّصَ من الزُّغُل ، ليبقَى عبدُ اللّه وحيدًا فى المَيدان ، فدسَّ إليه رجُلا يُخَوِّفُه من الأسبان ، ويعرِضُ عليه أن يتنازلَ عن وادِى آش لفرديناند ، نظيرَ مبلغٍ من المال .

وخُدِعَ الزُّغُل ، وباعَ آش إلى فِرديناند ، وحملَ المالَ الوفير ، وذهبَ إلى المغرب ، ولكنَّ سُلطانها نَقَمَ عليه مُؤازَرتَه لفرديناند ، وبيعَه أرضَ المسلمين ، فصَادَرَ مالَه وسَمَلَ عينيه ، وألقاه فى السِّجنِ حتّى

مات ، وبقِىَ أبو عبدِ اللّه وحدَه فى المَيـدان ، يتلَقّـى ضرباتِ فرديناند وخُلفَائِه .

صـارتْ غَرناطَـة ، عَـروسُ الأندَلُـس التـى فـاضَ عِلمُها حتّى غَمرَ أوربَّا جميعَها ، وحدَها فى الميـدان ، كانت جزيرةً عربيـة ، يُحيـطُ بهـا الأعـداءُ مـن كـلِّ جانب ، فقـد ضُـربَ حولَهـا حِصـارٌ شـديد ، لتخِـرَّ صريعةً تحتَ أقدامِ فرديناند .

وطارتِ الأنباءُ إلى الشَّرقِ تحملُ خبرَ أفدحِ فجيعةٍ تقَعُ بالمُسلمين ، الأعداءُ تُحيطُ بآخِر حصنٍ للإسـلامِ فـى الأندلُـس ، إحاطَـةَ السِّـوارِ بـالمِعصَم ، وإن هـى إلاّ أيـَّامٌ حتّى تُصرعَ حَضـارةُ الإسـلام فـى أسـبانيا ، فاتّفقَ بايزيدُ الثانِى العُثمانِىّ ، مـع السُّـلطانِ قايتبـاى ملكِ مصر ، على نجدةِ مسلِمى غَرناطة ، بأن يُرسِـلَ بـايزيدُ أسـطولاً إلى أراضِـى أسـبانيا ، وأن يبعـثَ

قايتباى جيشًا من جهةِ إفريقِيَّة ، وهمَّ المَلِكان بنجـدةِ إخوانِهم فى الدِّين ، ولكنَّ بايزيدَ شُغِلَ بفِتنَةِ أبنائِـه ، التى انتهت بتنازُلِه عن العرشِ لابنِه سَليم .

وأوجسَ فرديناندُ وإيزابيلاّ خِيفةً من تأييدِ قايتبـاىَ لُمسلِمى غَرناطَـة ، فبعثـا إليـه المِسـيُو بطْـرُه مارتـير سَفيرا ، فأقنَعَ قَايتبـاىَ بـأنَّ الأسـبانِيِّينَ إنّمـا يُدافِعـونَ عـن أنفُسِــهم ، وأنــَّهم يُقـاتِلُونَ الذيــنَ اغتصَبُـوا ديـارَهم ، ونَهَبُـوا أموالَهـم ، وعـاثُوا فـى الأرضِ فسـادا . فـاكتَفَى قايتبـاىُ بـأن يُرسِـلَ إلى فِرديـنـاندَ وإيزابيـلاّ ، وإلى البابـا ، وإلى ملـكِ نـابُولى ، بعـدَمِ إرهاقِ مسلمى الأندلُس .

وذَهبتْ كتـب قايتبـاىَ صَرخَـةً فـى واد ، فقـد راحَتِ الجُيـوشُ المَسـيحِيَّةُ تتدفَّـقُ فـى مـرجِ غرناطَـةَ الجنوبِىّ ، وأخذَتِ الجُيوشُ المُزَوَّدةُ بالمَدافِع والذّخائِر

تدكُّ الحُصون ، وراحَ فِرديناندُ يبتنى لجيوشِه مدينةَ « سانتافى » (العناية المُقَدَّسة) ، فقد عَزَمَ على ألاَّ يبرحَ المكان ، قبلَ أن يستأصِلَ المسلمينَ من أسبانيا .

وبقِيتْ غَرناطَة وحدَها ، تنتظِرُ مصيرَها المحتوم .

الحلقة الرابعة

العرب فى أوربا

القصص الدينى

آخر أيام العرب فى الأندلس

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

آخر أيام العرب في الأندلس

١

ضَربَ فِرديناندُ الحِصارَ على مدينةِ غَرناطة ، آخِرِ معقل للمُسلِمينَ في الأندلُس ، وأنشأ لجيوشِهِ مدينةَ « سانتافي » في سهلِ مَرجِ غَرناطة ، فقد عَزَمَ على أن يستمرَّ حِصارُ المَدينة ، حتى تسقُطَ في يده ، ويقضِيَ بذلكَ على دَولةِ المسلمينَ في أسبانيا .

وتَدفَّقَت جُيوشُ النّصرانِيّةِ كالموجِ الزّاخِر ، وقد تزوَّدتْ بالمَدافِعِ والذّخائِر ، وراحتْ تُهاجِمُ الفِئَةَ القليلةَ المُحاصَرة ، التي وقفتْ وحدَها في الميدان ، تقاتِلُ عن دينِها وأعراضِها ، لا أمَلَ لها في مَدَدٍ يأتِيها من الخارج ، وقدِ انحصَرَ الرّجاءُ في عزيمةِ رجالِها ،

وما بَقِيَ في المَدينةِ من أغذِيَةٍ ومؤن .

رأى فارسُ المسلمينَ موسى بنُ أبي غَسّان ، أنَّ الهُجومَ خيرُ وسيلةٍ للدِّفاع ، فجمعَ الفُرسانَ الصّنادِيد ، الذينَ وهَبُوا حياتَهم للمَوت ، وانطَلَقَ على رأسِهِم ، يشُقُّ طريقَه في جُيوشِ النّصرانِيَّة ، التي أطبقتْ على غَرناطَة من كل جانب ، يلعبُ بسيفِه ، يقُطُّ الرُّؤوسَ ويُثخِنُ العَدُوَّ بالجِراح ، ويوقِعُ الاضطرابَ بين صُفوفِه ، حتى إذا ما بلَغَ به وبمن معه الجَهد ، عادَ إلى غرناطَةَ يستَريح ، ليَستأنِفَ جهادَه ، والأعداءُ يرمُقونَه في دَهشٍ وإعجاب .

وراحَ الخُطباءُ يُحرِّضونَ المسلمين ، ويُذكِّرُونَهم بأفضلَ ما فيهم ، ويُبَصِّرُونَهم بعواقِبِ الهزيمة ، فتأجَّجَت نارُ الحَماسةِ في صدورِهِم ، واستأسَدُوا في الدِّفاعِ عن غَرناطَة ، آخِرِ معاقِلِ المسلمين ، فقد تيقّنُوا أنَّ في اندحارِهم القضاءَ على حياةِ

الإِسلامِ فى الأندلُس .

٢

وبلغَ بايزيدَ الثانىَ العُثمانىَّ ما يُقاسيهِ مسلمو غَرناطَة ، فعقدَ العَزمَ على أن يشُدَّ أزرَهم ، حتى يستطيعُوا أن يقِفُوا فى وجهِ فِرديناند ، وأن يُعيدوا للإِسلامِ سَطوتَه فى أسبانِيا ؛ فاتّفقَ مع السُّلطان قايتباى ، ملكِ مصر ، على أن يُرسِلَ بايزيدُ أسطولاً إلى أراضِى أسبانيا ، وأن يُرسِلَ قايتباىُ جيشًا من جهةِ أفريقِيَّة ؛ وبدأ العاهِلان فى تجهيزِ الحَملة ، ولكنْ حدَثَ ما لم يكنْ فى الحُسبان .

ثارَ كركود وأحمد وسليم ، أبناءُ بايَزيدَ على أبيهم ، واندلَعتْ نارُ الحربِ الأهليَّة ، ولم تُطفَأ الفِتنةُ إلاَّ بتنازُلِ بايزيدَ عنِ الخِلافةِ لابنِه سليم الأوَّل ، وفى غِمارِ هذه الثورة ، ماتتْ فكرةُ بعثِ أسطول عُمانىٍّ لإِنقاذِ مسلمى غَرناطَة .

واغتنمَ فِرديناندُ وإيزابلاَّ هذه الفُرصة ، فأوفَدا إلى قايتباىَ ملكِ مصر ، مسيو بطْرُه مارتير سفيرا ؛ وكان بطْرُه حاذِقًا ماهرا ، فأخذَ يُقْنِعُ قايتباىَ أنَّ الأسبانِيِّين لا يُضمرونَ عَداوَةً للإِسلام ، ولكنَّهم يُدافِعونَ عن حُرِّياتِهم ، ويُقاتِلونَ العربَ الذينَ اغتَصبُوا دِيارَهم ، ونهَبُوا أموالَهم ، وأباحُوا حُرماتِهم ، وعاثُوا فى أرضِهم فسادا ؛ فاكتفَى قايتباىُ بأن أرسلَ إلى فِرديناندَ وإيزابلاَّ والبابا وملِكِ نابُولى ، كتبا يطلبُ فيها الرِّفقَ بمُسلِمى الأندَلُس ، وعدَمِ إرهاقِهم .

ولم يُسمَعْ رَجاءُ ملكِ مصر ، فقد كانت أصواتُ المَدافِعِ وصَلصلَةُ السُّيوفِ عندَ أسوارِ غَرناطَة ، عاليةً تُصِمُّ الآذان .

ووُئِدت فِكرةُ نُهوضِ المسلمينَ للدِّفاعِ عن غَرناطَة ، مَعقِلِهم الأخيرِ فى أسبانيا .

٣

أشرفَ فِرديناندُ الخامِسُ على حُصونِ غَرناطَة ، وبعثَ إلى أبى عَبدِ اللّه ، يدعُوهُ إلى التّسليم ، فأطرقَ يُفكِّر ، وإذا بصيحاتِ الحَرب ، والهُتافاتِ الحماسِيَّة التى كانت تنبَعِثُ من أفواهِ الشعب ، الذى أضرَمَ نارَه موسى بنُ أبى غَسَّان ، تَصُكُّ أذُنَيه ؛ فعزَمَ على أن يرفُضَ دعوةَ فِرديناند ، وألاَّ يلبسَ برضاهُ ثَوبَ العار ، فأرسلَ إلى فِرديناند ، أنَّ المَوتَ خيرٌ من التّسليم .

وأرسلَ فِرديناندُ سَراياه ، لإتلافِ ما حَولَ غَرناطَةَ من مَزارِعَ وحُقول ، ورابَطتْ سُفُنه فى مَضيقِ جبلِ طارق ، لتحُولَ دونَ وصولِ أىِّ مَدَدٍ من إفريقيَّةَ إليها ، ثم راحَ يُضَيِّقُ الحِصارَ على المدينة ، وقد عزمَ على ألاَّ يرفَعَ عنها حِصارَه ، حتّى تخِرَّ ساجِدةً تحتَ قَدَمَيه .

ومَرَّتْ شُهورُ الصَّيف ، والمدينةُ تُقاسى مرارةَ الحِصار ، والمؤنُ تتناقَص ، والحماسَةُ تخبُو ، والعزائِمُ تضعُف ، وعوامِلُ الهزيمةِ تستَشرى فى الجُموع ، وأقبلَ الشِّتاءُ ببردِه ، وغُطِّيتِ الوِهادُ والشُّعَبُ بالثُّلوج ، واحتاجَتِ الأجسامُ إلى أغذِيَةٍ تُمدُّها بالدِّفء ، ولكنْ عَزَّ الطَّعام ، وراحَ الجُوعُ يَعضُّ البُطونَ الخَاوِيةَ بنابه ؛ فازدادَ السُّخط ، ومَرِضتِ الأرواح .

واجْتَمعَ مَجلِسُ الحُكم ، يتشاوَرُ فى الأمر ، فإذا بروحِ الهَزيمةِ تتحكَّمُ فيه . وقدِمَ حاكِمُ المدينة ، وقَرَّرَ أن المُؤنَ الباقِيةَ لا تكفى إلا لِبضْعةِ أشهر ، فازدادَ التَّشاؤُم ، وهمسَ هامِسٌ بوجوبِ التّسليم . فانتفَضَ موسى بن أبى غَسَّان ، وقالَ فى ثورة : « إنَّ الدِّفاعَ واجب ، وإنَّ قبرًا تحتَ أسوارِ غَرناطَة ، خيرٌ من قُصورِ الدُّنيا فى ظلِّ الاستعباد » . فسرتْ رُوحُه الحماسِيَّةُ فى المَجلس ، فقرَّرَ أبو عبدِ اللّه أن يُوَلِّىَ

موسى أمرَ الدِّفاع .

٤

وقَفَ موسى على رأسِ فُرسانِه خلفَ أسوارِ غرناطَة ، ثمَّ أمَرَ بفَتْحِ الأبواب ، وما إن فُتِحَتْ حتّى تدفَّقَ موسى وفُرسانُه منها كالبَحرِ المُزمجِر . والتقى فُرسانُ المسلمينَ بجيوشِ فِرديناند ، ودارت رَحى معركةٍ رهيبة ، كان موسَى بطَلَها الصِّنديد فألقى الرُّعبَ في صُفوفِ الأعداء ، وأجَّجَ نارَ الحَماسةِ في صدورِ المسلمين .

وأقبلَ أبو عبدِ اللّه على رأسِ حَرَسِه المَلكيّ ، وخاضَ غِمارَ المعركة ، وتَوافَدَ المُشاةُ توافُدَ المَوجِ ، ومَشى الرِّجالُ إلى الرِّجال ، وسالَتِ الدِّماء ، وارتَفَعَتِ الصَّيحات ، ومالَ فُرسانُ فِرديناندَ على مُشاةِ المسلمين ، فزالُوا عن أماكنهم ، وفرُّوا هِرابًا ، يبغُونَ النَّجاةَ ، فلمَّا رأى حَرَسُ أبي عبدِ اللّه تشتُّتَ

المُشاة ، نكَصُوا على أعقابِهم ، وانطَلَقُوا صَوبَ المَدينة ، يبغونَ التّحصُّنَ بها .

وثارتْ ثائِرةُ موسى ، فراحَ يدعُو الفَارِّينَ إلى الثّبات ، والذِّيادِ عن أوطانِهم وأموالِهم ونسائِهم وأبنائِهم ، ولكنْ ذَهَبَتْ صَيحاتُه أدراجَ الرِّياح ، فثَبَتَ في المَيدانِ وحدَه ، وحولَه فُرسانُه البواسِل ، يُدافِعونَ عنِ الأرضِ التي تحتَ أقدامِهم ، فلمْ يَعُدْ للمسلمينَ في أسبانيا أرضٌ غيرَها .

وشَدَّ رجالُ فِرديناندَ عليهم ، فجعَلُوا يُدافِعونَ عن أرضِهم دفاعَ اليائسِ المُستميت ، وراحَ فُرسانُ المُسلمينَ يتساقَطُونَ صَرعَى تحتَ ضَرباتِ النَّصارَى ، التي كانت تُكالُ لهم من كلِّ جانب ، ولم يَبقَ إلاَّ موسى في عُصبةٍ قليلة ، فلم يجِدْ بُدًّا من الانسحاب ، والتَّحصُّنِ خلفَ أسوارِ المدينة .

٥

راحَ كبارُ الجُندِ والفُقَهاءُ والأعيانُ يتقاطَرونَ على بهوِ الحَمراءِ الكبير ، وقد علَت وجوهَهُم غَبرة ، ولاحَ فى مُحَيَّاهُم الأسى العَميق ، وجلسوا ساهِمينَ مُطْرِقين ، حتَّى إذا قامَ حاكِمُ المدينةِ يتحدَّث ، رفَعُوا أبصارَهم إليه ، ولم يظهَرْ في وجوهِهِم الاهتمام ، فقد كانوا يعلمونَ ما سَيُنبِئُهم به . قال حاكمُ المدينة : إنَّ المُؤَنَ قد نَضَبَتْ ، والبطونَ قد خَوَت ، والأمراضَ انتشرَت ، وأنينَ الشَّعبِ قد علا ، فليسَ أمامَنا إلاَّ المَوتُ أو التَّسليم .

وارتَفعَتْ فى القاعَةِ أصواتٌ تطلُبُ التَّسليم ، فهَبَّ موسى يقول : خيرٌ لنا أن نُذْكَرَ فيمن استُشهِدُوا فى الدِّفاعِ عن غَرناطَة ، من أن نُذكرَ فيمن سَلَّمُوها إلى الأعداءِ مختارِين .

ووضَعُوا أصابعَهم فى آذانِهم ، وأعرَضُوا عنه ، فقد ماتَت حماستُهم ، وباتت صُدُورُهم مسرحًا لليأسِ المَرير .

استمعَ أبو عبدِ اللّه إلى رأى الجماعة ، فأوفَدَ حاكِمَ المدينةِ لمُفاوَضَةِ فرديناند على التّسليم . انطلقَ الحاكِمُ بين جُموعٍ أضناها طولُ الحِصار ، ونَهكَها الجُوع ، وهَدَّها المَرض ، وعبثَ بها اليأس ، فتعلَّقَتْ به الأفئِدةُ القلِقة ؛ وما إن غابَ عنها حتى خُفِضَتِ الرُّءُوس ، وترقْرَقَتِ الدُّموعُ فى العُيون .

اجتمعَ حاكِمُ غَرناطَةَ بفِرديناندَ الخامس المَزهُوِّ بنصرِه . ودارتِ المُفاوَضاتُ بينَ المُنتَصِرِ والمَهزُوم ، حتى إذا انتهت ، عادَ الحاكِمُ إلى غَرناطَة ، ليرفَعَ إلى مجلِسِ الحُكمِ شُروطَ التَّسليم .

٦

واجتمعَ كبارُ الجُندِ والفُقهاءُ وأعيانُ البِلاد ، يستمعُونَ إلى الشُّروطِ الّتى قبلَها فِرديناند ، وراحَ الحاكمُ يقرأ : « .... يقِفُ القِتالُ بين الفريقَين سَبعينَ يوما ، إذا لم تصلْ خلالَها أمدادٌ إلى المُسلمين ، من إخوانِهم فى أفريقِيَّة ، سُلِّمتْ غَرناطَة ، ودخلَتْ فى طاعَةِ مَلكِ النَّصارَى ، وأن يُطْلَقَ سراحُ جَميعِ الأسرى من النَّصارَى بلا فِديَة ، وأن يُطلَقَ الأسرَى المُسلمونَ كذلك ، وأن يُؤَمَّنَ المسلمونَ على أنفسِهم وأموالهِم وأعراضِهم ، وأن يَحتفِظوا بشَريعَتِهم وقُضاتِهم ، وأن يتمتَّعُوا أحرارًا بشعائِر دينِهم ، من الصَّلاةِ والصَّومِ والأذان وغَيرِها ، ووأن تَبقَى المساجدُ حَرَمًا مَصونا ، لا يدَخُلُ نصرانِىٌّ مَسجِدًا أو دارَ مُسلم ، وألاَّ يُوَلَّى على المسلمينَ

نَصرانِىٌّ أو يهودِىّ ، وأن يجوزَ إلى إفريقِيَّةَ من شاءَ من المسلمين ، فى سُفُن يُقَدِّمُها ملكُ النَّصارَى ، فى مُدَّةِ ثلاثةِ أعوام ، وألاَّ يُقْهَرَ مسلمٌ على التَّنصُّر ، وأن يُوافِقَ البابا على هذه الشُّروط ، وأن يُغادِرَ أبو عبدِ اللّه غرناطَةَ إلى البَشَرات ، حيثُ يُقطَعُ ضِياعًا يعيشُ فيها ، وأن تُقَدِّمَ غَرناطَةُ خمسَ مائةٍ من أعيانِها ، كَفالةً بالإخلاصِ والطَّاعَة .

فارتَفَعَ البُكاءُ والعَويل، وصاحَ موسى بنُ أبى الغسَّان :

ـ كَفَى بُكاءً ، وإلى سيُوفِنا ، نُدافِعُ عن حُرِّيتنا ، ولْنَمُتْ مِيتةً نبيلة .

وقلَّبَ أبو عبدِ اللّه عينيه فيما حولَه ، فألفَى وجوهًا تنضَحُ باليأس ، فصاح :

ـ وَيلٌ لى ، كُتِبَ علىَّ أن أكونَ شَقِيًّا ، وأن يذهَبَ المُلكُ على يدى .

فقال الشيوخ :

ـ هذه مَشيئَةُ اللّه ، ولا رَادَّ لقَضائِه .

فصاحَ موسى :

ـ هـذا هـو الخِزىُ والعَار ، لـن يُوفِـى النّصـارَى بعهْدِهم ؛ سيسومونكم سـوءَ العـذاب ، ويفتنونكـم عـن دينِكـم ، ويُدَنِّسـونَ مساجِدَكُم ، ويسـتبيحونَ نساءَكم ، ولَلموتُ أحَبُّ إلىَّ من هذا .

ثمَّ خَرجَ وامتَطَى جَوادَه ، وانطَلَقَ كـالَمحموم فـى طُرُقاتِ غَرناطَة ، ثمَّ غادَرَها والشَّمسُ فى مَغرِبِهـا ، وسـارَ علـى ضِفَّةِ نهـر « شَنِّيل » وقـدْ دُجِّـجَ فـى السِّلاح ، وفيمـا هـو فـى سَيرِه ، وقَـعَ بصَـرُه علـى سَرِيَّةٍ من الأسبان ، فلكـزَ جَـوادَه ، واندَفَـعَ صَـوبَ أعدائه ، وراحَ يطعَنُهم بُرمحِه ، وانقضَّ عليهم كليثٍ كاسـر يُجَـدِّلُ هـذا ، ويصـرَعُ ذاك ، حتّـى سـقَطَ جوادُه تَحتَه . فتكاثَرُوا عليه ، فاستَلَّ خِنجَرَه يطعَـنُ به ، ويُدافِعُ به عن نفسِه ، ووجَدَ انـّه سيقَعُ أسيرًا

فى أيدى أعدائِه ، فأبى أن تكونَ هذه نهايَتَه ، فـألقَى بنفسِه فى اليَمّ ، ولَقاعُ البحرِ خَـيرٌ مـن ذُلِّ الأسْـر ، وعارِ الاستسلام .

٧

وسَقَطتْ غَرناطَة ، ولم يمضِ على تسليمِها إلاّ أعوامٌ قلائِـل ، حتّـى نَقَـضَ الأسـبانُ عهدَهُـم ، فـأغلَقُوا المَساجد ، وحُرِّمَ على المُسلمينَ إقامَةُ شَعائِرِهم ، وراحَ البابَواتُ يُصدِرونَ المَنشورات ، لإثارةِ المَسيحِيِّينَ علـى المُسلمين ، فـازدادت مظالِمُ الأسبان ، وضـاقَ بعضُ المسلمين بهذا الطُّغيان ؛ فثاروا فى الجبال وفَتكُـوا بمـن كان يُذيقهمُ الذُّلَّ من الحكام .

وثارَ القُسُس ، ونادَوا بوجوبِ تَنَصُّـرِ المسـلمين ، أو طَردِهم من البلاد . واشتدَّ الكربُ بالمُسلمين ، ففـرَّ بدينِـه مـن قَـدَرَ علـى الفِرار ، وفُتِـنَ عـن دِينِـه المُسـتضْعَف ، الـذى عَجـزَ عـن الهِجـرة ، واللُّحـوقِ

بإخوانِه المسلمين ، وأقيمَت مَحاكِمُ من القُسُس ، لُمحاكَمةِ مَن تَبدُرُ منه بادرةٌ من المسلمينَ المُتَنَصِّرين ، فكانُوا يحكمونَ بحرْقِه أو بسجنِه ، ويُنزِلونَ به أقصَى أنواعِ العذاب ، ويُنكِّلُون به نَكالاً شديدا ، فقد كانَ الأسبانُ مُتَعَصِّبِينَ غايةَ التَعَصُّب ، ولم يتلَقَّنُوا شيئًا من السَّماحَةِ الدِّينيَّة ، التي عامَلَهم المسلمونَ بها طَوالَ القُرونِ الثَّمانِية ، التي كانوا يعيشونَ فيها في أمنِ الإسلام ، وعَدالَتِه وسَماحَتِه .

واختَفى من أرضِ أسبانيا ، الشَّعبُ العربيُّ الباسل ، المُتَيَقِّظُ المُستَنِير ، الذى أحيا بهِمَّتِه تلكَ الأرضَ المُجدبَة ، والذى بعثَ من جامِعاتِه العربيَّةِ العَتِيدة ، نُورَ العِرفان ، الذى أخرَجَ أوروبًّا من ظلامِ الجَهلِ ، إلى نورِ العلمِ الحديث .